

ياروسلاف هاشيك

ابن حدي الطيب شفيك

وما جرى له في الحرب العالمية

الكتاب الثاني في الجبهة

30.3.2017



ترجمة
توفيق اللاسري

ياروسلاف هاشيك

ابن حزمي لطيف شفيق

وما جرى له في الحرب العالمية

في الجبهة

وكتاب روائي

رواية

ترجمة: توفيق الأسدي

للطباعة والنشر والتوزيع



دار الخيال

فني والجهنة

Twitter: @ketab_n

THE GOOD SOLDIER SVEJIK

الجندي الطيب شفيك

في الجبهة

تأليف: ياروسلاف هاشيك

ترجمة: توفيق الأسدي

حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر ©



للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 - شارع الكويت

المنارة - بيروت - 2036 6308

لبنان - تلفاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ **الخيال** للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2008

الرسوم: يوسف لادا

تنسيق الغلاف: مهدي شممص

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية؛ بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

عن شفيك

في القطار

في مقصورة من الدرجة الثانية في قطار براغ- تشكه بوديوفيتسه السريع كان هناك ثلاثة أشخاص هم الملازم الأول لو كاش وسيد مسن يجلس قبالة وله صلعة تغطي كامل رأسه، وشفيك الذي كان يقف بتواضع عند الباب المؤدي الى الممر ويشجع نفسه استعداداً لتلقي رشقة جديدة من الشتائم من الملازم الأول لو كاش، الذي واظب، متجاهلاً وجود المدني الأصلع، على توجيه الوعيد الى شفيك طوال الرحلة قائلاً إنه من أكثر المخلوقات رباعية الأرجل التي خلقها الله اصطفاً وهكذا دو اليك.

وكان كل ذلك يتعلق بشيء تافه جداً: عدد الحقايب التي كان من المفروض على شفيك أن يهتم بها.
قرع الملازم الأول شفيك قائلاً:

- إذا فقد سرقوا إحدى حقائبنا، أليس كذلك؟ أي شخص يمكنه أن يقول ذلك أيها النغل!

قال شفيك بلهجة لطيفة:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنهم لم يسرقوها حقاً. في المحطة يتواجد

عادة الكثير من اللصوص وأعتقد أن أحدهم أحب حقيبتك «لا شك». «ولا شك» ان هذا الشاب قد استغل الفرصة حين ابتعدت عن حقائبنا لأخبرك أن كل شيء على ما يرام. إنهم ينتظرون دائماً مثل هذه الفرصة كما تعلم. منذ عامين في المحطة الشمالية الغربية سرقوا من سيده شابة عربية الأطفال والطفلة الصغيرة التي في القمط في داخلها وكانوا شرفاء الى حد أنهم سلموا الطفلة الى مخفر الشرطة في شارعنا قائلين أنهم وجدوها مهجورة في مدخل بناء. ثم حاولت الصحافة أن تبرهن على أن الأم كانت أماً غير شرعية للطفلة.

ثم قال شفيك مؤكداً:

- في المحطات تحدث السرقات دائماً وستظل تحدث. لا يمكن أن تكون الأمور بعكس ذلك.

قال الملازم الأول:

- أنا على قناعة يا شفيك من أن نهايتك ستكون وخيمة. ما زلت لا أعرف إن كنت تتظاهر بأنك بغل أم أنك ولدت بغلاً. ما الذي كان في الحقيقة؟

أجاب شفيك وعيناه لا زالتا مثبتتين على الجمجمة الصلحاء للمدني الجالس قبالة الملازم الأول، والذي بدا أنه غير مهتم إطلاقاً بهذه المسألة وتابع القراءة في صحيفة «نوي فراي برسه»:

- لا شيء هام يا سيدي. بالفعل. كان في الحقيقة مرآة من غرفة الجلوس ومنصب الكي من البهو ولذا فنحن لم نخسر شيئاً في الواقع، لأن المرأة ومنصب الكي من ملك صاحب المنزل.

ولدى رؤيته لإيماءة الملازم الأول التهديدية استمر شفيك في الكلام وبلهجة ودية فقال:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أي لم أكن اعرف سلفاً أن الحقيقة ستسرق،

وأما بالنسبة للمرأة ومنصب الكي فقد قلت لصاحب المنزل اننا سنعيدها له بعد أوتنا في نهاية الحرب. في بلاد الاعداء الكثير من المرايا ومناصب الكي، لذا لن نعاني في مثل هذه الحالة ولن يعاني صاحب المنزل من أية خسارة. ما ان نغزو مدينة...

قاطعته الملازم الأول بصوت ييث الرعب في النفوس قائلاً:

- أمسك عليك لسانك يا شفيك. سأقدمك الى محكمة ميدانية في يوم من الأيام. فكر جيداً فيما إذا لم تكن ألغن غبي ونغل في العالم كله. في السنوات الألف القادمة لن يتمكن اي شخص من ان يجعل من نفسه غيباً بارزاً كما فعلت أنت بنفسك هذه الأسابيع القليلة الماضية. ألم تلاحظ ذلك أنت أيضاً، كما آمل؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لاحظت. لديّ، كما يقال، موهبة متطورة جداً لملاحظة الامور حين يكون الوقت قد فات وحدث شيء ما لا يدعو للسرور. لديّ ذلك النوع نفسه من الحظ الذي كان لرجل يدعى «نيخليا» من «نيكازانكا»، والذي ذهب الى حانة هناك تدعى «بستان البغايا». لقد أراد دوماً فعل الخير وان يبدأ حياة جديدة من يوم السبت فصاعداً، ولكنه كان يقول في اليوم التالي وعلى الدوام: «وفي ساعات الصباح الباكرة ايها الرجال، لاحظت أنني كنت أتمدّد فوق سرير من ألواح الخشب»⁽¹⁾. كان يحدث له دائماً حين ينوي ان يذهب الى البيت باحترام ان يكسر حاجزاً في مكان ما او أن يفك حصان عربية دروشكي او أن يحاول تنظيف غليونه بريشة ديك من قبعة رجل دورية من الشرطة. كان يائساً تماماً من ذلك، وكان مما يسبب له أشد القلق ذلك الحظ السيء الذي ورثه أباً عن جد. كان جده قد انطلق مرة في رحلات تدريبية...

- كرمي لله يا شفيك، لا تزعجني بحكاياتك.

(1) يعني في السجن (المترجم).

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أن كل ما أقوله لك حقائق. لقد انطلق جده مرة في رحلات تدريبية..

- انفجر الملازم الأول غاضباً:

- شفيك! أمرك مرة أخرى ألا تسرد لي المزيد من الحكايات. لا أريد سماعها. سأتعامل معك حين نصل إلى بودييوفتسه. هل تعرف أنني سأسجنك يا شفيك؟

قال شفيك بلطف:

- سأبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لا أعرف. لم تذكر ذلك بعد.

صرّ الملازم الأول بأسنانه لا إرادياً، ثم تنهد بعمق وأخرج من جيب معطفه نسخة من صحيفة «بوهيمي» وقرأ التقارير عن الانتصارات العظيمة ونشاطات الغواصة الألمانية «E» في البحر الأبيض المتوسط. ولكنه حين وصل إلى خبير اختراع ألماني جديد لنسف المدن بواسطة قنابل خاصة يتم إسقاطها من الطائرات والتي تنفجر ثلاث مرات متواليات، نبهه فجأة صوت شفيك وهو يكلم الرجل الأصلع:

- اعذرني فضيلتك. ألسنت السيد بور كرابيك، ممثل شركة سلافيا للتأمين؟

و حين لم يجب عليه الرجل الأصلع قال شفيك للملازم الأول:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني قرأت مرة في الصحف أن الرجل العادي يجب ان يكون فوق رأسه ما معدله ستين إلى سبعين ألف شعرة، وأن الأشخاص ذوي الشعور الداكنة يكون عدد شعراتهم أقل كما يمكننا ان نرى من خلال نماذج عديدة.

ثم استمر يقول بعناد:

- مرة قال احد طلاب كلية الطب في مقهى «أو شبيركو» إن فقدان الشعر يعود إلى الإثارة العاطفية التي تحدث خلال المخاض.

والآن حدث شيء مخيف. قفز الرجل الأصلع وزمجر مخاطباً شفيك بالألمانية: «اخرج أيها الخنزير»، ثم طرده رفساً إلى الممر وعاد إلى المقصورة وهو يخبيء مفاجأة لطيفة صغيرة للملازم الأول عن طريق تقديم نفسه إليه.

حدث خطأ صغير، فلم يكن هذا الشخص الأصلع هو السيد بور كراييك من شركة سلافيا للتأمين، بل اللواء فون شفار تسبورغ. وقد كان هذا اللواء في ملابس مدنية لأنه يقوم برحلة تفتيشية على الحاميات وفي طريقه إلى بوديوفتسه لمفاجأة حاميتها.

لم يكن قد ولد بعد مفتش عسكري في مثل ضراوته، وكان يخاطب قائد الحامية إذا ما وجد شيئاً مخالفاً للنظام هكذا: «هل لديك مسدس؟» «نعم لدي». «حسناً! لو كنت مكانك لكنت اعرف حتماً ما افعله به لأن ما أراه هنا ليست حامية بل زريبة لعينة لتربية الخنازير».

وبالفعل كان هناك دائماً من ينتحر بإطلاق الرصاص على نفسه بعد كل تفتيش يقوم به اللواء فون شفار تسبورغ، حتى يستتج هذا قائلاً وبلهجة الارتياح: «هكذا يجب ان تكون الامور! هذا جندي حقيقي».

ويبدو أنه لم يكن سعيداً اطلاقاً اذا بقي شخص ما على قيد الحياة بعد تفتيشه لوحده. كان لديه ولع بدفع الضباط الى اكثر الامكنة مدعاة لليأس. ولدى ادنى استفزاز كان على الضابط ان يغادر الحامية ويتوجه الى جبهة نتغرين او الى حامية يائسة سكيره في زاوية قذرة من زوايا غاليسيا.

قال:

- أيها الملازم الأول، في اية كلية للطلاب الضباط كنت؟

في براغ.

- إذا كنت في كلية للطلاب الضباط ولا تعرف رغم ذلك ان الضابط مسؤول عن مرؤوسيه. ان الامور في حالة جميلة فعلاً. بعد ذلك ستحدث

مع خادمك كأنه صديقك الحميم. أنت تسمح له بالحديث دون أن يخاطب أولاً. وهذا اجمل أيضاً. ثالثاً أنت تسمح له بإهانة الضباط الاعلى منك رتبة. وهذا هو الأجل اطلاقاً. ونتيجة لذلك سأضطر لاتخاذ الاجراءات اللازمة. ما اسمك ايها الملازم الأول؟

- لو كاش.

- وفي اي فوج تخدم؟

- كنت ...

شكراً. لن نتحدث عن المكان الذي كنت فيه. بل اريد ان اعرف أين أنت الآن؟

- في الفوج الواحد والتسعين مشاة يا سيدي. لقد نقلوني ...

- نقلوك؟ هذا امر يدل على حسهم السليم. لن يضرك أبداً ان تذهب بأقصى سرعة ممكنة مع الفوج الواحد والتسعين فتلقي نظرة على الجبهة في مكان ما.

- لقد سبق وتم الوصول الى قرار بذلك يا سيدي.

وهنا بدأ اللواء يلقي محاضرة عن انه قد لاحظ في السنوات الاخيرة الماضية ان الضباط قد اعتادوا ان يتحدثوا مع مرؤسيهم بلهجة تدل على الإلفة، وانه يرى في ذلك خطر انتشار المبادئ الديموقراطية. على الجندي ان يبقى في حالة من الذعر: عليه ان يرتجف امام رئيسه، يجب ان يكون خائفاً حتى الموت منه. على الضباط أن يبقوا رجالهم بعيدين عنهم مسافة عشر خطوات وألا يسمحوا لهم بالتفكير على نحو مستقل او حتى بالتفكير اطلاقاً. هذا هو الخطأ التراجيدي الذي اصبح مدروساً في السنوات الاخيرة. في الايام الغابرة كان الرجال يخشون من ضباطهم خشيتهم للنار والكبريت، ولكنهم في هذه الأيام ...

لوح اللواء بيده في إيماءة يائسة وقال:

- في هذه الأيام يفسد معظم الضباط جنودهم. هذا ما اردت ان أنقله إليك.

تناول اللواء صحيفته مرة اخرى وانهمك فيها فوراً مرة اخرى. شحب وجه الملازم الأول لو كاش حتى صار كالأموات وخرج الى الممر ليصفي الحساب مع شفيك.

وجده واقفاً عند النافذة وعلى وجهه تعبير هادئ سعيد كذلك الذي نراه على وجه طفل في الشهر الاول من عمره بعد أن شبع ورضع تماما وراح يستمتع الآن بما حوله.

توقف الملازم الأول وأوماً برأسه الى شفيك و اشار الى مقصورة ثم تبع شفيك إليها وأغلق الباب.

قال بجديّة:

- يا شفيك، لقد آن أوان لكمك على حنكك أقسى لكمة رآها العالم. لماذا هاجمت السيد الأصلع بحق السماء؟ هل تعرف انه اللواء فون شفار تسبورغ؟
أجاب شفيك وهو يضع على وجهه تعبير القديسين:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه لم تكن لديّ اية نية في إهانة اي شخص. ولم تكن لديّ ادنى فكرة ولا كنت لأحلم حتى بأي لواء. انه فعلاً الصورة الناطقة عن السيد «بور كرايبك» ممثل شركة سلافيا للتأمين. لقد اعتاد ان يأتي الى حانتنا وقد نام مرة على الطاولة فكتب احد الاشخاص المحسنين بقلم رصاص (كوبيا) متعذر محوه على رأسه الصلعاء: «اسمح لنا بأن نقترح عليك خطتنا لحماية دوطات ومهور اولادك وجهاز عرسهم بواسطة بوليصة التأمين وفقاً للبرنامج رقم 3 ج المرفق طياً». وبالطبع رحل الجميع وتركوني لوحدي معه، فقد كان حظي سيئاً باستمرار، وحين استيقظ ونظر الى نفسه في المرآة غضب غضباً شديداً وظن اني كنت الفاعل، وأراد ان يلكنني على حنكي أيضاً.

سقطت الكلمة الصغيرة «أيضاً» سقوطاً مؤثراً جداً ولطيفاً جداً وفيه الكثير من التأنيب من شفتي شفيك بحيث ان يد الملازم المرفوعة هبطت مرة اخرى الى مكانها.

ولكن شفيك استأنف الكلام فقال:

- لم يكن يتوجب على ذلك السيد ان يغضب الى ذلك الحد بسبب خطأ صغير كذاك. كان يتوجب حقاً ان يكون على رأسه ما بين ستين الى سبعين ألف شعرة كما ورد في تلك المقالة عن كمية الشعر التي يتوجب ان تكون على رأس كل ذكر عادي. لم يخطر لي طوال حياتي أبداً وجود لواء أصلع الرأس. هذه خطيئة مأساوية، كما يقال، ويمكن ان تحدث لأي شخص حين يبدي ملاحظة ما ويقوم الطرف الآخر بالتمسك بها. حكى لنا خياط اسمه «هيفل» منذ سنوات كيف سافر من المكان الذي يعمل فيه في «ستاير مارك» الى براغ عبر «ليوبن» وكان معه فخذ خنزير اشتراه في «ماريبور»، وانه بينما كان مسافراً في القطار فكر في انه التشيكي الوحيد بين كل المسافرين، وحين بدأ يقطع الفخذ الى شرائح في مكان ما بالقرب من «سانت موريتس»، بدأ السيد الجالس قبالة يرمي الفخذ بنظرات الحب وبدأ فمه يتحلب. وحين لاحظ الخياط ذلك قال يخاطب نفسه بصوت عال: «أنت تريد قضمة، أليس كذلك ايها النغل العجوز؟» فأجاب السيد بالتشيكية: «طبعاً أريد، إنما لو سمحت لي». وهكذا التهما كلاهما فخذ الخنزير بأكمله قبل ان يصل الى بوديوفيتسه. كان اسم ذلك السيد هو «فويتسيخ روس».

نظر الملازم الأول لوكاش الى شفيك ثم خرج من المقصورة. وبعد أن جلس لفترة في مقعده أطل وجه شفيك البريء من الباب.

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أننا سنصل بعد خمس دقائق الى «تابور». والقطار يتوقف هناك مدة خمس دقائق. هل لديك أوامر تخص الطعام؟ في الأيام الغابرة اعتادوا هنا ان يبيعوا...

نهض الملازم الأول غاضباً وقال لشفيك في الممر:

- احذرك مرة اخرى بأني سأكون في منتهى السعادة إذا ما قلت مشاهدتي لك. وإذا لم أعد أراك بالمرة سأكون أسعد الناس اطلاقاً، وكن واثقاً من انني سأفعل ذلك. ابتعد عن ناظري نهائياً. لا تدعني المحك حتى أيها البغل، أيها الأخرق، أيها الأحمق.

- طوع أمرك يا سيدي.

حياه شفيك تحية عسكرية واستدار الى الخلف وسار بخطوات عسكرية الى نهاية الممر، حيث جلس في الزاوية في مقعد الخفير وبدأ يحاور عامل السكة الحديدية.

- هل لي أن اسألك سؤالاً واحداً من فضلك؟

.وأوماً عامل السكة الحديدية - الذي كان من الواضح أن لا رغبة لديه بالحديث برأسه بإيماءة خفيفة لا مبالية.

- اعتدت ان أرى غالباً شخصاً طيباً يدعى «هوفمان»، وكان هذا يدعي دوماً أن اجهزة الإنذار هذه لا تعمل أبداً. أي انها لا تؤدي وظيفتها على النحو المطلوب حين تشد المقبض. وأقول لك الحق بأني لم أكن مهتماً اطلاقاً بمثل هذه الأمور، ولكني حين رأيت جهاز الانذار هذا هنا شعرت اني أود ان اعرف ما سيحدث لو احتجت الى استعماله في اي وقت من الأوقات.

نهض شفيك وسار مع عامل السكة الحديدية نحو جهاز الانذار ذي الكوابح وكان مكتوباً عليه: «للاستعمال في حالة الطوارئ».

شعر عامل السكة الحديدية أن من واجبه أن يشرح لشفيك طريقة عمل جهاز الانذار بأكملها، فقال:

- كان صادقاً حين قال لك ان عليك ان تشده من هذا المقبض، ولكنه كذب حين قال انها لا تعمل. انه يوقف القطار دائماً، لأنه متصل بالمحرك عبر كل العربات. ان على جهاز الإنذار ذي الكوابح ان يعمل بكفاءة.

كان كلاهما قد وضع يده على المقبض في تلك اللحظة، وفي الواقع فإن تفاصيل ما حدث لا تزال أمراً غامضاً. لقد حدث انهما شدا المقبض فتوقف القطار.

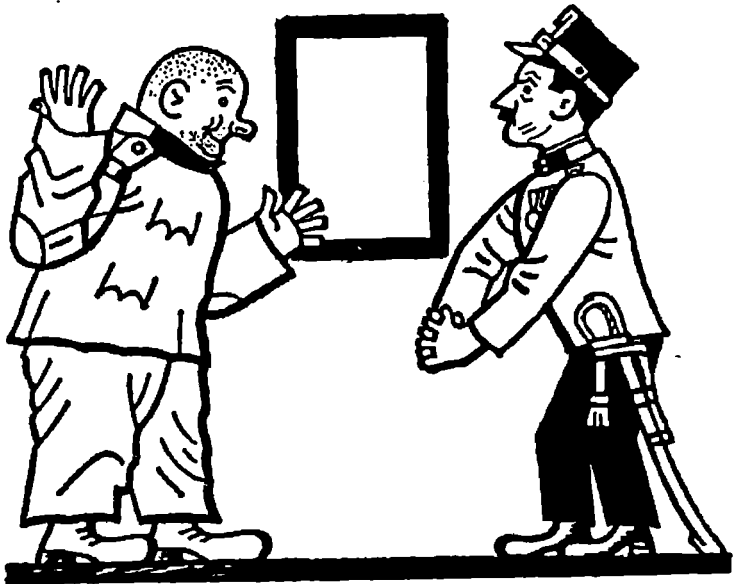
لم يستطيعا الاتفاق على من فعل ذلك حقاً ف ضرب جهاز الانذار. أكد شفيك انه لا يمكن ان يكون الفاعل، فهو ليس قاطع طريق. قال للخفير بلهجة ودية:

- أنا نفسي مندهش من توقف القطار الفجائي. كان منطلقاً وفجأة توقف. الامر يزعجني أكثر مما يزعجك.

وصل سيد رزين ليدافع عن عامل السكة الحديدية وأكد انه سمع ان الجندي هو الذي بدأ بالحديث عن اجهزة الانذار.

وقد دافع شفيك عن نفسه متحدثاً على نحو متواصل عن أمانته. وكيف انه غير مهتم بتأخير القطار حيث إنه ذاهب الى الجبهة. قال الخفير:

- سيفسر لك مدير المحطة ذلك. سيكلفك ذلك عشرين كرواناً.



في هذه الاثناء كنا نستطيع ان نرى المسافرين يغادرون العربات، وكبير الخفراء ينفخ بصفارته واحدى السيدات تعدو بجنون وقد عبرت الخط الحديدي نحو الحقول وهي تحمل حقيبتها.
قال شفيك بكل اتران وهدوء:

- الأمر يستأهل عشرين كراون بالفعل، وهو رخيص جداً حقاً.. مرة حين كان جلالته الامبراطورية في زيارة لجيجكوف، قام شاب يدعى «فرانتا شنوا» بإيقاف عربته اذ ركع امام جلالته الامبراطورية في منتصف الطريق. ثم قال مفوض الشرطة في تلك المنطقة للسيد شنور والدموع في عينيه انه ما كان يتوجب عليه ان يفعل ذلك به ضمن منطقته. كان عليه ان يفعل ذلك في منطقة كبير المفوضين «كراوس»، اي في الشارع السفلي التالي. كان عليه ان يقدم فروض الاحترام هناك. وبعد ذلك وضع السيد «شنور» في السجن.

نظر شفيك فيما حوله حين تضخمت دائرة المستمعين مع وصول كبير الخفراء.

قال شفيك:

- حسناً، لنستأنف رحلتنا، فليس لطيفاً اطلاقاً ان يتأخر القطار. لو كنا في زمن السلم لما كان هناك من يكثرث، ولكن حين تكون هناك حرب دائرة، يكون على كل شخص ان يعرف ان القطار حامل لا بد لبعض الشخصيات العسكرية: ضباط من رتبة لواء وملازم أول ووصفاء. كل تأخير من هذا النوع يمكن ان يكون خطيراً. لقد تأخر نابليون خمس دقائق في «ووترلو» وبعد ذلك تلاشى مع كل مجده...

في تلك اللحظة اندفع الملازم الأول نوكاش الى داخل مجموعة المستمعين. كان شاحباً كالموتى ولم يستلح ان يتلفظ بأي شيء سوى: «شفيك!».

حيّاه شفيك وقال:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انهم يتهمونني بإيقاف القطار. ان لخطوط السكة الحديدية الحكومية اختتاماً عجيبة فوق اجهزة الإنذار ذات الكوابح. على المرء ألا يقترب منها أبداً، وإلا حدث أمر ما فيطالبونه بدفع عشرين كراوناً من جيبه كما يطالبونني الآن!

كان كبير الخفراء قد سبق له وخرج، ثم اعطى الاشارة وانطلق القطار مرة أخرى.

عاد جمهور المستمعين الى أماكنهم في المقصورات. لم يتلفظ الملازم الأول لو كاش بكلمة اخرى بل ذهب ليجلس هو أيضاً.

لم يبق هناك سوى الخفير وشفيك وعامل السكة الحديدية. أخرج الخفير دفتر ملاحظات وكتب تقريراً عن الحادثة بأكملها. نظر عامل السكة الحديدية بحقد الى شفيك الذي سأله بهدوء:

- هل تعمل منذ زمن طويل مع السكة الحديدية؟

ولأن العامل لم يجب. صرح شفيك بأنه كان يعرف شخصاً باسم «مليتشكو فرانتشيك من «أوهرجينييفيس» قرب براغ. وقد قام هذا أيضاً مرة بشد كوابح الإنذار وقد أحس بالخوف الى درجة انه فقد القدرة على النطق اسبوعين كاملين ولم يستعده حتى رأى شخصاً بعينه اسمه «فانيك» البستاني من «هوستيفارج». وهناك دخل في شجار وضرب السوط. وأضاف شفيك: «وقد حدث ذلك في ايار عام 1912».

فتح عامل السكة الحديدية باب دورة المياه وقفل على نفسه من الداخل.

بقي الخفير مع شفيك وحاول ان يجعله يدفع الغرامة وقدرها عشرون كراوناً مؤكداً على انه إذا لم يدفعها فسيضطر الى ان يأخذه الى مدير المحطة في «تابور».

قال شفيك:

- حسناً، يسعدني دائماً التحدث الى الناس المثقفين، وسيكون من دواعي سروري ان أرى مدير المحطة ذاك في «تابور».

أخرج شفيك غليونه من قميصه وأشعله واستأنف وهو ينفخ الدخان الحريف الخاص بالتبغ العسكري:

- منذ سنوات كان مدير المحطة في «سفيتافا» رجلاً يدعى السيد فاغنز، وكان شيطانا في معاملته لمرؤوسيه ويسيء إليهم ما استطاع الى ذلك سبيلاً، ولكنه كان يضطهد «يونغفيرت» الرجل المسؤول عن نقطة الاتصال كأكثر ما يكون الاضطهاد. وأخيراً قرر الرجل البائس لشدة بأسه ان يغرق نفسه في النهر. ولكنه قبل ان يفعل ذلك، كتب رسالة الى مدير المحطة يقول فيها إن شبحة سيأتيه في الليل. وإذا أردتم الحقيقة فقد فعل ذلك بالضبط. كان مدير المحطة الطيب جالساً في الليل عند جهاز استقبال التلغراف حين رن الجرس واستلم البرقية التالية: «كيف حالك أيها النغل العجوز؟ يونغفيرت». وقد استمر هذا اسبوعاً كاملاً وبدأ مدير المحطة بإرسال برقيات رسمية عبر الخطوط للإجابة على الشبح: «سامحني يا يونغفيرت». وفي الليل كان جهاز الاستقبال يعطيه الإجابة التالية: «اذهب واشتق نفسك على اشارات الخط التي عند الجسر. يونغفيرت». وقد اطاع مدير المحطة هذه الاشارات وفيما بعد تم حبس عامل التلغراف من المحطة السابقة على سفيتافا. كما ترى فإن هناك أموراً في السماء والأرض أكثر مما نحلم به في فلسفتنا.

دخل القطار المحطة في تابور، وقد تقدم شفيك، من الملازم الأول لوكاش كما يتوجب عليه. وذلك قبل أن يغادر القطار بصحبة الخفراء. وقال له: «أبلغكم بتواضع يا سيدي انهم يقتادونني الى مدير المحطة».

لم يجب الملازم الأول لوكاش. كان شعور باللامبالاة الكاملة يطغى على كل شيء عنده. وقد ظن ان أفضل شيء يمكنه عمله هو ألا يكثر

بالموضوع كله، لا بشفيك ولا باللواء الأصلع الرأس الجالس قبالة. كان من الأفضل له أن يجلس ساكناً، ان يخرج من القطار عند بوديوفيتسه ويقدم نفسه الى الثكنة ويذهب الى الجبهة مع سرية متقدمة. في الجبهة كان يستطيع ان يترك نفسه يقتل ان كان ذلك ضرورياً، فيتخلص من هذا العالم البائس الذي يستطيع به وحش قبيح كشفيك أن يفعل ما يريد.

حين انطلق القطار نظر الملازم الأول لوكاش من النافذة فرأى شفيك يقف عند رصيف المحطة وقد انهمك في حديث جدي مع مدير المحطة. كان محاطاً بجمهرة من الناس كان بينهم عدد كبير من لابسى البزة الرسمية الخاصة بالسكة الحديدية.

تهند الملازم الأول لوكاش. لم تكن تلك تنهيدة تعاطف، بل تنهيدة الارتياح لأن شفيك قد بقي فوق الرصيف. عجباً! حتى اللواء الأصلع الرأس ما عاد يبدو له ذلك الوحش الكريه.

* * *

كان القطار قد صفر مبتعداً باتجاه «تشسكه بوديوفيتسه»، منذ زمن طويل، ولكن عدد الناس المحيطين بشفيك فوق الرصيف لم ينقص. تحدث شفيك عن براءته وكان ناجحاً في اقناع الجمهرة بذلك بحيث صاحت احدى السيدات: «هذه حالة أخرى من الحالات التي يضايقون فيها أحد جنودنا المساكين».

قبلت الجمهرة الحكم واعلن أحد السادة مخاطباً مدير المحطة أن عليه ان يدفع عن شفيك غرامة العشرين كراوناً. كان على قناعة من ان الجندي كان بريئاً.

قال: «انظروا إليه» وكان يستمد استنتاجاته طبعاً من ذلك التعبير البريء على وجه شفيك الذي التفت فجأة الى الجمهور وصرح قائلاً: «أيها الناس، أنا بريء».

ثم ظهر رقيب الدرك، وأخذ مواطناً من بين المحتشدين واعتقله وقاده بعيداً وهو يقول: «ستكون مسؤولاً عن هذا. سأعلمك كيف تحرض الناس! إذا كنت تعامل الجنود هكذا فلن يتوقع احد منهم أن تكسب النمسا الحرب».

لم يستطع المواطن المسكين أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يؤكد بصراحة انه عبارة عن معلم جزارة من «البوابة القديمة» وأنه لا يحمل أية نوايا من هذا النوع.

في هذه الاثناء كان الرجل الطيب الذي صدق براءة شفيك قد دفع الغرامة عنه في المكتب واصطحبه الى مطعم من الدرجة الثالثة حيث قدم له كأساً من الجعة. وحين تبين ان كل أوراق شفيك ورخصة ركوب القطار كانت مع الملازم الأول لوكاش، فقد منح هذا المواطن لشفيك، وبكل كرم، عشرة كراونات حتى يشتري بطاقة القطار وللنفقات الأخرى. حين ابتعد قال لشفيك بثقة:

- حسناً أيها الجندي الطيب، إذا حصل واسرت في روسيا، ارجو ان توصل سلامي الى صانع الجعة «زيمان» في «زدولبونوف». لقد سجلت اسمي لديك، أليس كذلك؟ عليك ان تبقى صاحياً وألا تبقى فترة طويلة في الجهة. قال شفيك:

- لا تقلق من هذه الناحية. من الممتع دائماً أن يرى المرء البلدان الاجنبية بجناناً.

بقي شفيك جالساً الى الطاولة، وبينما كان يشرب بهدوء بمبلغ العشرة كراونات الذي أعطاه إياها المحسن الكريم، كان الناس الموجودين على الرصيف، ولم يحضروا حوار شفيك مع مدير المحطة، وشاهدوا الجماهرة من بعيد، يحكون الواحد للآخر انه قد ألقى القبض على جاسوس هناك وأنه كان يصور المحطة. ولكن احدى السيدات أنكرت ذلك، مصرحة بأن

الشخص لم يكن جاسوساً، بل انها سمعت أن جندياً في سلاح الفرسان قد ضرب ضابطاً عند دورة مياه السيدات لأنه لاحق حتى هناك صديقة الجندي التي جاءت لتوديعه.

وعلى أية حال، فإن هذه التخمينات الجسورة التي تميز عصبية مزاج زمن الحروب، قضي عليها في المهد حين وصل الدرك وأفرغوا الرصيف من المحتشدين. وقد استمر شفيك يشرب بهدوء وهو يفكر في حنان بملازمه الأول. ما الذي فعله يا ترى حين وصل الى تشسكه بوديوفتسه ولم يستطع أن يجد وصيفه في القطار كله؟

قبل وصول قطار المسافرين امتلأ المطعم الذي هو من الدرجة الثالثة بالجنود والمدنيين. كانوا على الاغلب جنوداً من مختلف الأفواج والتشكيلات ومختلف الجنسيات ممن دفعتهم دوامات الحرب الى مستشفيات «تابور». وها هم يعودون الآن الى الجبهة ليصابوا بجروح وتشوهات وآلام جديدة وليكسبوا مكافأة هي عبارة عن صليب خشبي بسيط فوق قبورهم. بعد سنوات وسنوات من ذلك وفوق السهوب الحزينة في غاليسيا الشرقية سترتعش قبعة جندي نمساوي باهتة اللون عليها شارة



امبراطورية صدئة تحت الريح والمطر. ومن حين إلى آخر سيحط فوقه زاغ كاسر عجوز من أكلة الجيف مستذكراً الولايم الفاخرة للأيام الغابرة حيث كانت تنتشر امامه مائدة لا نهاية لها من الجثث البشرية وجيف الجياد، حيث تقع تحت القبة مباشرة أذ اللقم على الاطلاق: العيون البشرية.

كان أحد مرشحي المعاناة أولئك ممن تم تخريجهم من المستشفى العسكري بعد اجراء عملية عليهم، قد وصل وجلس بالقرب من شفيك في بزة عسكرية قدرة مغطاة بآثار الدماء والطين. كان ذاوياً نحيلاً وبائساً نوعاً ما. وضع فوق المنضدة رزمة صغيرة، ثم اخرجحافظة نقود رثة وعدّ نقوده. ثم نظر الى شفيك وسأله بالهنغارية:

- هل تتكلم الهنغارية؟

أجاب شفيك بالتشيكية طبعاً:

- أنا تشيكي ايها العجوز. هل تريد كأساً؟

قال الآخر بالهنغارية:

- لا أفهم يا صديقي.

قال شفيك بلهجة تشيكية وهو يضع كأساً مليئة امام الجندي التعيس:

- هيا واشرب جيداً.

فهم عليه، فشرب وشكر شفيك بالهنغارية شكراً جزيلاً. ثم استمر يفحص محتويات حافظته وتنهّد أخيراً. فهم شفيك أن الهنغاري يريد أن يطلب كأس جعة ولكنه لا يملك ما يكفي من نقود فطلب كأساً للهنغاري وشكره هذا ثانية وحاول أن يشرح له شيئاً بالإيماءات. اشار الى ذراعه المصابة وقال بلغة عالمية: «بيم، بام، بوم!».

هز شفيك رأسه متعاطفاً وشرح له الناقه العاجز المزيد عن طريق وضع يده اليسرى على مسافة نصف متر فوق الأرض ثم برفع ثلاثة أصابع على أن لديه ثلاثة أطفال.



ثم استأنف فقال بالهنغارية ما مفاده أنه ليس لديهم ما يأكلونه في البيت، ثم مسح الدموع من عينيه بالكم المتسخ لمعطفه العسكري الذي كان فيه ثقب خلفته تلك الرصاصة التي اخترقت جسده: كل هذا من أجل ملك هنغاريا⁽¹⁾.

لم يكن من المدهش أن ينفق شفيك تدريجياً الكراونات العشرة الواحد إثر الآخر ضمن حوار كهذا، وكان يؤجل ببطء وانما بكل تأكيد وصوله الى تشكبه بوديوفتسه فقد كان يفقد إمكانية شراء بطاقة القطار مع كل كأس من الجعة يتناوله هو والناقه الهنغاري.

ثم مرّ قطار آخر الى بوديوفتسه عبر المحطة ولكن شفيك استمر جالساً الى المنضدة ومصغياً الى الهنغاري وهو يكرر: «بيم، بام، بوم! ثلاثة اطفال، ليس لديهم ما يأكلونه، هذه هي المسألة!».

قال الكلمات الاخيرة حين رن شفيك كأساً بكأس.

أجاب شفيك:

- استمر في الشرب ايها النغل الهنغاري. اسرف في الشراب! ما كنت لتعاملنا هكذا.

من المنضدة المجاورة قال احد الجنود إنهم حين وصلوا الى «تسيغيد» مع الفوج الثامن والعشرين صوب إليهم الهنغاريون بنادقهم وجعلوهم يرفعون أيديهم⁽²⁾.

كانت تلك حقيقة لا غبار عليها، ولكن يبدو أن هذا الجندي كان يشعر أنه أهين بسببها، رغم أنها كانت أمراً يتكرر باستمرار بين الجنود التشيكيين. وقد فعل الهنغاريون هذا الأمر نفسه لاحقاً، حين ملوا من القتال من أجل ملك هنغاريا.

ثم جلس هذا الجندي الى القرب من شفيك وحكى كيف أنهم جعلوا

(1) كان الامبراطور فرانتس يوسف يحمل لقب ملك هنغاريا أيضاً. (س. ب).

(2) هذه سخريه من الجنود التشيكيين الذين كانوا يستسلمون للأعداء ويفرون من المعارك. (س. ب).

الهنغاريين يعانون الكثير في تسيغيد وكيف طردوهم من حانات عديدة. وبينما كان يقول ذلك أنصف الهنغاريين من حيث قدرتهم على المشاجرة وقال انه أصيب بضربة خنجر في الظهر بحيث ارسل الى القاعدة للعلاج. ولكنه حين يعود الآن الى وحدته سيقوم النقيب قائد الكتيبة بوضعه في السجن بكل تأكيد، لأنه لم تتح له فرصة الانتقام من الهنغاري بسبب الجرح الذي أصابه به، وهو واجبه المقدس. وهكذا سينال ما يستحق وبذلك يكون شرف الفوج كله مصوناً.

ولكن شفيك هوجم بعنف فجأة من قبل قائد الانضباط العسكري، وهو رقيب أول يرافقه اربعة من الجنود شاهري الحراب، والذي صاح بلكنة المانية: - أوراقك؟ هاهه! أيها البرار. أنت لا تذهب. تشرب وتستمر في الشرب أيها الجندي!

- ليست معي اية وثائق ميلاتشكو⁽¹⁾. لقد اخذها معه الملازم الأول لوكاش من الفوج الواحد والتسعين وبقيت هنا في المحطة.
- ما الذي تعنيه كلمة «ميلاتشكو»؟

هذا ما قاله الرقيب الأول بالألمانية لأحد جنوده وهو رجل عجوز من «لاندفير» بدا أنه يفعل كل شيء مرغماً لأنه اجاب بهدوء وباللغة نفسها: - ميلاتشكو؟ انها تعني «السيد الرقيب الأول».

استأنف الرقيب الأول حديثه مع شفيك فقال بلكنته الالمانية: - على كل جندي أن تكون معه أوراقه. بدون أوراق احبسه في مقر قيادة الجيش في المحطة ككلب مسعور، الوحش القذر.

أخذوا شفيك الى مقر قيادة الجيش في المحطة حيث كان الناس جالسين في المحرس وهم يبدون بالضبط كذلك الرجل العجوز من «لاندفير» الذي كان قادراً على أن يترجم الى الالمانية كلمة «ميلاتشكو»

(1) Milacku وتعني بالثيكية حبيب القلب. (س. ب).

التشيكية تلك الترجمة الممتازة وذلك لصالح عدوه بالولادة سيادة الرقيب الأول.

كان المحرس مزيناً بمنشورات طبعتها ووزعتها وزارة الحربية في تلك الآونة على كل المكاتب التي يزورها الجنود وكذلك المدارس والثكنات. تم الترحيب بالجندي الطيب شفيك من قبل صورة تظهر - كما يقول العنوان - كيف أن الرقيب فرانتيشيك هامل والعريفان باولهارت وباخماير من الفوج الامبراطوري والملكي الواحد والعشرين مدفعية قد شجعوا الرجال على الصبر والاحتمال. ومن ناحية اخرى كانت هناك صورة طبع عليها: «الرقيب يان دانكو من الفوج الخامس من سلاح الفرسان الهونفيد يستطلع مركزاً لبطارية مدفعية معادية».

الى الجانب الأيمن والى الأسفل علق إعلان يقول: «أمثلة نادرة على الشجاعة».

وبالاستعانة بمثل هذه الاعلانات، التي كان يتم فيها اختراع وتأليف امثلة ونصوص من قبل صحفيين ألمان مجندين الزامياً، حاولت النمسا العجز



الحمقاء أن تلهم الجنود الذين كانوا لا يقرؤونها أبداً. وحين كانت هذه الأمثلة على الشجاعة ترسل إليهم في الجبهة مجلدة في كتب، كانوا يصنعون منها لفافات مستعملين تبغ الغلايين او يتصرفون بها بطريقة اكثر ملاءمة، بحيث إن استعمالها الصحيح يستطيع أن يتطابق مع قيمة وروح تلك الامثلة النادرة على الشجاعة التي كتبت على ذلك النحو الشديد الحرارة.

و حين انطلق الرقيب الأول ليجد الضابط، قرأ شفيك على الاعلان:
«السائق الشجاع يوسف يونغ».

«ان رجال فيلق الاسعاف قد نقلوا المصابين بجروح خطيرة الى عربات جهزت خصيصاً في واد محمي من القذائف. وما كادت العربة تمتلئ حتى كانوا يقودونها الى اول مركز للاسعاف الأولي. وحين اكتشف الروس هذه العربات بدأوا يطلقون عليها القذائف. لقد قتل حصان السائق يوسف يونغ من سرية الخدمات الطبية للجيش الثالث الامبراطوري والملكي بالشظايا. أن يونغ قائلاً: «استمروا في اطلاق النار أيها الشياطين البغيضون! لن اترك طقم الحصان هنا! «واستمر في فك الطقم من الحصان وهو يهمهم بتلك الكلمات. وأخيراً أنهى عمله وجر نفسه عائداً الى العربة مع الطقم. وهنا اضطر الى سماع توبيخ صارخ من رجال الاسعاف بسبب غيابه الطويل. وقد برر الجندي الشجاع نفسه قائلاً: «لم أرغب بالتخلي عن الطقم. انه جديد عملياً. فكرت انه سيكون من المؤسف التخلي عنه، فليس لدينا الكثير من هذه الأشياء». ثم ذهب بعد ذلك إلى مركز الاسعاف الأولي ولم يبلغ عن جراحه حتى ذلك الحين. وقد قلده نقيبه لاحقاً وسام الشجاعة الفضي».

حين أنهى شفيك قراءة هذا، ولم يكن الرقيب الأول قد عاد بعد، قال لرجال اللاندفير في المحرس:

- هذا مثال رائع على الشجاعة. لو تابعنا ذلك فلن يبقى لدينا سوى أطقم جديدة في الجيش. ولكنني قرأت حين كنت في براغ في «جريدة

ب. براغ الرسمية» عن مثال اسمى حتى من هذا: انه المتطوع لسنة واحدة الدكتور «يوسيف فوينا». كان هذا في غاليسيا في الكتيبة السابعة رماة، وحين بدأ الهجوم بالحرايب أصيب برصاصة في رأسه، وحين نقلوه الى مركز الاسعاف الأولي صرخ بأنه لا يريد أن يضمم بسبب خدش كذاك. وقد أراد أن يتقدم ثانية على الفور مع سريره، ولكن قذيفة قطعت له قدمه من عند الكاحل. ومن جديد كانوا سيحملونه بعيداً عن المعركة ولكنه بدأ يعرج متقدماً نحو خط القتال على عصا وقد دافع بها عن نفسه ضد الأعداء. ولكن قذيفة جديدة طارت في اتجاهه وقطعت له الذراع التي كان يمسك بها العصا، وهكذا نقل العصا إلى الذراع الأخرى وصاح بأنه لن يغفر لهم ذلك. الله وحده يعلم ما كان سيحدث له لولا ان شظية اغتالته في النهاية. ربما كان سيحصل هو أيضاً على الميدالية الفضية في الشجاعة لو لم يقتل. وحين قطع رأسه وراح يتدحرج كان لا يزال يصرخ: «لا بأس ان يكون الموت قريباً قوموا بواجبكم ولا يصيبنكم الخوف!».

قال أحدهم:

- هذا ما يكتبونه في الصحف، ولكن لو رأى الكاتب بأمر عينه هذا كله لجن خلال ساعة.

بصق رجل اللانديفير وقال:

- في تشاسلاف - حيث أعيش - كان هناك محرر ألماني من فيينا يخدم برتبة ملازم وكان يرفض التحدث بالتشيكية معنا، ولكنه حين اقتيد الى السرية المتقدمة، حيث لم يكن هناك سوى التشيك، كان قادراً فجأة على التكلم بها.

ظهر الرقيب الأول عند الباب فرمقهم بنظرة غاضبة وقال منفجراً بلكته الألمانية:

- لو ابتعد الرجل ثلاث دقائق فلن يسمع بالطبع سوى تشيك، تشيك». اشار وهو خارج الى المطعم على ما يبدو، الى شفيك وقال لعريف الاندفير أن عليه أن يجعل النغل القدر يمثل امام الملازم الأول حين يصل هذا الأخير.

قال العريف بعد ان رحل الرقيب الأول:

- الملازم الأول يلهو مع فتاة التلغراف في المحطة. إنه يطاردها منذ اسبوعين وهو غالباً ما يكون نائراً على نحو مخيف حين يعود من مكتب التلغراف ويقول عنها: «انها مومس. انها ترفض النوم معي!»

ويبدو انه كان الآن في مثل هذا المزاج الغاضب، لأنه حين دخل بعد فترة قصيرة كان يمكن سماعه وهو يضرب الطاولة ببعض الكتب.

قال العريف لشفيك متعاطفاً معه:

- لا يمكن تجنّب ذلك أيها العجوز. عليك أن تدخل إليه. لقد مرّ الكثيرون من بين يديه، جنود مسنون وشباب.

ثم أدخل شفيك الى المكتب حيث كان يجلس خلف طاولة كومت عليها الأوراق ملازم أول شاب وقد بدأ عليه الغضب الشديد.

حين رأى شفيك والعريف قال على نحو واعد: «ها!» ثم تبع ذلك تقرير العريف: «أبلغكم بتواضع يا سيدي أن هذا الرجل قد وجد على المحطة دون أية أوراق».

أوما الملازم الأول برأسه وكأنه يريد أن يشير الى انه قد حسب منذ سنوات انه في مثل هذا اليوم وهذه الساعة بالذات سيتم القبض على شفيك وهو دون أوراق شخصية حيث ان اي امرئ كان ينظر الى شفيك في تلك اللحظة ما كان ليستطيع ان يفوته الانطباع بأن شخصاً له مثل هذا الوجه والمظهر لا يمكن ان تكون معه أية أوراق شخصية. في تلك اللحظة كان يبدو على شفيك وكأنه قد هبط من السماء من كوكب آخر، وها هو ينظر

الآن بدهشة ساذجة الى عالم جديد يطلب فيه الناس منه هراء غيباً لم يسمع به من قبل، اسمه الأوراق الشخصية.

نظر الملازم الأول الى شفيك وفكر لبرهة فيما يتوجب عليه أن يقوله له وما هي الاسئلة التي سيطرحها عليه.
وفي النهاية سأله:

- وما الذي كنت تفعله في المحطة؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أني كنت في انتظار القطار الذاهب الى تشسكه بوديوفيتسه، حتى أستطيع اللحاق بفوجي الواحد والتسعين الذي أخدم فيه كوصيف للملازم الأول لو كاش. لقد اضطررت للتخلف عنه حين جعلوني امثل امام مدير المحطة بسبب غرامة مالية. لقد كنت متهماً بأني استعملت كوابح الانذار وأوقفت القطار السريع الذي كنا نساfer فيه.

صاح الملازم الأول:

- أنت تضيعني. تحدث على نحو مترابط دون لف او دوران عن هذا الهراء.

- أبلغكم بتواضع يا سيدي ان الحظ لم يحالفنا منذ اللحظة الاولى التي ركبنا فيها، الملازم الأول وأنا، القطار السريع، والذي كان من المفروض أن ينقلنا ويوصلنا بأقصى سرعة ممكنة الى فوجنا الامبراطوري الملكي الواحد والتسعين مشاة. فقد فقدنا حقيبة ملابس ثم، وكأنما لتكتمل الحكاية، جاءنا لواء كان أصلع تماماً...

تنهد الملازم الأول وقال:

- يا رب السماء!

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنه يتوجب ان تستخرجوا الموضوع مني كما يستخرج من سجادة مصنوعة من الشعر وذلك إذا أردتم أن تعرفوا الموضوع جيداً، وإذا سمحتم لي أن اقتبس الكلمات المفضلة للإسكافي

في المأسوف عليه المرحوم «بيترليك»، حين أمر صبيه المتدرب أن ينزل بنطاله قبل أن يبدأ بجلده بالحزام.

وبينما كان الملازم الأول يشخر دهشة وغضباً كان شفيك يستأنف الكلام فقال:

- حسناً، لسبب او لآخر لم أكسب رضا اللواء الأصيلع الرأس فطردت الى الممر من قبل الملازم الأول لو كاش الذي أعمل وصيفاً له. وفي الممر اتهمت بأني أرتكب ما قلته للتو. وقبل أن أستطيع حل هذه المشكلة اضطررت الى البقاء وحيداً على الرصيف، فقد رحل القطار والملازم الأول والحقائب وكل أوراقي معه، وكنت اقف هناك فاغر الفم كاليتيم دون أية وثائق.

نظر شفيك الى الملازم الأول بتعبير يحمل حناناً شديد التأثير بحيث توضح لهذا الأخير وعلى الفور أن هذا النغل ينطق بالحقيقة، وهو نغل تبدو عليه البلاهة الفطرية.

وراح الملازم الأول الآن يتلو على شفيك تواريخ وارقام كل القطارات التي غادرت الى بوديوفيتسه بعد ذلك القطار السريع ويسأله عن السبب في أنها قد فاتته جميعاً.

أجابه شفيك وهو يتسم بدمائة:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنه بينما كنت انتظر القطار التالي عانيت من سوء الحظ حيث جلست الى احدي الموائد ورحت أشرب الجعة الكأس تلو الأخرى.

فكر الملازم في نفسه:

- لم يسبق لي ان رأيت مثل هذا الأبله اللعين من قبل، انه يعترف بكل شيء. لا يسعني سوى ان أفكر في كل هؤلاء الناس الذين مثلوا أمامي والذين نفوا جميعاً التهم الموجهة إليهم، وهذا يقول بكل هدوء: «لقد فاتتني كل

القطارات لأنني كنت أشرب الجعة الكأس تلو الأخرى».

وضع كل الأفكار في جملة واحدة وقالها لشفيك:

- أيها المنحط، أيها النغل، هل تعرف ما الذي تعنيه كلمة منحط؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنه في زاوية «نابويشتي» وشارع «كاترجينسكا» حيث أسكن، عاش مرة شخص منحط. كان أبوه بولندياً يحمل لقب «كونت» وأمه قابلة. كان يعمل ككتّاس شوارع ولكنه لم يكن يسمح لأي شخص في الحانة أن يناديه سوى بـ«سيدي اللورد».

فكر الملازم الأول انه من الأفضل له ان يجد طريقة يصفى فيها هذه القضية، فقال مع التشديد:

- دعني أقل لك أيها الأحمق البغيض، أيها المغفل اللعين إنك ستذهب الى مكتب التذاكر وتشتري تذكرة وتذهب الى بوديوفيتسه. ولو حدثت ووجدتك هنا مرة أخرى فسوف أعاملك كفارٍ من الجيش. انصرف!
ولأن شفيك لم يتحرك واستمر واقفاً ويده على قمة قبعته صرخ الملازم الأول بالألمانية:

- «انقلع!» ألا تسمع؟ انصرف! يا عريف «بالانك»، خذ هذا المغفل اللعين الى مكتب التذاكر واشتر له تذكرة الى تشسكه بوديوفيتسه!
ظهر العريف بالانك مجدداً بعد برهة في المكتب ومن الباب نصف المفتوح أطل وجه شفيك الودود من خلف «بالانك».

- حسناً، ما القضية الآن؟

همس العريف بالانك بلهجة غامضة:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه لا يحمل أية نقود يشتري بها التذكرة وأنا كذلك. وطبعاً لن يستطيع الصعود مجاناً الى القطار، لأنه لا يحمل اية أوراق عسكرية تثبت انه ذاهب ليلتحق بفوجه.

لم يتردد الملازم الأول في حل هذه القضية الشائكة بحكمة سليمان.
قال:

- دعه يذهب مشياً على الأقدام. فليجسوه في الفوج بسبب تأخره. من يريد يا ترى أن يتلي به هنا؟

قال العريف «بالانك» لشفيك بعد أن غادرا المكتب:

- لا شيء يمكنني فعله لأجلك أيها العجوز. عليك أن تذهب الى بوديوفتسه مشياً على الأقدام، أيها العجوز. في المحرس لدينا رغيف عسكري سنعطيك إياه لأجل الرحلة.

بعد نصف ساعة، اي بعد ان قدمت القهوة السوداء الى شفيك واعطي علبة من التبغ العسكري ورغيفاً عسكرياً من أجل رحلته الى الفوج، سار شفيك خارجاً من «تابور» في ظلمة الليل وهو يغني الاغنية العسكرية التي تقول:

«حين سرنا باتجاه ياروميرج صدق ذلك، إذا احببت، او لا تصدقه...»



والله وحده يعلم كيف حدث ما حدث، ولكن الجندي الطيب شفيك، بدلاً من أن يتجه جنوباً نحو بوديوفتسه استمر في السير نحو الغرب.

كان يمشي بمشقة عبر الثلج على امتداد الطريق في ذلك الصقيع وقد لف نفسه بمعطفه العسكري، وكأنه آخر من تبقى من الحرس القديم الخاص بنابوليون وهو عائد من حملة موسكو، مع فارق وحيد هو انه كان يغني بمرح لنفسه قائلاً:

«خرجت أتمشى قليلاً

في البستان الأخضر الأخضر...».

وفي الغابات المغطاة بالثلج في صمت الليل كان الصدى يتردد حتى بدأت الكلاب تنبح في كل القرى.

وحين تعب من الغناء، جلس فوق كومة من الحصى وأشعل غليونه، وعاد بعد أن استراح يسير بثناقل نحو المغامرات الجديدة الخاصة بحملته على بوديوفتسه.

* * *

حملة شفيك

على بودييوفيتسه

لقد جال «زيتوفون»⁽¹⁾، ذلك المحارب من العهود السالفة، في كل انحاء آسيا الصغرى ووصل الى حيث لا يدري إلا الله دون اية خرائط اطلاقاً. كما قام القوطيون القدماء بكل حملاتهم دون أية معرفة بعلم الطبوغرافيا. التقدم نحو الأمام كل الوقت هو ما يسمى بـ«الحملة»: التوغل في مناطق مجهولة: ان يتربص بك اعداء ينتظرون اول فرصة سانحة للوي عنقك. لو كان لأي شخص دماغ جيد، كزيتوفون وكل تلك القبائل اللصوصية التي جاءت الى اوروبا من حيث لا يدري الا الله منطلقة من بحر قزوين او بحر آزوف، فإنه يستطيع أن يقوم بالمعجزات خلال الحملة.

لقد توغلت فيالق يوليوس قيصر الرومانية الى مكان ما في الشمال عند «البحر الغالي» ولم تكن معهم خرائط أيضاً. وقد قالوا مرة إنهم سيعودون الى روما عن طريق اخرى حتى يجنوا المزيد من الحملة. وقد عادوا الى روما بالفعل. ومن الواضح ان الناس بدأت منذ ذلك الحين تقول ان كل الطرق تؤدي الى روما.

(1) زيتوفون (431 - 355 ق. م) مؤرخ وقائد عسكري يوناني. قاتل تحت علم الفرس في كردستان وارمينيا.

وكل الطرق تؤدي الى تشسكه بوديوفيتسه أيضاً. لقد كان الجندي الطيب شفيك على قناعة تامة بذلك حين شاهد بدلاً عن قرى منطقة بوديوفيتسه قرى منطقة «ميلفسكو».

ومع ذلك فقد استمر في السير نحو الأمام بثبات، فما كان لأي جندي طيب أن يسمح لميلفسكو ان تمنعه من الوصول الى تشسكه بوديوفيتسه. وهكذا اتجه شفيك الى الغرب من «ميلفسكو» عند «كفيتيوف»، بعد أن عزف على كل التنويغات في ذخيرة الأغاني العسكرية التي كان يحفظها لكثرة ما اشترك في حملات عسكرية. وقبل أن يصل الى كفيتيوف اضطر الى أن يبدأ ثانية بالأغنية القائلة:

«حين شرعنا بالمسير

بدأت كل الفتيات بالبكاء...».

مرّ شفيك بامرأة عجوز كانت عائدة من الكنيسة في طريقها من «كفيتيوف» الى «فراج»، وهي في اتجاه الغرب أيضاً، فحيته تحية مسيحية قائلة:

- صباح الخير أيها الجندي. إلى أين أنت ذاهب؟

- ذاهب الى فوجي في بوديوفيتسه يا أمي، الى الحرب.

قالت المرأة العجوز، بصوت خائف:

- إذا فأنت تسير في الاتجاه غير الصحيح. لن تصل الى هناك أبداً إذا

سرت في هذا الاتجاه عبر «فراج». إذا سرت بخط مستقيم ستصل الى «كلاتوفي».

قال شفيك مستبهماً:

- أعتقد أن بإمكان المرء أن يصل الى بوديوفيتسه حتى من «كلا توفى».

لا شك أنه مسير منهجي إذا كان الرجل مسرعاً للوصول الى فوجه، وذلك

لتجنب اي ازعاج ناجم عن عدم دقته في التواجد في مكان هدفه رغم كل نيته الصادقة.

قالت المرأة العجوز متنهدة:

- لقد سبق وشاهدنا رجلاً مثلك هنا. كان عليه أن يصل الى «بيلسن» ومنها الى «لاندفير». كان اسمه «تونيتشيك ماشكو»، وهو من أقارب ابنة أختي، وقد رحل بعيداً. بعد اسبوع كان رجال الدرك يبحثون عنه لأنه لم يعد الى فوجه. وبعد اسبوع آخر وصل الى هنا في ملابس مدنية وهو يقول انه قد سمح له بالعودة الى البيت في اجازة. ولكن المختار بلغ الدرك عنه فانتشلوه من تلك «الاجازة». والآن كتب إلينا من الجبهة يقول انه قد أصيب وفقد إحدى ساقيه.

نظرت المرأة العجوز نظرة إشفاق الى شفيك وقالت:

- يمكنك ان تنتظر في تلك الأيكة هناك أيها الجندي. سأحضر لك بعض البطاطا كي تدفأ قليلاً. تستطيع أن ترى كوخنا من هنا. انه الى اليمين خلف الأيكة. لا يجب ان تمر عبر قرينتا «فراج». الدرك هنا كالصقور. يمكنك ان تنطلق بعد ذلك من الأيكة الى «مالتشين». ولكن بعد ذلك تجنب أيها



الجندي «تشيچوفا». الدرك هناك سيسلخون جلدك فهم يلقون القبض دائماً على الفارين. اذهب عبر الغابة بخط مستقيم نحو «سيدليك». عند «هور اجد أوفيتسه». هناك الدرك طيبون ويسمحون لكل شخص أن يمر عبر القرية. هل معك أية أوراق شخصية؟
- لا يا أمي.

- إذاً لا تذهب الى هناك. الأفضل لك ان تذهب الى «رادوميشل» ولكن حاول ان تصل الى هناك في المساء، ففي ذلك الحين يكون كل رجال الدرك في الحانة. وهناك في «الشارع السفلي» خلف «سانت فلوريان» ستجد منزلاً مطلياً باللون الأزرق في الأسفل ويمكنك أن تسأل عن المزارع ميلبخاريك. هذا أخي. سلم لي عليه وسيريك كيف تصل الى بوديوفيتسه من هناك.

ولمدة تزيد عن نصف ساعة انتظر شفيك في الايكة عودة المرأة العجوز. وبعد أن دفا نفسه بحساء البطاطا الذي جلبته له في وعاء مغطى بوسادة حتى لا يبرد، اخرجت من منديلها قطعة ضخمة من الخبز وقطعة من لحم الخنزير المقدد، ثم أقحمت كل ذلك في جيب شفيك ورسمت عليه اشارة الصليب وقالت ان لها حفيدين في الجيش.

ثم كررت له بالتفصيل اسماء القرى التي عليه أن يمر بها وتلك التي يجب تجنبها. وأخيراً اخرجت كراوناً من جيب معطفها وقالت هذا لأجل أن يستطيع شراء مشروب روحي في «مالتشين» على طريقه، لأن «رادوميشل» بعيدة جداً.

سار شفيك وفقاً لتعليمات المرأة العجوز من «تشيچوفا» نحو «رادوميشل» الى الشرق وفكر في نفسه انه لا يستطيع ان يتجنب الوصول الى بوديوفيتسه في أي اتجاه من اتجاهات البوصلة.

من «مالتشين» رافقه عازف أكورديون عجوز التقى به في حانة حين

اشترى مشروباً روحياً لتلك الرحلة الطويلة الى «رادوميثل».

ظن عازف الأكورديون ان شفيك هارب من الخدمة ونصحه بالذهاب معه الى «هوراجد أوفيتيسه»، حيث تسكن ابنته المتزوجة من هارب من الجيش أيضاً. كان عازف الأكورديون قد أسرف في الشراب بعض الشيء وهو في «مالتشين»، فقال لشفيك:

- كانت قد خيأت زوجها في اصطبل لمدة شهرين، لذا تستطيع ان تخفيك أنت أيضاً، وستكون قادراً على البقاء هناك حتى نهاية الحرب. ان وجود اثنين يدعو الى المزيد من المرح.

حين رفض شفيك هذه الدعوة بلطف غضب عازف الأكورديون غضباً شديداً على نحو مفاجئ وانطلق يساراً عبر الحقول وهو يهدد شفيك بالوشاية به الى الدرك في «تشيغوفا».

مع اقتراب المساء وجد شفيك في «رادوميثل» في «الشارع السفلي» خلف سانت فلوريان المزارع ميليخارك. وحين نقل إليه تحيات أخته في «فراج»، لم يكن لذلك أي تأثير على المزارع.

أصر بالحاح على مشاهدة أوراق شفيك الشخصية، فقد كان شخصاً متحاملاً بالأحرى، يتحدث طوال الوقت عن اللصوص والأوغاد والسارقين الذين كانت حشود بأكملها منهم تغزو منطقة «بيسيك» كلها.

قال لشفيك وهو يشدد على كلماته وينظر إليه في عينيه:

- يهربون من الجيش ولا يريدون أن يخدموا فيه، ثم يحولون في انحاء المنطقة كلها ويسرقون بينما بيدون من الخارج أبرياء كالحملان.

وأضاف حين رأى شفيك ينهض عن المقعد:

- طبعاً، غالباً ما يبدو الأناس غاضبين حين تكون المسألة متعلقة بقول الحقيقة. حين يكون الرجل حاملاً لضمير نقي، فإنه يجلس في صمت ويترك الناس يفحصون له أوراقه بهدوء. ولكنه إذا لم يكن كذلك...

- حسناً، وداعاً يا جدي.

- وداعاً، وفي المرة القادمة حاول أن تصطاد شخصاً ليس ذكياً مثلي.
حين انطلق شفيك نحو القمة استمر الرجل العجوز مهمماً لفترة من الزمن:

- يقول انه ذاهب الى بوديوفيتسه للحاق بفوجه. من «تابور»! وهذا الوغد يذهب اولاً الى «هوراجد أوفيتسه» ومنها الى «بيسيك». عجباً، انه يقوم برحلة حول العالم!

استمر شفيك في السير طوال الليل تقريباً حتى وجد في مكان قريب من «بوتيم» كومة قش في حقل. وبينما كان يزيح بعض القش جانبا سمع صوتاً قريباً منه جداً يقول:

- من أي فوج أنت؟ الى أين أنت ذاهب؟

- الواحد والتسعين. ذاهب الى بوديوفيتسه.

- ولماذا أنت ذاهب الى هناك؟

- لأن ملازمي الأول هناك.

استطاع ان يسمع الى القرب منه الضحك الصادر ليس عن شخص واحد بل ثلاثة اشخاص. وحين توقف الضحك سأل شفيك الرجال عن أفواجهم، فاكتشف ان اثنين منهم كانا من الفوج الخامس والثلاثين والثالث من سلاح المدفعية، وهو أيضاً من «بوديوفيتسه».

قبل شهر كان جنديا الفوج الخامس والثلاثين هذان قد فرا قبل موعد الإنطلاق الى الجبهة، كما ان جندي المدفعية متشرد منذ يوم استدعائه الى الجيش. كان من «بوتيم» نفسها وكانت كومة القش ملكاً له. في الليل كان ينام في هذه الكومة. وقد وجد قبل ليلة واحدة هذين الجنديين في الغابة فاصطحبهما معه الى كومه.

كانوا جميعاً يعيشون على أمل أن تنتهي الحرب خلال شهر أو اثنين. وكانوا يتخيلون أن الروس قد تجاوزوا بودابست الآن وأصبحوا في مورافيا. كان هذا ما يقوله الناس في كل مكان في «بوتيم». وفي الصباح قبل الفجر كانت زوجة جندي كتيبة الفرسان تحضّر لهم الفطور. وبعد ذلك كان رجلاً الفوج الخامس والثلاثين سيذهبان الى «ستراكونيتسه» لأنه كانت لأحدهما عمّة فيها، وكان لهذه العمّة صديق في الجبال الواقعة الى ما وراء «سو شيتسه». كان لدى هذا الصديق منشرة وكان يمكنهما ان يجدا المأوى لديه.

قالا لشفيك:

- بإمكانك أنت الذي من الواحد والتسعين أن تأتي معنا أيضاً إذا أحببت.
براز على ملازمك الأول.

أجاب شفيك:

- لن يكون ذلك سهلاً.

ثم دفع بنفسه زاحفاً نحو الأعمق داخل كومة القش.



حين استيقظ في اليوم التالي كانوا قد رحلوا جميعاً، وكان احدهم، وهو جندي كتيبة الفرسان دون شك، قد وضع تحت قدميه قطعة من الخبز لأجل الرحلة.

سار شفيك عبر الغابات، وبالقرب من «شتيكنو» صادف متشرداً هو عبارة عن محتال عجوز رحّب به كأنه صديق قديم وذلك بجرعة من البراندي.

قال لشفيك:

- لا تتجول في هذه، إذ ان البزة العسكرية يمكن ان تكلفك الكثير. المكان مليء بالدرك فهم منتشرون في كل مكان ولا تستطيع التسوّل بهذه الملابس. اليوم، لا يطاردنا رجال الدرك كما كان دأبهم سابقاً. بل يطاردون امثالك.

ثم كرر بلهجة تدل على الاقتناع التام:

- بل يطاردون امثالك.

مما جعل شفيك يعتقد أنه ليس من المحبذ أن يحكي له كل شيء حول الفوج الواحد والتسعين. فليظنه كما يشاء. لماذا يحطم أوهام الرجل الطيب؟

سأله المتشرد بعد برهة وبعد ان أشعلا غليونهما كلاهما وراحا يسيران ببطء من حول القرية:

- الى أين أنت ذاهب؟

- الى بودييوفيتسه.

قال المتشرد مذعوراً:

- كرمي للمسيح! هناك سيمسكون بك فوراً، بل قبل ان تستطيع التقاط أنفاسك. عليك ان ترتدي ملابس مدنية مهترئة، وعليك ان تعرج كالمشلول. ولكن، لا تخف. الآن سندهب الى «ستراكونيتسه» و«فوليني»

و«دوب». وسيكون حظنا في منتهى السوء إذا لم نستجد أو نسرق ملابس مدنية من هناك. في «ستراكونيتسه» لا زال الناس صادقين وبسطاء على نحو غيبي، والى حد أنهم غالباً ما يتركون أبوابهم مفتوحة لك في الليل والنهار فلا يوصدونها أبداً. وفي الشتاء حين يتركون بيوتهم ويذهبون للثرثرة مع الجيران تستطيع ان تسرق بزة مدنية على الفور. ما الذي تحتاج إليه؟ لديك حذاء، لذا ما تحتاجه هو شيء ترتديه. هل معطفك العسكري عتيق؟

- نعم.

- حسناً، حافظ عليه، فالناس تتجول بالمعاطف العسكرية في الريف. تحتاج الى بنطال وجاكيت. وحين نحصل على الملابس المدنية سنبيع بنطالك وسترتك العسكرية الى اليهودي «هرمان» في «فودناني». انه يشتري كل ما هو عسكري ويبيعه ثانية في القرى.

ثم توسع في شرح الخطة فقال:

- سنذهب اليوم الى ستراكونيتسه. على مسافة اربع ساعات من هنا زريبة غنم شفارتسبرغ القديمة. الراعي هناك صديق لي. انه محتمل عجوز مثلي أيضاً. إذا سئمضي الليل هناك وفي الصباح نطلق الى «ستراكونيتسه» لنرى إن كنا نستطيع استجداء او سرقة ملابس مدنية من مكان ما في الجوار.

في زريبة الغنم وجد شفيك المحتمل العجوز الذي تذكر كيف أن جده اعتاد أن يحكي له قصصاً عن الحروب الفرنسية. كان يكبر المتشرد العجوز بحوالي عشرين عاماً ويدعوه بـ«الغلام» كما دعا شفيك بهذا اللقب أيضاً. قال، حين جلسوا حول الموقد الذي كانت تغلي فوقه البطاطا في قشورها:

- كما تعرفان ايها الغلامان فإن جدي في ذلك الحين قد فر من الخدمة كما فعلت أنت ايها الجندي. ولكنهم امسكوا به في «فودناني» وجلدوه على مؤخرته الى حد انه تطايرت قطع من اللحم منها. ولكنه كان محظوظاً

على اية حال. لقد اصيب ابن «ياريش»، حفيد «ياريش» العجوز، وهو وكيل الماء في «راجيتسه» قرب «بروتيفين»، ببعض البارود والرصاص بسبب فراره من الجيش. وقبل ان يطلقوا النار عليه عند المتاريس في «بيسيك» كان قد مرّ بقصاص «غانتلت»⁽¹⁾ في الشارع وأصيب بستمائة ضربة بالعصا، ولذا فإنه حين جاءه الموت كان راحة وانتعاقاً له. ولكن متى فررت؟

وهنا التفت الى شفيك بعينين دامعتين.

قال شفيك وقد أدرك انه كجندي يجب ألا يحطم أوهام الراعي العجوز:
- بعد الاستدعاء حين أخذونا الى الثكنات.

سأله الراعي بفضول وهو يتذكر دون شك كيف اعتاد جده أن يحكي له كيف تسلّق هو الآخر سور الثكنة:

- هل تسلقت السور؟

- لم تكن هناك وسيلة أخرى يا جدي.

- وهل كان الحرس أشداء وأطلقوا النار عليك؟

- نعم فعلوا ذلك يا جدي.

- والى أين تتجه الآن؟

أجاب المتشرد بدلاً عن شفيك:

- انه ذاهل، فهو يصر على الذهاب الى بودييوفيتسه. كما تعرف فإنه جرو صغير أحرق ذاهب الى حتفه. عليّ ان ألقنه بعض الدروس. سنحاول اختلاس ملابس مدنية له ثم ستكون الأمور على ما يرام. سنتدبر أمورنا حتى الربيع وبعد ذلك سنذهب للعمل مع أحد المزارعين. سيشهد هذا العام نقصاً في الأيدي العاملة، ومجاعة، ويقولون انه سيتم تجميع كافة المتشردين ووضعهم في المزارع كي يعملوا فيها. لذا أظن أنه من الأفضل

(1) غانتلت: قصاص عسكري سابق كان يحكم فيه على الجندي بأن يمر بين صفين متقابلين من الجند الذين يضربونه اثناء ذلك بالعصي وما إليها. (المترجم).

ان يذهب الإنسان طوعاً. لن يكون هناك الكثير من عمال المزارع. سيكونون قد سحقوا جميعاً.

سأل الراعي:

- او تظن انها لن تنتهي هذا العام؟ طبعاً، أنت على حق ايها الغلام. لقد جرت حروب طويلة في الماضي. كانت هناك الحروب النابوليونية ثم الحروب السويدية وحرب الأعوام السبعة كما قيل لنا. وقد استحق الناس تلك الحروب. ولم يستطع الرب الكريم احتمال الأمر أكثر من ذلك: كان الناس قد أصبحوا شديدي الغرور، كما ترى. حتى لحم الضأن ما عاد يعجبهم، ورفضوا تناوله يا شباب. في الأيام الغابرة كانوا يأتون ليقفوا في صف واحد على أمل أن أبيعهم لحم الضأن خلسة، ولكنهم أصبحوا في السنوات الأخيرة لا يأكلون سوى لحم الخنزير والدجاج والطيور، وكلها مشربة بالزبدة او الدهن. ولذا غضب عليهم الإله الطيب بسبب غرورهم، ولكنهم رفضوا أن يرعوا ثانية حتى أصبحوا الآن يطبخون أرجل الإوز كما كانوا يفعلون أيام الحروب النابوليونية. كما أن سادتنا ونبلاءنا لم يكونوا يعرفون ما يفعلون، فقد كانوا شديدي الفسوق. كان الأمير شفار تسنبرغ العجوز يقود عربة عادية ولكن الأمير الشاب، ذلك الغرّ، لا يفعل شيئاً سوى التجول في سيارة تبعث الروائح الكريهة. والرب الطيب سوف يمسح أنفه بالبترول في أحد الأيام الجميلة.

بدأ الماء الذي كانت البطاطا تطبخ فيه على الموقد يغلي. وبعد صمت قصير قال الراعي العجوز بلهجة تنبؤية:

- ولن يكسب جلالته الامبراطورية هذه الحرب، ليست هناك حماسة اطلاقاً، لأنه، كما يقول مدير مدرستنا في «ستراكونيتسه»، يرفض ان يتوج. والآن يستطيع التملق ما شاء له ذلك. حين وعدت بأنك ستتوج كان عليك ان تحافظ على وعدك، أيها النغل العجوز!

قال المتشرد:

- ربما سينجح في ان يفعل ذلك الآن.

قال الراعي بعصبية:

- ما عاد احد يهتم بذلك اطلاقاً الآن أيها الغلام. عليك أن تكون هناك حين يجتمع الجيران في «سكوتشيتسه». لكل شخص صديق ما في الجبهة وعليك أن تستمع الى الطريقة التي يتحدثون بها. بعد هذه الحرب يقولون انه لن تكون هناك حرية ولن تكون هناك قصور للنبلاء ولا أباطرة، كما ستصادر أملاك كل النبلاء. لقد سبق للدرك ان أخذوا رجلاً يسمى «كورجينك» بسبب كلام مشابه تلفظ به. قالوا إن كلامه تحريضي. اجل، اليوم هو يوم الدرك.

أجاب المتشرد:

- ولكن الأمر كان على هذا الحال من قبل. ا تذكر نقيباً في الدرك في «كلادنو» كان يسمى «روتر». وفي احد الأيام بدأ يربي تلك الكلاب - ما يسمونها يا ترى؟- الكلاب البوليسية التي تشبه الذئاب وتستطيع متابعة أثر كل شيء بعد تدريبها. وكان ذلك النقيب في كلادنو قد جمع الكثير من هذه الكلاب المدربة. كان لديه بيت صغير لها، حيث اعتادت ان تعيش كاللوردات. وفي أحد الأيام خطر له ان يجري التجارب علينا، نحن المتشردين البائسين، بتلك الكلاب. وهكذا أصدر الأوامر بتجميع كل المشردين، كل فرد منهم، وتسليمهم جميعاً إليه. وقد كنت أتشرد مرة منطلقاً من «لاني» وبقيت متوغلاً في الغابات حتى لا يستطيع ان يراني احد، ولكن دون جدوى، فما أن وصلت الى كوخ حارس الصيد كما اعتدت سابقاً حتى امسكوا بي وأخذوني الى النقيب. ولا يستطيعون أيها الرجال ان تفكروا او تتصوروا ما الذي مرّ بي مع ذلك النقيب وكلابه. ففي البداية جعل جميع تلك الكلاب تشمني ثم كان عليّ ان اتسلق سلماً. وحين

اصبحت في اعلاه اطلق عليّ وحوشه واستطاعت تلك الوحوش اللعينة ان تنزلني من على السلم الى الأرض وتركع فوقني وهي تهدر وتزجر في وجهي. ثم أبعدها تلك الوحوش عني وطلبوا مني ان اختبئ في مكان ما، في اي مكان أريده. فتوغلت في الغابات باتجاه قرية «كاتشاك»، ثم نحو واد شديد الانحدار، وبعد نصف ساعة لحق بي اثنان من تلك الكلاب الذئبية وأوقعاني أرضاً، وبينما كان أحدهما يمسك بي من حنجرتي عدا الآخر الى «كلادنو». وبعد ساعة وصل النقيب «روتر» نفسه مع الدرك، ونهر كلابه وأعطاني خمسة كراونات والاذن بالتسول في منطقة «كلادنو» لمدة يومين. ولكن هل تحسبان أني فعلت ذلك؟ هل تراهنان على ذلك؟ لقد انطلقت كالمجنون نحو منطقة «بيرون» ولم أعد اقترب من «كلادنو» اطلاقاً. كما كان كل المتشردين يتجنبونها لأن النقيب كان يمارس تجاربه عليهم جميعاً. كان مولعاً بتلك الكلاب الى حد مخيف. في مخافر الدرك اعتادوا ان يقولوا انه حين كان يأتي للتفتيش ويرى كلباً ذئبياً في اي مكان، لا يقوم بالتفتيش اطلاقاً بل ينفق اليوم كله بسعادة وهو يحتسي الشراب مع رقيب الدرك.

وبينما كان الراعي يسحق البطاطا ويصب في الطبق لبن الغنم الحامض، استمر المتشرد في سرد ذكرياته عن عدالة الدرك:

- كان في «ليبينيتسه» رقيب للدرك مركزه تحت القلعة مباشرة حيث يعيش في مخفر الدرك نفسه، وكنت أنا، كرجل بسيط عجوز، أظن دوماً أن مخفر الدرك يجب ان يكون في مكان بارز كساحة البلدة او ما شابه، وليس في مكان ما من شارع جانبي. وهكذا كنت أسير محاذياً الشوارع الجانبية في تلك البلدة الريفية وما كنت انظر الى اللوحات التي تحمل اسماء الشوارع. وقد رحلت أطرق البيوت الواحد في إثر الآخر حتى وصلت الى الطابق الاول من كوخ عادي، ففتحت الباب وصحت: «اشفقوا على المتشرد المسكين». ويا للرب الرحيم ايها الرجال، لقد كدت اسقط أرضاً

من الفراغ! كان ذلك هو مخفر الدرك فقد شاهدت البنادق على امتداد الحائط وصلياً على الطاولة وصورة جلالته الامبراطورية وهو ينظر إليّ مباشرة من فوق الطاولة. وقبل ان استطيع الفأفة بأية كلمة، انقض الرقيب عليّ ولكمني لكمة هائلة على الفك عند الباب بحيث طرت عبر الدرجات الخشبية فهبطت في آخرها ولم أتوقف حتى وصلت الى «كيبجليتسه».

هذه هي شريعة الدرك.

بدووا يتناولون الطعام وسرعان ما ناموا وهم يتمددون على المقاعد في غرفة الجلوس الدافئة.

في الليل ارتدى شفيك ملابسه بهدوء ثم خرج. كان القمر قد بزغ للتو في الشرق فسار شفيك على هدي نور استيقاظه نحو الشرق، وهو يقول: «ليس ممكناً ألا أصل الى بوديوفيتسه».

ولأن شفيك شاهد الى جهة اليمين احدى البلدات حين خرج من الغابات، اتخذ مساراً نحو الشمال ثم عاد باتجاه الجنوب، حيث رأى مرة اخرى بلدة من نوع ما. (كانت تلك هي فودنياني). وهكذا سار مبتعداً في



الاتجاه المعاكس عبر المروج ورحبت به الشمس فوق المنحدرات المغطاة بالثلوج المطلة على «بروتيفين».

قال الجندي الطبيب شفيك لنفسه: «الى الأمام ايها الشجعان! الواجب يدعونني. يجب أن اصل الى بوديوفيتسه».

ولكن بسبب صدفة غير سعيدة فإنه بدلاً من ان يذهب من بروتيفين باتجاه الجنوب الى بوديوفيتسه وجه شفيك خطواته نحو الشمال باتجاه «بيسيك».

حوالي الظهر شاهد شفيك قرية أمامه. فقال في نفسه وهو يهبط من جبل صغير: «ليس من المناسب السير هكذا. يجب ان اسأل عن طريق بوديوفيتسه».

ثم دخل القرية فدهش لأنه رأى اسمها مكتوباً على عمود قرب اول بيت فيها وكان «بوتيم».

تهند شفيك قائلاً: «يا ليسوع المسيح! ها أنذا أعود الى بوتيم حيث نمت في كومة القش».

ولذا لم يدهش اطلاقاً حين رأى خلف البحيرة الصغيرة بيتاً مطليا بالكلس وقد علقت عليه «دجاجة» (هذا هو الاسم الذي كان يطلق في بعض الأماكن على «فرخ العقاب» النمساوي) ودركياً يخرج منه كعنكبوت يحرس بيته.

اتجه الدركي مباشرة نحو شفيك ولم يقل له سوى:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- الى فوجي في بوديوفيتسه.

ابتسم الدركي بسخرية وقال:

- ولكنك تبتعد عن بوديوفيتسه، فهي تقع الى البعيد خلفك.

ثم أدخل شفيك الى مخفر الدرك.

كان رقيب درك «بوتيم» مشهوراً في المنطقة كلها بأسلوبه اللبق والرزين في تسيير شؤون العمل. فما كان يشتم اولئك الذين يعتقلهم او يحجزهم، بل كان يخضعهم لتحقيق مشدد الى حد أن الرجل البريء ما كان يستطيع حيال ذلك إلا الاعتراف.

كان يساعده اثنان من رجال الدرك في المخفر، وقد كان التحقيق مرافقاً دوماً بتكشيرات رجال الدرك كلهم.

كان الرقيب يقول دوماً لمرؤوسيه:

- يكمن سر التحقيق الجنائي في الدهاء والسلوك الجيد. إن الصراخ في الناس لا يجدي. عليك أن تكون رقيقاً باستمرار مع منتهكي القانون. والمشبهين، ولكن عليك في الوقت نفسه ان تغرقهم في سيل من الأسئلة.
قال الرقيب لشفيك:

- مرحباً بك هنا ايها الجندي. اجلس واعتبر نفسك في بيتك. لا بد وأنت متعب بعد رحلتك. قل لنا الى أين أنت ذاهب؟
كرر شفيك انه ذاهب الى تشسكه بوديوفيتسه للالتحاق بفوجه.
قال الرقيب مبتسماً:

- لا بد انك اخطأت الطريق، فأنت تبعد الآن عن تشسكه بوديوفيتسه. كما استطع إقناعك بكل سهولة. فوق رأسك خارطة لبوهيميا. انظر إليها ايها الجندي. الى الجنوب من هنا «بروتيفين» والى الجنوب منها «هولبوكا» والى الجنوب من هذه تقع بوديوفيتسه. وهكذا ترى انك لست ذاهباً الى بوديوفيتسه بل أنت تبعد عنها.

نظر الرقيب بدمائة الى شفيك الذي قال بهدوء ووقار:

- ولكني ذاهب الى بوديوفيتسه على أية حال.



وكان لهذا تأثير أكثر فعالية حتى من تصريح غاليليو الشهير «ولكنها تدور على اية حال»، لأن غاليليو كان ثائراً جداً حين قالها.

قال الرقيب بالدمائة نفسها:

- أتعرف ايها الجندي، سوف أحرك من وهم هذه الفكرة، وأنت نفسك ستشاركني في رأيي بأن كل إنكار يجعل الاعتراف أكثر صعوبة!

قال شفيك:

- أنت على حق تماماً! كل انكار يجعل الاعتراف أكثر صعوبة والعكس صحيح.

- وكما ترى ايها الجندي، فأنت ستصل الى تلك النتيجة طوعاً دون اكره. أجبني بصراحة: من أين كنت قادماً حين انطلقت باتجاه بوديوفيتسه خاصتك تلك؟ اقول «خاصتك» عن عمد، لأنه لا بد من أن توجد «بوديوفيتسه» اخرى تكمن في مكان ما الى الشمال من «بوتيم» ولم تسجل على الخريطة بعد!

- لقد انطلقت من «تابور».

- وما الذي كنت تفعله هناك؟

- كنت أنتظر قطاراً يقلني الى بوديوفيتسه.

- ولماذا لم تستقل ذلك القطار الى بوديوفيتسه؟

- لأنه لم تكن معي تذكرة.

- ولكنك جندي، فلماذا لم يمنحك تذكرة قطار مجانية كما هي الحال مع الجنود؟

- لأنه لم تكن معي اية اوراق شخصية.

قال الرقيب بانتصار لأحد رجليه:

- هذه هي القضية! إنه ليس غيباً بقدر ما يتظاهر. لقد بدأ يتفاخر.
 باشر الرقيب مرة أخرى وكأنه لم يسمع الإجابة الأخيرة حول الأوراق:
 - وهكذا غادرت «تابور». أين ذهبت إذًا؟
 - إلى تشسكه بوديوفيتسه.

ارتسم تعبير فيه بعض الشدة على وجه الرقيب واتجه نظره نحو الخريطة:

- هل لك أن ترينا على الخريطة الطريق الذي اتبعته للوصول إلى بوديوفيتسه؟

- لا أتذكر كل الأمكنة كل ما استطيع تذكره هو انه سبق لي وكنت في «بوتيم» مرة قبل الآن.

نظر كل رجال المخفر الواحد منهم نحو الآخر بتساؤل فقال الرقيب مستأنفاً:

- وهكذا كنت في «تابور» في محطة القطار. هل تحمل أي شيء؟
 اخرجه.



بعد أن فتشوا شفيك تفتيشاً دقيقاً ولم يجدوا سوى غليونه بعض أعواد الكبريت سأله الرقيب:

- قل لي، لماذا لا تحمل معك شيئاً.

- لأنني لست في حاجة لأي شيء.

تنهد الرقيب وقال:

- يا الهي، أنت فعلاً شهيد حقيقي. قلت إنه سبق لك وكنت في بوتيم.

ما الذي فعلته هنا إذا؟

- لقد مررت عبر بوتيم نحو بوديوفيتسه.

- والآن، ألا ترى كم انك مشوش. لقد قلت إنك كنت ذاهباً الى

بوديوفيتسه والآن نحن مقتنعون بأنك كنت تبتعد عنها.

- اعتقد أن كنت أدور ضمن حلقة.

تبادل الرقيب نظرة العارف مع رجليه وقال:

- حلقة جميلة، حلقتك تلك! لا بد وأنت كنت تتسكع في المنطقة. هل

بقيت فترة طويلة في المحطة في «تابور»؟

- بقيت فيها حتى غادر آخر قطار الى بوديوفيتسه.

- وما الذي فعلته هناك؟

- تحدثت مع الجنود.

وهنا تبادل الرقيب نظرة العارف مرة اخرى مع عنصره:

- وما الذي تحدثتم عنه مثلاً، وعم سألت؟

- سألتهم عن فوجهم وعن اتجاههم؟

- ممتاز! أو لم يحدث ان سألتهم مثلاً عن عدد الرجال الذين يؤلفون

فوجاً وكيف يتم توزيعهم؟

- لا، لم أسأل ذلك لأنني اعرفه عن ظهر قلب منذ دهور عديدة.

- إذا فأنت تعرف تماماً تشكيل جيشنا؟

- طبعاً أيها الرقيب.

وهنا لعب الرقيب آخر أوراقه وهو ينظر من حوله بانتصار نحو دركييه.

- هل تتكلم الروسية؟

- لا.

أوما الرقيب برأسه الى وكيل العريف وحين خرجا كلاهما الى الغرفة المجاورة فرك يديه بحماسة تدل على الانتصار الكامل والثقة وقال:

- اسمعت ما قاله؟ انه لا يتكلم الروسية! انه مخادع! لقد اعترف بكل شيء باستثناء الشيء الأكثر أهمية. غداً سنرسله الى ضابط المنطقة في «بيسيك». يعتمد علم الاجرام على الدهاء والسلوك الجيد. أنت ترى كيف اغرقته في سيل من الاسئلة. من كان يظن ذلك فيه؟ انه يبدو شديد الغباء والحمق، ولكنك تحتاج الى كل مهارتك مع أناس كهؤلاء. والآن احبسه في مكان ما وسأذهب لكتابة تقرير عن الموضوع.

وفي عصر ذلك اليوم بالذات كتب رقيب الدرك وهو يتسم بعذوبة تقريراً ورد في كل جملة فيه بالالمانية: «تحت شبهة الجاسوسية».

وبعد أن أنفق الرقيب «فلا نديركا» بعض الوقت يكتب بلغته الالمانية الرسمية العجيبة أصبح الوضع أكثر وضوحاً بالنسبة إليه وحين انهاء بالكلمات التالية: «وهكذا فإني ارجو تقبل اعتذاري المتواضع إذ أبلغكم بأن هذا الضابط العدو سيرسل اليوم الى قيادة الدرك في منطقة بيبيك». وهنا ابتسم للعمل الذي انجزه ونادى على وكيل العريف قائلاً:

- هل أطعمت الضابط العدو؟

- حسب أوامرك ايها الرقيب فإننا نقدم الطعام لأولئك الذين يجلبون إلينا ويستجوبون قبل الساعة الثانية عشرة فحسب.

قال الرقيب برزانه:

- هذه حالة استثنائية جداً. هذا ضابط ذو رتبة عالية، من رئاسة أركانهم. أنت تعرف أن الروس لا يرسلون أبداً كجاسوس مجرد عريف. أرسل الى حانة - «القط العجوز» ليجلبوا له طعام الغداء. واذا لم يبق لديهم شيء ما فليطبخوا له شيئاً خاصاً. بعد ذلك دعهم يصنعوا له بعض الشاي مع الروم ويرسلوا كل شيء الى هنا. لا تقل لمن هذا كله. لا تذكر لأي شخص من لدينا هنا. إنه سر عسكري. ما الذي يفعله الآن؟

- لقد طلب بعض التبغ. انه يجلس في المحرس ويتصرف برضا كأنه في بيته. قال «المكان مريح ودافئ هنا، كما ان مدفآتكم لا تدخن. أنا سعيد بكوني معكم الى حد كبير. ولكن إن دخنت المدفأة فيجب أن تنظف مدخنتها. كما يجب أن يتم ذلك في فترة بعد الظهر وليس حين تكون الشمس فوقها تماماً».

قال الرقيب وصوته ممتلي حماساً:

- يا له من مكّار. انه يتصرف وكأن الأمر لا يخصه اطلاقاً. ومع ذلك فهو يعرف أنه سيرمى بالرصاص. يجب ان نحترم شخصاً كهذا، حتى لو كان عدواً لنا. إن رجلاً كهذا يذهب الى موت محتم. لا أدري ان كنا سنقدر على ذلك لو كنا في مكانه. قد نتخاذل او نستسلم، ولكن ها هو جالس هناك بهدوء وهو يقول: «المكان مريح ودافئ هنا ومدفآتكم لا تدخن». هذه هي الشخصية المتميزة يا وكيل العريف. لأجل هذا تحتاج الى اعصاب حديدية وإنكار للذات والثبات والحماسة... لو كانت هناك حماسة كهذه في النمسا... ولكن لا تدعنا نتحدث عن ذلك وعلى اية حال فحتى نحن لدينا أشخاص متحمسون. هل قرأت في «نارودني بوليتيكا» عن ذلك الملازم الاول «بيرغر» من سلاح المدفعية الذي تسلق الى قمة شجرة تنوّب سامقة وأقام بين أغصانها مركزاً للمراقبة؟ وحين تراجع رجالنا لم يستطع ان يهبط من مكانه، وإلا أخذ أسيراً. وهكذا انتظر هناك حتى دحرت قواتنا العدو مرة

اخرى وقد استغرق ذلك اربعة عشر يوماً. لقد بقي اربعة عشر يوماً كاملة على قمة تلك الشجرة، وحتى لا يموت من الجوع قضم تاج الشجرة بأكمله، وتغذى على البراعم الصغيرة والأبر. وحين وصل رجالنا كانت قواه قد خارت الى حد أنه لم يعد يستطيع الصمود هناك في الأعلى فسقط الى الأرض وقتل نفسه. وقد قلد بعد وفاته وسام الصليب الذهبي للشجاعة. ثم اضاف الرقيب بوقار:

- تلك كانت تضحية حقيقية يا وكيل العريف، تلك كانت بطولة حقيقية! والآن ترى كيف ضيعنا الحديث مرة اخرى. هيا اسرع واطلب له الغذاء وارسل الرجل إلي في هذه الاثناء.

احضر وكيل العريف شفيك - اشار اليه الرقيب بأسلوب ودي ان يتفضل بالجلوس. ثم بدأ يسأله ان كان أبواه ما زالوا على قيد الحياة، فأجابه شفيك بالنفي.

وقد خطر للرقيب ان الأمور افضل ان كانت على هذا النحو، لأنه لن يكون هناك من سيفجع بالرجل البائس. نظر الى وجه شفيك البهيج وربت على ظهره في نوبة من الود المفاجئ وسأله بلهجة أبوية:

- حسناً، هل تطيب لك الإقامة في بوهيميا؟

- أحب كل أنحاء بوهيميا. وخلال رحلتي صادفت أشخاصاً طيبين في كل مكان.

أوما الرقيب برأسه موافقاً وقال:

- شعبنا كله طيب وحسن السلوك. إن سرقة هنا او شجاراً هناك لا يؤثر على الصورة الإجمالية. أنا هنا منذ خمسة عشر عاماً واذا ما أخذت في الحسبان ما حصل خلالها لقلت انه حدثت في كل عام ثلاثة أرباع جريمة قتل فقط.

سأله شفيك:

- أتعني بذلك جريمة قتل غير كاملة؟

- لا أعني ذلك، بل أعني انه خلال خمسة عشر عاماً لم أتحرك سوى إحدى عشرة جريمة قتل. ومنها خمس جرائم قتل كانت مقترنة بالسرقة والست الباقية كانت من النوع العادي الذي لا اهمية له.

صمت الرقيب ثم عاد الى اسلوب التحقيق:

- ما الذي اردت ان تفعله في بوديوفيتسه؟

- أستأنف واجباتي في الفوج الواحد والتسعين.

أمر الرقيب بإعادة شفيك الى المحرس ثم اضاف بسرعة - حتى لا ينسى - هذا المدخل الى تقريره الموجه الى قيادة الدرك في منطقة بيسك: «وبما انه متمكن اشد التمکن من اللغة التشيكية، فقد خطط للاتحاق بالفوج الواحد والتسعين مشاة في تشسكه بوديوفيتسه».

فرك الرقيب يديه بسعادة وهو يستمتع بالثروة من المعلومات التي جمعها والنتائج الدقيقة لطريقته في التحقيق. وقد ذكره ذلك بسلفه، الرقيب «بورغر» الذي لم يكن يتكلم الى اي معتقل اطلاقاً، او يسأله اي سؤال بل يرسله الى محكمة المنطقة مع تقرير قصير يقول: «وفقاً لمعلومات وكيل العريف فإن هذا الرجل قد اوقف على اساس انه متشرد وشحاذ». ثم يسمون ذلك تحقيقاً!

ثم أن الرقيب ابتسم - وهو ينظر الى صفحات تقريره - بكل رضا وقناعة وتناول من مكتبه بلاغاً بالتعليمات السرية صادراً عن رئاسة أركان الدرك في براغ وهو مهمور كالعادة بالخاتم الذي يقول: «سري للغاية» ثم قرأه كله مرة اخرى:

«على كل مخافر الدرك أن تراقب على نحو استثنائي ومشدد كل الأشخاص الذين يمرون عبر منطقتهم. ونتيجة لتحركات قواتنا في غاليسيا الشرقية فإن بعض الوحدات الروسية قد عبرت الجبال الكارباتية واتخذت

مواقع لها داخل حدود امبراطوريتنا، ونتيجة لذلك فإن الجبهة قد تحركت عميقاً نحو غرب المملكة. وبسبب هذا الوضع الجديد ومرونة خطوط الجبهة، فإن الجواسيس الروس قد استطاعوا التوغل عميقاً في مناطق مملكتنا، وخاصة في سيليسيا ومورافيا، حيث استطاع عدد كبير من عملاء المخابرات الروسية - وفقاً للمعلومات السرية - أن يتسللوا الى بوهيميا. وقد تم التأكد من ان بينهم الكثير من التشيكيين الروس الذين تم تدريبهم في مدارس الأركان العسكرية العليا في روسيا. وهم يتحدثون بالتشكيكية كأهلها ويبدو انهم عملاء مخابرات خطرون حيث يستطيعون نشر الدعاية الخيانية بين السكان التشيكيين بل يقومون بذلك فعلاً. لذا تأمر القيادة العليا الإقليمية بأن يتم القبض على كل العناصر المشبوهين وزيادة الحذر وخاصة في تلك الاماكن التي يتواجد الى القرب منها الحاميات والمراكز العسكرية والتي تمر بها القطارات العسكرية. ويتوجب اخضاع هؤلاء الموقوفين للتحقيق الفوري ثم ارسالهم الى السلطات الأعلى».

وهنا ابتسم الرقيب فلانديركا مرة أخرى برضا ووضع التعليمات السرية مع بعض الوثائق الأخرى في الملف المكتوب عليه: «أوامر سرية». كان هناك الكثير من هذه التعليمات السرية حيث كانت وزارة الدفاع تنظمها بالتعاون مع وزارة الدفاع الاقليمي التي يتبع لها الدرك. لم تكن رئاسة الأركان الاقليمية في براغ قادرة على نسخها وتوزيعها كلها لكثرتها. فقد كان هناك مثلاً:

- 1- أوامر للسيطرة على وضع السكان المحليين.
- 2- توجيهات حول اسلوب التعامل مع السكان المحليين واستنباط تأثير أخبار الجبهة على مواقفهم، وذلك منهم بالذات.
- 3 - لائحة اسئلة تتعلق برودود فعل السكان المحليين تجاه قروض الحرب التي تم إصدارها والتبرعات التي جمعت.

4 - لائحة اسئلة تتعلق بمعنويات من استدعي الى الخدمة العسكرية واولئك الذين سيتم استدعاؤهم.

5 - لائحة اسئلة تتعلق بمعنويات اعضاء الحكومات المحلية والمثقفين.

6 - أمر ينص على التقديم الفوري للمعلومات الخاصة بالانتماءات الحزبية والسياسية للسكان المحليين وقوة مختلف الاحزاب السياسية.

7 - أمر ينص على مراقبة نشاطات قادة الأحزاب السياسية المحلية ومعلومات تتعلق بدرجة إخلاص بعض الاحزاب السياسية الممثلة لدى السكان المحليين.

8 - لائحة اسئلة تتعلق بالصحف والمجلات والنشرات التي تصل الى المنطقة التي يتواجد فيها مخفر الدرك.

9 - تعليمات تتعلق بكيفية الحصول على المعلومات المتعلقة بالاتصالات التي يجريها الأشخاص المشبوهون الذين يشك بإخلاصهم وماهية عدم الإخلاص هذا.

10 - تعليمات حول كيفية تجنيد المخبرين والمبلغين عن رفاقهم بين السكان المحليين.

11 - تعليمات تتعلق بالمخبرين المأجورين بين السكان المحليين المسجلين رسمياً في مخفر الدرك.

في كل يوم كانت تصل تعليمات وتوجيهات ولوائح أسئلة وأوامر جديدة.

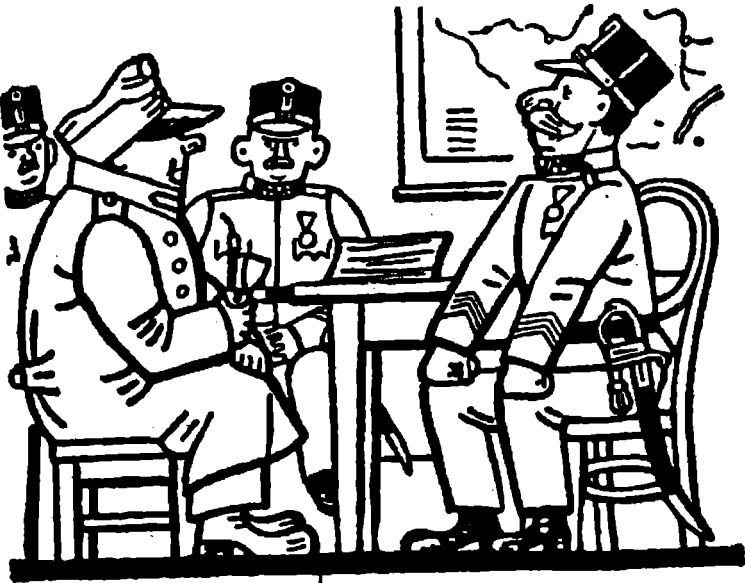
وفي خضم هذا السيل العارم من الابتكارات الصادرة عن وزارة الداخلية، فإن الرقيب فلانديركا قد جمع ركاماً من الأوراق غير المنجزة، وكان يجيب على كل لوائح الأسئلة بطريقة مقبولة: «كل شيء على ما يرام هنا وإخلاص السكان المحليين يمكن تقييمه بدرجة 1/آ».

لقد اخترعت وزارة الداخلية النمساوية الدرجات التالية للإخلاص

الثابت المتين تجاه الحكم الملكي: $1/1$ ، $1/ب$ ، $1/ج$ - $2/2$ ، $2/ب$ ، $2/ج$ ، $3/3$ ، $3/ب$ ، $3/ج$ ، $4/4$ ، $4/ب$ ، $4/ج$ وكانت الدرجات الثلاث الأخيرة تعني كما يلي $4/4 =$ الخيانة والشنق. $4/ب =$ الاعتقال $4/ج =$ الإبقاء تحت المراقبة وخلف القضبان.

كان في مكتب الرقيب مختلف انواع الأوراق واللوائح المطبوعة. لقد أرادت الحكومة أن تعرف كل ما كان يفكر به كل مواطن.

غالباً ما كان الرقيب فلانديركا يفرك يديه يائساً فوق هذه الدوريات المطبوعة التي كانت تتزايد على نحو لا يرحم مع كل توزيع للبريد فما أن يرى الآن تلك المغلفات وقد مهرت بخاتم يقول: «رسمي - مجاني» حتى يدق قلبه. وفي الليل، وحين يفكر في ذلك يصل الى القناة بأنه لن يعيش ليرى نهاية الحرب إذ ستقوم قيادة الدرك الاقليمية بحرماته من آخر ما تبقى لديه من عقل ولن يكون قادراً على الاستمتاع بانتصار الجيوش النمساوية، حيث سيكون قد فقد عقله تماماً حتى ذلك الحين. وقد كانت قيادة المنطقة تمطره يومياً بأسئلة تتعلق بأسباب عدم اجابته على لائحة الاسئلة رقم 127/72345/د، واما اتخذه من اجراءات تتعلق بالتعليمات رقم 822 -



زوه ح/88992/د، وما هي النتائج العملية للتوجيه رقم 1922 ب
ت/123456/س،.... الخ.

وقد كانت أشق الأمور عليه هي كيفية تجنيد مخبرين ومبلغين ماجورين
من بين السكان المحليين. وأخيراً، وحين وجد أنه من المستحيل ان يجد
اشخاصاً متعاونين في منطقة «بلاتا»، حيث للناس جماجم ثخينة جداً،
خطر له ان يجند راعي القرية. وكان هذا هو «أبله القرية» الذي يقفز في
الهواء كلما ناداه الناس «بييك»، اقفز يا جدي». كان واحداً من اولئك
الأشخاص التعيسين الذين اهملتهم الطبيعة البشرية، مجرد شخص معاق،
يرعى، لقاء بضع غلiders في العام. والقليل من الطعام، قطع القرية.

وهكذا طلبه الرقيب فجيء به، وقال له:

- هل تعرف يا بيبك من هو «بروخازكا»؟

ثغا بيبك:

- ماع! ماع!

- لا تشغ وانما تذكر انهم يسمون صاحب الجلالة الامبراطورية بهذا
الاسم هل تعرف من هو صاحب الجلالة الامبراطورية؟

- انه «صاحب الملالة الابراطية»!!

- جيد يا بيبك! والآن تذكر حين تذهب لتسول الطعام من منزل لآخر
أنك ان سمعت شخصاً يقول ان صاحب الجلالة الامبراطورية ثور او ما
شابه، فعليك ان تأتي وتخبر عنه فوراً. ستحصل على ستة كرويتزرات. واذا
سمعت أحداً يقول اننا لن نكسب الحرب، عليك ان تأتي إليّ - هل تفهم -
وتقول لي من قال ذلك. ثم سأعطيك ستة كرويتزرات أخرى. ولكن لو
سمعت انك تخفي عني شيئاً ما. سأعرف كيف أنتقم منك. سأقبض عليك
وأرسلك الى «بيسيك». والآن، اقفز يا جدي!

وحين قفز بيبك، اعطاه الرقيب اثني عشر كرويتزراً وكتب بسعادة

تقريراً الى قيادة الدرك في المنطقة يقول فيه انه جند مخبراً.

وفي اليوم التالي جاء إليه القس وقال له سرّاً انه في ذلك الصباح بالذات التقى خارج القرية بالراعي «بيبيك فيسكوتش» وقال له هذا: «أيها الموقر، لقد قال لي الرقيب البارحة إن صاحب «الملاة الابراطية» ثور وإننا لن نكسب الحرب. ماع! ماع! اقفز يا جدي».

وبعد تفسيرات ومناقشات اخرى مع القس تم القبض على الراعي بأمر من الرقيب وقد حكم عليه لاحقاً بالسجن في «هرادتشاني» لمدة اثني عشر عاماً بتهمة التخريب والتحريض والطعن في الذات الملكية وجرائم ومخالفات اخرى عديدة.

وقد تصرف في المحكمة كما يتصرف في المراعي أو بين جيرانه. فجواباً على كل الاسئلة كان يثغو كماعز. وبعد أن نطق الحكم عليه نطق بـ«ماع! ماع! اقفز يا جدي» ثم قفز. وقد عوقب على هذه الحركة بعقوبة انضباطية هي السرير القاسي والحبس الانفرادي وصيام ثلاثة أيام.

ومنذ ذلك الحين لم يعد لدى الرقيب أي مخبر وكان عليه ان يقنع نفسه باختراع مخبر وهمي أضفى عليه اسماً خيالياً ورفع له راتبه الى خمسين كراوناً في الشهر كان ينفقها على الشراب في «حانة القط العجوز». وبعد أن يشرب الكأس العاشرة كان يشعر بوخز الضمير فتصبح الجعة مرة المذاق ويسمع من جيرانه العبارة نفسها: «اليوم يبدو رقيبنا حزيناً وكأنه ليس صافي المزاج» ثم يذهب الى المخفر، وبعد أن يغادر الحانة يقول شخص ما دائماً: «لا بد وأن رجالنا قد أخذوا على حين غرة في مكان ما من الصرب. لهذا لا يبدو على الرقيب أن لديه ما يقوله».

ولكن الرقيب كان يستطيع على الأقل أن يملأ لائحة أسئلة أخرى: «المزاج عند السكان من درجة 1/آ».

غالباً ما كان الأرق يغزو ليالي الرقيب، اذ كان يتوقع باستمرار قدوم المفتشين أو المحققين.

وفي الليل كان يحلم بحبل المشنقة وكيف سيقناده إليها وكيف سيسأله في النهاية وزير الدفاع الاقليمي نفسه تحت المشنقة بالذات: (أيها الرقيب. أين جوابك على النشرة الدورية رقم 23792/1789678/ظ غ ث.

أما الآن فكان يبدو وكأن التحية الالمانية القديمة الخاصة بالصيد: «فايد ما نسهائل!» تدوي في كل زوايا مخفر الشرطة. ولم يكن لدى الرقيب فلانيدر كما أي شك بأن قائد المنطقة سيربت على ظهره ويقول: «أيها الرقيب، أهنتك».

وقد رسم الرقيب في ذهنه صوراً مغرية أخرى تشكلت في إحدى زوايا عقله الرسمي: تقليد الوسام. الترفيع السريع الى أعلى رتبة. تقدير إمكانياته في علم الاجرام وفتح الطريق امامه ليصبح بارزاً في مهمته. نادى على وكيل العريف وسأله:

- هل أحضرت الغداء؟

- لقد جلبوا له فخذ خنزير مدخن مع الملفوف والشيشبرك، اما الحساء فكان قد نفذ. لقد شرب الشاي وهو يرغب بنفجان شاي آخر. وافق الرقيب بشهامة قائلاً:

- ليشرب فنجاناً آخر، وبعد أن يشربه أحضره إليّ.

سأل الرقيب شفيك بعد أن احضره وكيل العريف الى غرفته وكان شفيك قد اتخم، وها هو سعيد كعادته على الدوام:

- حسناً. هل استمتعت به؟

- لم يكن سيئاً جداً أيها الرقيب. كنت أتمنى لو كان الملفوف اكثر قليلاً. ولكن لا بأس! اعرف انكم لم تكونوا مستعدين للأمر. كان الفخذ المدخن جيد التدخين. لا بد وأنه دخن في البيت من لحم خنزير من تربية البيوت. كما أن الشاي مع الروم كان رائعاً.

نظر الرقيب الى شفيك وقال:

- هل صحيح انهم يشربون الكثير من الشاي في روسيا؟ هل لديكم هناك شراب الروم أيضاً؟

- يمكنك ان تجد الروم في كل انحاء العالم ايها الرقيب.

فكر الرقيب في نفسه: «لا تراوغ. عليك ان تكون حذراً أكثر من ذلك حين تتكلم!» ثم انحنى نحو شفيك وسأله بلهجة توحى بالسرية:

- هل هناك فتيات جميلات في روسيا؟

- يمكنك ان تجد فتيات جميلات في كل انحاء العالم ايها الرقيب.

فكر الرقيب في نفسه مرة أخرى: «أيها النغل! أنت مستعد أن تدفع اي ثمن لقاء الخروج من هذا المأزق الآن». ثم اطلق الرقيب هاوونه الثقيل من عيار اثنين وأربعين:

- ما الذي كنت تريد أن تفعله في الفوج الواحد والتسعين؟

- أردت الذهاب معه الى الجبهة.

نظر الرقيب الى شفيك نظرة الرضا وقال:

- هذا صحيح. هذه هي أفضل طريقة للوصول الى روسيا.

- فعلاً، هذا كلام مدروس تماماً.

وهنا توهج الرقيب بالرضا اذ لاحظ مدى تأثير كلماته على شفيك.

ولكنه لم يقرأ من التعبير الذي في عيني شفيك اي شيء سوى الهدوء الكامل جداً.

فكر الرقيب منزعجاً: «هذا الرجل لا يظرف له جفن. هذا هو تدريبهم العسكري. لو كنت في مكانه وقال لي احدهم ما قلته له لبدأت ركبتاي ترتجفان...».

قال بلهجة عرضية:

- سنأخذك غداً الى بيسيك. هل سبق لك وكتب هناك؟
- نعم في عام (1910) خلال «المناورات الامبراطورية».
- بعد هذا الجواب كانت ابتسامه الرقيب لا تزال اكثر ودية وانتصاراً. شعر في قلبه بأنه قد تجاوز نفسه في أسلوب التحقيق الذي يتبعه.
- هل شاركت في كل المناورات؟
- طبعاً ايها الرقيب، كجندي مشاة.

ثم نظر شفيك مرة اخرى بكل هدوء الى الرقيب الذي كان يتلوى من الفرح وما عاد يستطيع ان يمسك نفسه عن الشروع فوراً بكتابة تقرير عن ذلك كله. نادى على وكيل العريف وأمره بأن يأخذ شفيك. ثم أكمل تقريره:

«كانت خطته كما يلي: أن يندس ضمن صفوف الفوج الواحد والتسعين مشاة، وأن يتطوع فوراً للذهاب الى الجبهة وذلك للوصول الى روسيا في اول فرصة، لأنه أدرك ان اية طريقة أخرى ستكون مستحيلة بسبب يقظة اجهزتنا الأمنية. إن إمكانية اندساسة بين صفوف الفوج الواحد والتسعين مشاة ونجاحه في ذلك أمر يمكن فهمه تماماً حيث أقر هو نفسه بعد المزيد من التحقيق بأنه اشترك عام (1910) في كل «المناورات الامبراطورية» في منطقة بيسيك كجندي مشاة. ومن هنا يتضح انه متمكن من مهنته. وأود أن اضيف ان التهم التي جمعتها هي نتيجة لأسلوبي الخاص في التحقيق».

ظهر وكيل العريف في الباب وقال:

- ايها الرقيب، إنه يريد الذهاب الى المرحاض..

قرّر الرقيب:

- ثبتوا الحراب! انتظر لحظة. لا. احضره الى هنا.

قال له الرقيب بلهجة ودية:

- هل تريد الذهاب الى المرحاض؟ أليس هناك شيء آخر خلف ذلك؟
وهنا ركز الرقيب نظره على وجه شفيك.

أجاب شفيك:

- اقول بصدق انها مسألة الرقم (2) أيها الرقيب.

- للتأكد من عدم وجود شيء خلف ذلك. سأصطحبك بنفسى.

قال الرقيب ذلك بلهجة توحى بالأهمية وهو يزود نفسه بمسدسه الرسمي.

قال لشفيك على الطريق:

- هذا مسدس جيد جداً يتسع لسبع طلقات وهو جيد التصويب.

ولكنهم قبل الخروج الى الساحة نادى على وكيل العريف وقال له
بلهجة توحى بالسرية:

- عليك ان تثبت حربتك، وحين يدخل الى المرحاض قف عند
المؤخرة، حتى لا يحفر نفقاً لنفسه عبر حفرة الروث.

كان المرحاض هو ذاك الكوخ الخشبي الصغير المعتاد وكان يقف هناك
بكآبة في منتصف الساحة فوق حفرة مليئة بماء الروث الذي كان يرشح من
كومة السماد القريبة.

كان المرحاض عجوزاً مخضراً قامت اجيال بحالها بتفريغ حاجاتها
الجسدية فيه. والآن جلس شفيك في داخله وهو يمسك بإحدى يديه الباب
المربوط بحبل. بينما كان وكيل العريف من خلفه يراقبه من الشباك الخلفى
حتى لا يحفر نفقاً ويهرب.

على الباب ثبت الرقيب عينيه الأشبه بعيني الصقر وكان يتأمل مفكراً في
الساق التي يتوجب عليه ان يطلق عليها النار أولاً لو حاول شفيك الفرار.

ولكن الباب فتح بهدوء وظهر شفيك وعليه علائم الارتياح وقال
للرقيب:

- لم أطل مكوثي في الداخل كما آمل؟ لم تنتظروني طويلاً، كما آمل؟

اجاب الرقيب:

- لا، ليس اطلاقاً. ليس اطلاقاً.

ثم فكر في نفسه: «لكم هم أناس مهذبون وشرفاء. انه يعرف ما يخبأ له، ولكنه لا يتصرف سوى بشهامة. انه جنتلمان حتى النهاية. هل سيتصرف احد أفراد شعبنا بهذه الطريقة لو كان في مكانه»؟

في مخفر الدرك استمر الرقيب جالساً الى القرب من شفيك على السرير الفارغ الخاص بالدركي «رامبا» الذي كان مناوباً حتى الصباح التالي. كان عليه ان يدور في القرى وكان يجلس في تلك اللحظة بالذات في حانة «الحصان الأسود» في «بروتيفين» وهو يلعب «المارياش» مع معلمي صنعة الإسكافية ويشرح في الفترات الفاصلة أن النمسا لا بد أن تكسب الحرب.

اشعل الرقيب غليونه وعرض على شفيك أن يملأ غليونه، ووضع وكيل العريف حطبة في المدفأة وتحول مخفر الدرك الى اكثر بقع المعمورة ألفة وانسجماً، الى زاوية هادئة، الى عش دافئ في شفق الشتاء الداني حين يحين أوان السمر الودي.



ومع ذلك لم ينطق احد بشيء. كان الرقيب يتابع خط فكرة معينة ثم عبر عنها أخيراً وهو يلتفت نحو وكيل العريف:

- في رأيي أنه ليس عدلاً ان نشنق الجواسيس. إن من يضحى بنفسه حتى يؤدي واجبه تجاه - لنقل - وطنه، يجب أن يتم التخلص منه بأسلوب مشرف، اي بالبارود والرصاص. ما رأيك يا وكيل العريف؟

قال وكيل العريف:

- طبعاً وبكل تأكيد. يجب أن يرمى بالرصاص لا أن يشنق. لنفترض انهم أرسلونا وقالوا لنا: «عليكم ان تكتشفوا عدد المدافع الرشاشة التي لدى الروس في كتيبة الرشاشات». ثم يكون علينا ان نتنكر وننطلق. فلماذا عليهم أن يشنقوني كلص او مجرم؟

انفعل وكيل العريف الى حد أنه نهض وصاح:

- أصرّ على ان أعدم بالرصاص وأن أدفن بالمراسم العسكرية اللائقة.

قال شفيك:

- ولكن العقبة الخفية هي انه اذا كان الرجل ذكياً فلا يستطيع أحد ان يثبت اي شيء ضده.

قال الرقيب مؤكداً:

- بل يستطيعون! ان كانوا هم اذكياء أيضاً ولهم «أسلوبهم الخاص». ستري بنفسك.

ثم كرر بلهجة هادئة وابتسم بود:

- ستري. لا احد ينجح في التملص منا، أليس كذلك يا وكيل العريف؟

أوماً وكيل العريف برأسه مويداً وذكر انه بالنسبة للبعض فإن اللعبة تكون في طور متقدم، وحتى قناع الهدوء الكامل لا يساعدهم لأنه كلما ازداد هدوءهم كان ذلك دليلاً اشد ضدّهم.

قال الرقيب بفخر:

- أنت من مدرستي. الهدوء فقاعة صابون. والهدوء المصطنع عبارة عن «جسم الجريمة» (الواقعة المادية لإثبات الجريمة).

ثم قطع عرض نظريته والتفت نحو وكيل العريف وسأله:
- ما هو عشاؤنا لهذه الليلة؟

- ألن نذهب الى الحانة الليلة أيها الرقيب؟

بهذا السؤال برزت مشكلة جديدة وصعبة كان يتوجب حلها فوراً.

ماذا لو ان الرجل حاول انتهاز فرصة غيابه خلال الليل وهرب بعيداً؟ كان وكيل العريف شخصاً يمكن الاعتماد عليه بالطبع. وكان حذراً. ولكن سبق ان هرب متشردان كانا تحت حراسته. وقد حدث ذلك في الواقع لأنه لم يرغب في ان يجهد نفسه بالمشي في الشتاء فوق الثلوج عبر الطريق بأكمله الى «بيسيك». وهكذا أطلق سراحهما في الحقول قرب «راجيتسه» وأطلق طلقة في الهواء شكلياً.

قال الرقيب:

- سنرسل المرأة العجوز لتحضر لنا العشاء وتستطيع أن تحضر لنا الجعة في ابريق. وقل للمرأة ان تسرع قليلاً.
وهكذا وجد حلاً للمشكلة.

ولكن «بيزليركا» التي كانت تعمل خادمة عندهم لم تهرع بكل تأكيد.

بعد العشاء كان الممر الواصل ما بين مخفر الدرك وحانة «القط العجوز» مشغولاً طوال الوقت. وقد كانت آثار خطوات المرأة العجوز المتكررة على نحو غير عادي فوق هذا الخط الواصل تشير الى ان الرقيب كان يعوض نفسه تماماً عن غيابه عن «القط العجوز».



وحين ظهرت بيزليركا أخيرا عند الحانة مع رسالة من الرقيب تقول انه يرسل تحياته ويطلب ان ترسل له زجاجة من «كونتوشوفكا»⁽¹⁾ لم يستطع صاحب الحانة ان يسيطر على فضوله فسألها:

- من عندهم هناك؟

فأجابت بيزليركا العجوز:

- عجباً! انه شخص مشبوه. وقبل ان اغادر المخفر كانا كلاهما يضعان اذرعتهما حول عنقه والرقيب يرت على رأسه ويقول له: «يا نغلي السلافي الجميل، يا جاسوسي الصغير!».

وبعد أن كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير. نام وكيل العريف. فقد تمدد على سريره في كامل ملابسه وبدأ يشخر بعمق.

كان الرقيب جالساً قبالة مع ما تبقى في قعر الزجاجة من حثالة

(1) نوع من الفودكا البولونية. (س.ب).

«الكونتوشوفكا». كانت ذراعه حول عنق شفيك والدموع تنهمر فوق خديه المسفوعتين. بينما التصق شارباه الخديان ببعضهما بواسطة «الكونتوشوفكا». هذر. قائلاً:

- قل انه لا يوجد في روسيا مثل هذه الكونتوشوفكا الجيدة! قلها، حتى أستطيع ان آوي الى فراشي بسلام! اعترف بذلك كرجل!
- ليس لديهم.

تمايل الرقيب على شفيك وصاح:

- لقد جعلتني سعيداً. لقد اعترفت لي. هكذا يجب أن يكون التحقيق.
اذا كنت مذنباً فلماذا أنكر ذلك؟

نهض وهذر وهو يدخل مترنحاً الى غرفته مع الزجاجة الفارغة:

- لو لم اتجه الاتى.. الاتجاه الصحيح لكان كل شيء قد اختد... اختلف تماماً.

وقبل ان يرمي بنفسه على سريره في ملابسه الكاملة اخرج من مكتبه التقرير وحاول أن يتممه بالمادة التالية:

«عليّ أن اضيف بأن الكونتوشوفكا الروسية على أساس الفقرة السادسة والخمسين...».

وهنا صنع لطحخة فلحقها بلسانه. ابتسم بغباء ثم رمى بنفسه على الفراش ونام كالجنة.

في الصباح كان وكيل العريف المتمدد على سريره عند الجدار المقابل قد بدأ يشخر على نحو مخيف مع صفير خارج من الأنف بحيث استيقظ شفيك. ولكن الديوك كان قد سبق لها وبدأت تصيح. وحين اشرفت الشمس أخيراً. جاءت «ببزليركا» العجوز التي نامت فترة اطول من عاداتها بسبب رحلاتها الليلية الكثيرة. وذلك لتشعل نيران المدافئ. فوجدت الباب مفتوحاً والكل نائماً نوماً عميقاً. كان مصباح الكاز في المحرس لا زال

يدخن. فأعلنت بيزليركا العجوز حالة الانذار. وجرت وكيل العريف وشفيك من الفراش وقالت لوكيل العريف:

- أأست خجلاً من النوم بكامل ملابسك كأنك واحد من بهائم الرب؟ وهكذا فقد ذكرت شفيك بأن عليه على الأقل ان يزّرر أزرار بنطاله لدى مشاهدته لامرأة أمامه.

وأخيراً حثت وكيل العريف بشدة على ان يذهب ويوقظ الرقيب، حيث انه ليس من اللائق ان ينام الناس حتى هذا الوقت المتأخر.

همهمت المرأة العجوز مخاطبة شفيك حين ذهب وكيل العريف لايقاظ الرقيب:

- لا شك وأنتك وقعت بين أيدي لطيفة، الواحد منهما سكير كبير كالأخر تماماً. انهما يشربان حتى الثمالة. وهما مدينان لي برواتب ثلاث سنوات. وحين اذكرهما بهما يقول لي الرقيب دائماً: «اصمتي ايها المرأة العجوز، او اضعك في السجن: نحن نعرف ان ابنك لص ويسرق الحطب من العربة. وهكذا تجدني استشهد كل يوم منذ أربع سنوات». ثم تنهدت المرأة العجوز بعمق واستأنفت: «احترس من الرقيب. انه مداهن جداً ونغل من الدرجة الأولى أيضاً. كلما استطاع فإنه يدين الشخص ثم يرسله الى السجن».

كان الرقيب من النوع صعب الايقاظ. وقد تطلب الأمر جهداً كبيراً من وكيل العريف لإقناعه بأن الصباح قد أظف.

وأخيراً استفاق، فرك عينيه وبدأ يتذكر على نحو غامض ما الذي حدث في الليلة الماضية. وفجأة خطر له خاطر مخيف عبّر عنه وهو ينظر بشك الى وكيل العريف:

- هل هرب؟

- لا بالطبع. انه شخص شريف.

بدأ وكيل العريف يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وينظر من النافذة الى الخارج. ثم عاد ومزق قطعة ورق من الصحف التي فوق المنضدة ولفها على شكل مقذوف ورقيّ بأصابعه. كان من الواضح انه أراد ان يقول شيئاً ما.

نظر إليه الرقيب ببعض الشك وقال أخيراً ليتأكد مما كان يشك فيه فحسب:

- سأساعدك يا وكيل العريف. اعتقد اني «زودتها» البارحة مرة أخرى، أليس كذلك؟

نظر وكيل العريف على نحو تأنيبي الى رئيسه:

- لو عرفت ايها الرقيب كل ما قلته البارحة وأي نوع من الحديث تبادلته معه. ثم انحنى نحو أذن الرقيب وهمس قائلاً:

- قلت اننا جميعاً، نحن التشيكيين والروس، من الدم السلافي نفسه، وان نيكولاي نيكولاييفيتش⁽¹⁾ سيصل الى «برجروف» في الأسبوع القادم وان النمسا لا تستطيع الصمود، وانه حين سيتم التحقيق معه مرة أخرى، عليه أن ينكر كل شيء. وأن الأمور ستصل الى نقطة الانهيار سريعاً، وأن ما سيحصل شبيه بما حصل خلال «الحروب الهوسية»⁽²⁾ سيأتي الفلاحون بمدارسهم اليدوية (جمع مدرس) الى فيينا، وأن صاحب الجلالة الامبراطورية رجل خرف عجوز ضعيف وسيموت سريعاً، وأن القيصر فيلهلم عبارة عن سحلية وانك سترسل إليه المال في السجن لتحسين ظروف سجنه، وقلت أموراً أخرى مشابهة..

ابتعد وكيل العريف عن الرقيب واستأنف قائلاً:

(1) هو الدوق الاعظم نيكولاي الذي كان القائد العام للقوات المسلحة الروسية. (س. ب).
(2) وهي الحروب التي جرت بين عامي (1419-1436) بسبب بروز حركة اتباع «جون هوس» (المترجم).

- أستطيع ان أتذكر ذلك كله جيداً لأنني لم اكن ثملاً إلا بعض الشيء. ثم اصبحت ثملاً تماماً أنا أيضاً ولم أعد أعني شيئاً.

نظر الرقيب الى وكيل العريف وقال:

- لكن ما اتذكره هو انك قلت اننا أقزام بالمقارنة مع الروس وانك صرخت امام خادمنا العجوز قائلاً «عاشت روسيا».

بدأ وكيل العريف يذرع الغرفة بعصية جيئة وذهاباً.

قال الرقيب:

- كنت تخور كالثور ثم رميت بنفسك على السرير ورحت تشخر.

توقف وكيل العريف عند النافذة وبينما راح ينقرها بأصابعه قال:

- أيها الرقيب، أنت أيضاً لم تبق فمك مغلقاً امام خادمنا العجوز واتذكر كيف قلت لها: «تذكري أيتها المرأة العجوز أن كل امبراطور او ملك لا يفكر إلا بجيبه الخاص، وانهم يشنون الحروب لهذا السبب، حتى لو كان مجرد عجوز خرف مثل «بروخازكا» العجوز⁽¹⁾ الذي لا يدعونه يخرج من المرحاض حيث انه قد يملأ كل شونبرون بالبراز⁽²⁾.

- هل تعني أنني قلت ذلك؟

- نعم أيها الرقيب، قلت ذلك قبل ان تخرج الى الفناء لتستفرغ،

وصرخت أيضاً: «أيتها العجوز ادفعي بأصبعك في حلقي!».

قاطعته الرقيب قائلاً؛

- لقد قلت اشياء لطيفة بدورك أيضاً، وذلك حين تحدثت عن تلك الفكرة

السخيفة المتعلقة بأن نيكولاي نيكولايفيتش سيصبح ملكاً لبوهيميا.

قال وكيل العريف بخوف:

- لا اتذكر ذلك.

(1) اللقب الذي كان التشيكيون يطلقونه مع الامبراطور فرانتس يوسف. (س.ب).

(2) القصر الامبراطوري في فيينا. (الترجم).

- طبعاً لا تذكره، كنت مخموراً تماماً، كانت لك عينا خنزير وحين اردت الخروج من الغرفة تسلقت المدفأة بدلاً من الخروج من الباب.

ثم صمتا لفترة كلاهما حتى حطم الرقيب الصمت الطويل قائلاً:

- كنت اقول لك دائماً ان الكحول هو الموت. لا قدرة لك على الشراب ومع ذلك فأنت تشرب. ما الذي سيحدث لو هرب منا؟ كيف كان ممكناً لنا ان نفسر ذلك؟ يا الهي، رأسي يكاد ينصدع، اقول لك ذلك لأنه من الواضح تماماً مدى مكره وخطورته. حين يأتون للتحقيق معه سيقول ان الباب كان مفتوحاً طوال الليل، وأنا كنا ثملين وانه كان قادراً على الهروب ألف مرة لو انه مذنب. من حسن الحظ انهم لن يصدقوا شخصاً مثله وحين نقول نحن تحت القسم الرسمي ان ذلك كله كان تلفيقاً وكذباً صفيقاً من جانبه، لن يستطيع احد ان يساعده، حتى الرب نفسه، وستكون هناك مادة اخرى من القانون ملتفة حول عنقه. في مثل حالته لن يكون هناك فرق كبير طبعاً. لو ان رأسي لا يؤلمني الى هذا الحد فحسب!

ساد الصمت وبعد لحظة قال الرقيب:

- أمسك بتلك المرأة العجوز!

قال الرقيب لبيزليركا وهو ينظر إليها بحزم في العينين:

- اصغ إلي أيتها العجوز، اذهبي وفتشي عن صليب على قاعدة واحضريه

الى هنا.

ولكن نظراتها المتسائلة اشعلت فتيل غضب الرقيب فصاح بها:

- الأخرى بك ان تسرعني.

أخرج الرقيب من درج الطاولة شمعتين كان عليهما آثار «الختام» الذي يستعمل لختم الوثائق الرسمية، وحين دخلت بيزليركا أخيراً، وهي ترتجف خائفة، ووضعت الصليب بين الشمعتين على طرف الطاولة، وأشعلت الشمعتين، قال لها بصوت وقور:

- اجلسي أيتها العجوز.

جلست بيزليزكا العجوز على الأريكة ونظرت مروعة الى الرقيب والشمعتين والصليب. كان الرعب قد تملكها، ورغم ان يديها كانتا فوق مريلتها إلا انك كنت تستطيع ان تراهما ترتجفان مع ركبتيها. سار الرقيب من حولها على نحو وقور ثم توقف مرة أخرى أمامها وقال لها بصوت صارم:

- البارحة مساء شهدت حدثاً عظيماً أيتها العجوز، ربما كان عقلك الضعيف غير قادر على استيعابه. هذا الجندي ضابط استخبارات جاسوس، أيتها العجوز. زعقت بيزليزكا:

- يا للمسيح ومريم! يا سيدة سكو تشيتسه العذراء العزيزة!

- حتماً أيتها العجوز! حتى نحصل على المعلومات منه اضطررنا الى التلطف بأشياء مختلفة. لقد سمعت تلك الأشياء الغريبة التي تلفظنا بها، أليس كذلك؟ همست بيزليزكا بصوت مرتجف:

- نعم يا سيدي سمعت.

- ولكن كان كل ما قلناه، أيتها العجوز، يهدف الى جعله يعترف، جعله يثق بنا. وقد نجحنا في ذلك. لقد جعلناه ينطق بكل ما اردناه. لقد احتلنا عليه.

قطع الرقيب خطابه للحظة وذلك حتى يعدل فتيلي الشمعتين ثم تابع بصرامة وهو ينظر بقسوة الى بيزليزكا:

- كنت حاضرة وقد اطلعت على الأسرار كلها. هذه الأسرار رسمية. وعليك ألا تقضي بكلمة واحدة منها الى اي شخص، ولا حتى وانت على فراش الموت، والآن يسمحوا بدفنك في فناء الكنيسة.

- يا للمسيح ومريم ويوسف! لماذا كتب عليّ سوء الحظ ان اعمل هنا؟
 - لا تولولي أيتها العجوز. انهضي. اقتربي من الصليب. ارفعي اصبعين
 من أصابع يدك اليمنى. ستقسمين. كرري ورائي.
 ترنحت بيزليركا نحو الطاولة وهي تنن باستمرار:
 - يا مريم العذراء يا سيدة سكوتشيتسه! لماذا كتب عليّ أن أجيء الى هذا
 المكان؟

وقد نظر إليها وجه المسيح المضنى من على الصليب، وكانت الشمعتان
 تدخنان ويبدو كل شيء رهيباً وخارقاً للطبيعة بالنسبة إليها. كانت ضائعة
 تماماً وركبتها تصطكان ويدها ترتجفان.
 رفعت أصبعين وقام الرقيب بقراءة القسم بإجلال وبلهجة تشديدية
 وذلك حتى تكررته من بعده:

- اقسام امام الله العظيم وأمامك أنت أيها الرقيب، أني لن اذكر حتى يوم
 مماتي كلمة واحدة مما سمعته ورأيته هنا حتى لو امرت بذلك. فليساعدني
 الله على ذلك!

قال لها الرقيب بلهجة الأمر بعد ان أقسمت وهي تبكي بكاء رهيباً، وبعد
 ان رسمت اشارة الصليب على نفسها بكل ورع:
 - والآآن قبلي الصليب أيضاً أيتها العجوز. هيا اعيدي الصليب من حيث
 جئت به وقولي لمن استعرتة منهم اني كنت في حاجة إليه للتحقيق!

خرجت بيزليركا المرهقة من المخفر على رؤوس اصابعها حاملة
 الصليب، ومن الشباك كان يمكن ان ترى وهي تنظر الى الخلف
 باستمرار باتجاه المخفر وكأنها ارادت إقناع نفسها بأن ذلك لم يكن
 مجرد حلم بل انها مرت منذ برهة فحسب بأفضع تجربة في حياتها
 كلها.

أعاد الرقيب في هذه الاثناء كتابة التقرير الذي كان قد تمّمه في الليلة

الماضية بالبقع التي حاول ان يلحقها ليزيلها مع الكتابة، وكأنما كان هناك مربى فوق الورق.

وها هو الآن يعيد كتابة التقرير بأكمله ثم يتذكر ان هناك سؤالاً واحداً لم يطرحه بعد. استدعى شفيك وسأله:

- هل تعرف كيف تلتقط صوراً فوتوغرافية؟

- نعم.

- لماذا لا تحمل آلة تصوير إذا؟

- لأني لا املك واحدة.

كان هذا هو جواب شفيك الصادق الصريح.

سأله الرقيب:

- لو كان لديك آلة تصوير، هل كنت ستصوّر بها؟

- إن «لو» تفتح عمل الشيطان.

وقد تحمل بهدوء التعبير المحير المرتسم على وجه الرقيب الذي كان رأسه قد عاد يؤلمه للتو فلم يستطع ان يطرح اي سؤال آخر سوى هذا:

- هل تعتقد انه من الصعب تصوير مخفر؟

اجاب شفيك:

- بل هو أسهل من أي شيء آخر، لأنه لا يتحرك بل يقف في المكان نفسه فلا تكون مضطراً لان تقول له ان يتنسم.

اصبح الرقيب الآن قادراً على اكمال تقريره كما يلي:

«بالنسبة للتقرير رقم (2172) لي الشرف ان أضيف...»

وتابع الرقيب الكتابة «انه خلال التحقيق اعترف بأنه يعرف كيف يلتقط الصور الفوتوغرافية وانه يفضل تصوير المخافر. صحيح اننا لم نجد معه آلة تصوير ولكن يستطيع المرء ان يفترض انه قد خبأها في مكان ما ولذا فهو لا

يحملها معه حتى لا يلفت إليه الانظار، وهذا الكلام يؤكد دليل اعترافه بأنه سيلتقط الصور لو كانت معه آلة تصوير».

وبما ان الصداق كان قد أمسك برأس الرقيب بسبب الليلة الفاتنة، فقد اصبح اكثر فأكثر تشوشاً في تقريره حول موضوع التصوير فكتب «الواضح من اعترافه ان حقيقة كونه لا يحمل آلة تصوير هي التي منعت من تصوير مباني المخفر والاماكن ذات الأهمية الاستراتيجية عموماً. لا شك انه كان سيفعل ذلك لو كانت تلك الآلة معه ولكنه خبأها في مكان ما. فيسبب حقيقة انه لم يكن يحمل آلة تصوير في ذلك الوقت بالذات، لم نجد معه آلة تصوير».

قال الرقيب: «هذا يكفي» ثم وقع التقرير.

كان راضياً تماماً عن عمله وقراه لو كبل العريف باعتزاز كبير.

قال لو كبل العريف:

- هذا هو النجاح! هكذا هو! هذه هي طريقة كتابة التقارير! يجب ان يحتوي على كل شيء. التحقيق يا صديقي ليس مسألة سهلة، والأمر الاساسي هو ان يوضع كل شيء على نحو أنيق ضمن التقرير حتى يخدع الناس الذين هم فوق بحيث تجحظ أعينهم. احضر رجلنا حتى ننتهي منه.
قال لشفيك بلهجة جدية:

- والآن سيصطحبك وكيل العريف الى قيادة الدرك في منطقة بيسيك، ووفقاً للتعليمات يجب ان توضع بديك في الأصفاد. ولكن بما اني اعتقد انك شخص شريف فلن افعل ذلك. أنا على ثقة من انك لن تحاول الهرب على الطريق.

من الواضح ان الرقيب كان متأثراً بمنظر وجه شفيك الودود حين اضاف:

- وآمل انك لم تسيء فهمي. خذه يا وئيل العريف. إليك التقرير.

اضاف شفيك بلطف:

- إذاً وداعاً وحظاً سعيداً لك. شكراً ايها الرقيب لكل ما فعلته لأجلي. وحين ستسمح لي الفرصة: سأكتب إليك وإذا ما حصل وجئت الى هنا مرة اخرى فسوف ازورك.

خرج شفيك مع وكيل العريف الى الطريق وكان من شأن اي شخص يراهما، وهما منهما مكان في حديث ودي، ان يظن انهما صديقان قديمان ذاهبان صدفة الى البلدة وربما الى الكنيسة.
كان شفيك يقول:

- لم أتخيل أبداً ان الطريق الى بوديوفيتسه ستكون حافلة بمثل هذه الصعوبات كلها. هذا يذكرني بحكاية الجزائر «خاورا» من «كوبيليسي». فقد جاء مرة في الليل الى نصب «بالاتسكي» عند «موراني» ودار حوله مرات ومرات حتى الصباح لأنه ظن ان الجدار لم تكن له نهاية. وقد جن جنونه بسبب ذلك. وفي الصباح لم يعد يستطيع الاستمرار وبدأ يصيح: «انجديني ايتها الشرطة». وحين جاءت الشرطة سألها عن الطريق الى كوبيليسي قائلاً انه سبق له وسار حول الجدار خمس ساعات ولم يجد له نهاية. وهكذا اقتادوه فحطم كل شيء في زنزاتته حين وضعوه في الحبس الانفرادي.

لم يتلفظ وكيل العريف بكلمة واحدة بل فكر في نفسه قائلاً:

«على اية مغازل تغزل يا هذا؟ لقد عدت الى حكاياتك الخرافية عن بوديوفيتسه مرة اخرى».

مرا ببحيرة وسأل شفيك وكيل العريف ببعض الاهتمام ان كان هناك لصوص سمك كثيرون في المنطقة.

أجاب وكيل العريف:

- هنا الكل لصوص. لقد أرادوا ان يرموا الرقيب السابق في الماء. إن الوكيل الحكومي المسؤول عن الماء عند السد لا يزال يطلق «فشكا» مليئاً

بالأشواك على مؤخراتهم ولكن عبثاً. فهم يضعون صفائح معدنية في بناطيلهم. كما تعرف.

بدأ وكيل العريف يتحدث عن التقدم، وكيف أن الناس يعتادون على كل شيء وكيف يغشون بعضهم البعض. ثم ابتكر نظرية جديدة تفيد بأن الحرب عبارة عن نعمة هائلة للإنسانية لأنه لا يقتل خلال المعارك الناس الطيبون فحسب بل الكثير من الأوغاد والأنغال أيضاً.
قال وهو يتأمل:

- وعلى اية حال فإن هناك الكثير من البشر في هذا العالم، وكل واحد يزاحم الآخر، والبشرية تتكاثر على نحو مريع.
اقتربا من حانة على الطريق.
قال وكيل العريف:

- الريح تعصف على نحو رهيب. اعتقد أن جرعة صغيرة لن تؤذينا أبداً.
لا تقل لأي شخص اني اقتادك الى «بيسيك». هذا سر من أسرار الدولة.
كانت تتراقص امام عيني وكيل العريف تعليمات السلطات المركزية المتعلقة بالأشخاص المشبوهين وواجبات مخفر الدرك:
«ابقهم بعيداً عن كل اتصال مع السكان المحليين واحرص كل الحرص على ألا تجروا اية محادثات غير ضرورية في المنطقة خلال نقلهم الى السلطات الأعلى».

قال وكيل العريف مرة اخرى:

- لا يجب أن يعرفوا من أنت. ان ما فعلته عمل لا يخص احداً. لا يجب ان تسمح للذعر أن يثار. الذعر أمر شديد السوء في أوقات الحرب هذه. تقول شيئاً فينتشر بسرعة انحدار الانهيار الثلجي في كل انحاء المنطقة. هل تفهم ما أعنيه؟

قال شفيك:

- حسناً، لن اثير أي ذعر.

وقد حافظ على وعده لأنه حين تحدث إليه صاحب الحانة قال:

- يقول اخي هنا اننا سنكون في «بيسيك» في الساعة الواحدة.

سأل صاحب الحانة الفضولي وكيل العريف:

- إذا فأخوك في اجازة؟

فأجاب هذا دون ان يطرف له جفن وبكل صفاقة:

- هذا اليوم هو آخر أيامه.

ثم قال وهو يتسم لشفيك حين خرج صاحب الحانة الى مكان ما.

- لقد خدعناه تماماً. لا ذعر من اي نوع، هذا ما نريده فحسب. انه زمن

الحرب!

حين صرح وكيل العريف قبل الدخول الى الحانة بأن جرعة صغيرة لن توذي أبداً، فقد كان متفائلاً، لأنه نسي موضوع الكمية، وبعد ان كان قد شرب اثنتي عشرة كأساً، قال بكل ثقة ان قائد مخفر المنطقة سيكون حتى الثالثة منهمكاً في تناول طعامه وانه من العبث الوصول الى هناك قبل تلك الساعة كما ان عاصفة ثلجية قد بدأت للتو. لو وصلا «بيسيك» في الرابعة بعد الظهر سيكون هناك الكثير الكثير من الوقت. وحتى لو وصلا في السادسة فسيكون ذلك مناسباً إذ سيكون الظلام قد خيم على اية حال كما يبدو من الطقس. الأمر سيان سواء انطلقوا الآن او لاحقاً. لن تهرب «بيسيك» على اية حال.

كانت كلمته الحاسمة هي:

- فلنكن سعيدين بما اننا نجلس في مكان دافئ. هناك في الخنادق في

طقس كرية كهذا، يعاني اولئك الرجال اكثر بكثير مما نعايه ونحن نجلس

قرب مدفأة.

كانت المدفأة الكبيرة العتيقة تتوهج من شدة حرارتها ووجد وكيل العريف انه يستطيع ان يشع الدفء الخارجي بواسطة دفء داخلي يمكن الوصول إليه عن طريق احتساء مختلف انواع المشروبات الروحية الحلوة والقوية كما يقال في غاليسيا.

في هذه البقعة المنعزلة كان لدى صاحب الحانة ثمانية انواع من المشروبات الروحية: كان ضجراً الى اقصى حد وقد راح يشرب على صوت الريح المعولة التي كانت تصفر خلف كل زاوية من زوايا البناء.

استمر وكيل العريف في دعوة صاحب الحانة الى مجاراته في الشراب متهماً اياه بأنه يشرب القليل جداً، وكان ذلك ظلماً بيننا، لأن ذاك كان لا يستطيع الا بالكاد أن يقف على ساقيه ويريد طوال الوقت أن يلعب لعبة «الفربل». قال انه سمع في الليل نيران مدافع آتية من الشرق، فحورق وكيل العريف لدى سماعه هذا الكلام وقال:

- لا تصابوا بالذعر كرمى لله! فهناك تعد.. تعد.. تعليمات تتعلق بهذا الموضوع.

ثم راح يشرح أن التعليمات عبارة عن مجموعة من الأوامر الفورية.



ولقد افشى بذلك بعض التوجيهات السرية ولكن صاحب الحانة ما عاد يستطيع فهم اي شيء، بل كان كل ما هو قادر عليه هو ان يصرخ بأن الحرب لا يمكن ان تكسب بالتعليمات.

كان الظلام قد حلّ حين قرر وكيل العريف ان عليه أن ينطلق هو وشفيك الى «بيسيك». في العاصفة الثلجية ما كان يمكنهما ان يريا اكثر من خطوة او اثنتين امامهما، وكان وكيل العريف يقول باستمرار «هيا تابع طريقك مهتدياً بأنفك حتى تصل الى بيسيك».

وحين قال هذه الجملة للمرة الثالثة لم يعد صوته يصدر عن الطريق بل من مكان ما في الأسفل، حيث كان قد انزلق على المنحدر فوق الثلوج. وبمساعدة بندقيته راح يتسلق بجهد ليصل الى الطريق مرة اخرى. سمعه شفيك يضحك لنفسه قائلاً: «مزلجة». وبعد حين لم يعد شفيك يستطيع ان يسمع صوت وكيل العريف على الطريق حيث كان هذا قد انزلق مرة أخرى على المنحدر وكان يصرخ بصوت عال جداً الى حدّ أنه غطى على صوت الريح: «أنا أسقط الذعرا!».

لقد تحول وكيل العريف الى نملة نشطة كانت كلما سقطت في مكان ما تحاول بعناد ان تتسلق مرة أخرى.

كرر وكيل العريف رحلته خمس مرات هابطاً المنحدر وحين عاد ثانية ليسير الى جانب شفيك قال بيأس وبؤس:
- كان من الممكن ان أضيعك بكل سهولة.
- قال شفيك:

- لا تخف يا وكيل العريف. سيكون الأفضل لو اننا نربط نفسيينا معاً، وهكذا لن يضيع واحدنا الآخر: هل معك أصفاد؟

قال وكيل العريف بحزم وهو يتعثر من حول شفيك:

- على كل دركي ان يحمل أصفاده باستمرار. انها خبزنا اليومي ...

اقترح شفيك:

- إذا لتربط نفسينا بها. لم لا نحاول؟.

وبحركة ماهرة من يده ربط وكيل العريف طرف الأصفاذ بمعصم شفيك والطرف الآخر بمعصم يده اليمنى، واصبحا الآن مرتبطين معاً كأنهما توأمان. وها هما يتعثران الآن على الأرض دون ان يستطيعا الانفصال. كان وكيل العريف يجرح شفيك معه الى الأسفل. وحين يحدث هذا كانت الأصفاذ تجرح يديهما حتى قال وكيل العريف أخيراً انه ليس ممكناً لهما الاستمرار على هذه الحال وأن عليه أن يفك الأصفاذ. وبعد محاولات طويلة لا طائل منها لتحرير نفسه وشفيك من الأصفاذ قال متنهداً:

- نحن مرتبطان حتى يأتي ملكوت الرب.

أضاف شفيك وهما يتابعان رحلتها الشاقة:

- آمين!

أصيب وكيل العريف بنوبة كآبة عميقة. وحين وصلا في المساء بعد محن رهيبه الى رئاسة الدرك في «بيسيك»، كان مرهقاً مماماً وقال عند الدرج:
- سيكون الأمر رهيباً الآن. لا نستطيع الانفكاك واحدنا عن الآخر.
وقد كان الامر رهيباً بالفعل حين أرسل الرقيب يستدعي قائد المخفر، النقيب «كونيغ».

كانت اول كلمات النقيب هي:

- تنفس على وجهي!

ثم قال بعد ان استوعب الوضع بأنفه الحاد المجرب:

- افهم الآن الحكاية: روم وكونتوشوفكا وتشيرت وبيرجابينكا،
واورجيوخوفكا وفيشيو وفانيلكوفكا⁽¹⁾.

(1) أنواع مختلفة من الشنايس المصنوعة من ثمر «غيراء الجابلين» او «شجرة السمن» والجوز والكرز والفانيل... الخ. (س. ب).



قال النقيب وهو يلتفت الى مرؤوسه:

- أيها الرقيب. هذا مثال على ما لا يتوجب على الدركي ان يبدو عليه. التصرف بهذا الاسلوب إساءة لا يجدر سوى بمحكمة ميدانية ان تصدر الحكم عليها. انه يربط نفسه بالأصفاد مع شخص متتهك للقانون! ويأتي هنا ثملاً ومخموراً تماماً. يزحف الى هنا كالحيوان! حرره من الأصفاد.

ثم التفت الى وكيل العريف الذي كان يحييه بذراعه الحرة تحية مقلوبة:

- حسناً، ما الحكاية؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني احمل تقريراً.

قال النقيب بحزم:

- سيذهب تقرير عنك الى المحكمة. ايها الرقيب احبسهما كليهما، واجلبهما غداً الى التحقيق، وادرس التقرير الذي جلبه من «بوتيم» بعناية وأرسله الى منزلي.

كان نقيب الدرك في «بيسيك» شخصاً شديد الفضول ودقيقاً في مقاضاة أتباعه وبارزاً في المسائل البيروقراطية.

في مخافر الدرك التابعة لمنطقته لم يكن هناك احد يستطيع ان يقول ان العاصفة قد انقضت، اذ كانت تأتي مع كل بلاغ يوقعه النقيب، الذي كان ينفق النهار كله وهو يصدر التأنيبات الرسمية والنصائح والتخديرات الى المنطقة كلها.

ومنذ أن اندلعت الحرب خيِّمت سُحب سوداء ثقيلة على مخافر الدرك في منطقة «بيسيك».

كان الجو مخيفاً بالفعل، فقد قعقت صواعق البيروقراطية وضربت رقباء الدرك ووكلاء عرفائهم ورجالهم ومستخدميههم. وقد جرى تحقيق انضباطي في كل مسألة تافهة.

كان يقول خلال تفتيشه لمخافر الدرك:

- إذا اردنا أن نكسب الحرب فيجب ان تكون «آ» هي «آ» و«ب» هي «ب» ويجب ان يكون هناك نقطة في وسط «ج» كلما كان هناك «ج».

أحس بنفسه محاطاً بالخيانة من كل جانب وكان على قناعة كاملة بأن لكل دركي في منطقته خطايا تثقل على ضميره نتيجة للحرب، وأن كل شخص في هذا الزمن الهام مذنب من حيث التقصير في أحد الواجبات.

ومن فوق كان يقصفهم بالبلاغات الرسمية التي كانت توضح فيها وزارة الدفاع المحلي بأنه وفقاً لمعلومات وزارة الحربية فإن الجنود من مقاطعة «بيسيك» كانوا يهربون للانضمام الى العدو.

هذا وقد قادوه الى ان يختبر مدى ولاء مقاطعته، وقد بدت له مروعة. كانت النساء من المناطق المجاورة يخرجن لتوديع أزواجهن من الذاهبين الى الحرب وكان يعرف بكل تأكيد ان أزواجهن قد وعدوهن بألا يتركوا أنفسهن يتعرضون للقتل في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية.

كان الأفق الأصفر والأسود قد بدأ يتلبد بغيوم الثورة. في الصرب وفي الجبال الكارباتية كانت كتائب بحالها تنضم الى صفوف العدو: ألا وهي كتائب الفوجين الثامن والعشرين والحادي عشر. كان جنود هذا الفوج الأخير من مقاطعة ومنطقة «بيسيك». وفي الهدوء المتقد الذي يسبق عاصفة الثورة القادمة كان المجندون الجدد من «فودنياني» يصلون حاملين القرنفل المصنوع من الموصلين الرقيق الأسود. الجنود الذاهبون الى براغ مروا في محطة «بيسيك» وردوا لفافات التبغ والشوكولاته التي اهدتها لهم سيدات مجتمع «بيسيك» وهم جالسون في عربات نقل الخنازير.

ثم مرت كتيبة وهي في طريقها الى الجبهة وصاح بعض يهود «بيسيك» بالألمانية «صان الله الامبراطورا يسقط الصربيون!» وقد تلقى هؤلاء ضرباً مبرحاً الى حد انهم اختفوا عن الأنظار لمدة اسبوع.

وبينما كانت هذه الحوادث جارية، مبرهنة على انه حين كانت «صان الله امبراطورنا» تعزف على الأرغن في الكنائس، فإن هذا كان عبارة عن مظهر خادع يدعو للإشفاق وعبارة عن دجل شامل، صدرت عن مخافر الدرك الإجابات المعتادة على لوائح الاسئلة من طراز مخفر «بوتيم» والتي تقول إن كل شيء على افضل ما يرام وانه لم يكن هناك اي هيجان معاد للحرب في اي مكان وان موقف السكان كان من درجة 1/1 والحماسة 1/1 أو/ب».

اعتاد نقيب الدرك ان يقول خلال حملاته التفتيشية:

- لستم دركاً بل شرطة قرى. وبدلاً عن ان تشحذوا انتباهكم بنسبة ألف بالمئة فإنكم تتحولون ببطء الى بهائم.

وبعد ان قدم هذا الاكتشاف في علم الحيوان اضاف:

- تتكاسلون في البيت وتفكرون هكذا: «يستطيعون تقبيل مؤخراتنا بحربهم تلك».

وعادة ما كان يتبع ذلك بلائحة واجبات الدرك البؤساء ومحاضرة من الوضع العام وكيفية السيطرة على كل الامور، بحيث تكون كما يتوجب ان تكون. وبعد هذا الوصف لصورة الكمال الدركي في حلته البهية، والذي يهدف الى تقوية حكم الملكية النمساوية، تأتي التهديدات والتحقيقات الانضباطية وأوامر النقل وحلف اليمين.

كان النقيب على ثقة تامة بأنه يقف هنا متيقظاً، وبأنه يحمي شيئاً ما وأن كل هؤلاء الدركيين من مخافر الدرك الذين هم خاضعون لأوامره عبارة عن عصابة من الأنانيين الكسالي والانغال والمحتالين الذين لا يعينهم سوى البراندي والجعة والنيبذ. وبسبب تدني اجورهم فقد كانوا يقبلون الرشاوى حتى يستطيعوا تناول المشروبات الروحية وإنهم كانوا يدمرون النمسا ببطء إنما بكل يقين. كان الرجل الوحيد موضع ثقته هو رقيبته

الذي يعاونه في قيادة المنطقة، ولكن ذلك الرقيب كان يقول دائماً في الحانة:

«اليوم جعل معتوهنا الأحمق العجوز من نفسه أضحوكة مرة اخرى...».

* * *

درس النقيب تقرير رقيب الدرك في «بوتيم» حول شفيك. كان معاونه رقيب الدرك «ماتيكا» واقفاً امامه ويفكر انه فيما يتعلق به فليذهب النقيب وكل تقاريره الى الجحيم لأنهم كانوا ينتظرونه في مقهى «اوتافا» ليشارك في لعبة «شنايسن»⁽¹⁾.

قال النقيب:

- قلت لك في المرة الماضية يا «ماتيكا» ان اكبر أحمق لعين عرفته هو رقيب الدرك في «بروتيفين» ولكني بناء على هذا التقرير اصرح بأن رقيب «بوتيم» قد بزّه في الحمق. ذلك الجندي، الذي احضره الى هنا وكيل العريف الوغد السكير، والذي ربطه بالأصفاد الى يده كأنهما زوج من الكلاب. ليس جاسوساً بالتأكيد. إنه دون شك فار عادي او فار مبتذل من الجيش. وهنا كتب ذلك الغبي هراء سخيفاً يستطيع اي طفل صغير ان يدرك منذ اول نظرة ان كاتبه سكران كأسقف بابوي.

ثم امر بعد دراسة تقرير «بوتيم» قائلاً:

- احضروا ذلك الجندي الى هنا فوراً. لم أر في حياتي بعد مثل هذا النسيج من الهراء، وفوق ذلك كله يرسل مرافقاً لهذا النغل المشبوه، سكيراً كوكيل عريفه. هؤلاء الناس لا يعرفونني بعد. استطيع ان اكون شيطاناً. وسيظنون انهم يستطيعون أن يخدعوني ولكن ليس بعد ان أجعلهم يبرزون ثلاث مرات يومياً من الخوف.

(1) لعبة ورق تعرف أيضاً باسم «سته وهتون». (س. ب.).

ثم أسهب النقيب في مسألة موقف الدرك في هذه الأيام تجاه الأوامر كلها وكيف انه من الواضح أن كل رقيب حين يكتب تقريره يملؤه بالمزاح حتى تصبح الامور أشد تشوشاً.

وحين ورد التحذير من السلطات الأعلى بإمكانية وجود عملاء مخابرات يتجولون في الأرياف، بدأ رقباء الدرك يفكرونهم بالجملة ولو استمرت الحرب فترة اخرى فسيتحول الأمر كله الى مصح عقلائي ضخم. في المكتب عليهم ارسال برقية الى «بوتيم» يستدعون بها الرقيب الى «بيسيك» في اليوم التالي. كان عليه ان ينفي من رأسه تلك «الحادثة شديدة الأهمية» التي كتب عنها في بداية تقريره.

كانت كلمات الترحيب التي وجهها النقيب الى شفيك هي:

- من أي فوج هربت؟

- لم اهرب من اي فوج.

نظر النقيب الى شفيك ورأى الكثير من رباطة الجأش في وجهه الهادئ.

فسأله:

- كيف حصلت على هذه البزة العسكرية؟

- أجاب شفيك بابتسامة رائعة:

- كل جندي يحصل على بزة عسكرية عندما يستدعى للخدمة. اخدم في

الفوج الواحد والتسعين وأنا لم اهرب من فوجي بل العكس هو الصحيح.

وقد لفظ كلمة «العكس» بتوكيد شديد الى حد ان النقيب لمس تعبيراً

جديراً بالشفقة وسأله:

- ما الذي تعنيه بـ«العكس»؟

أسر له شفيك قائلاً:

- انها مسألة سهلة الى حد هائل. أنا ذاهب للالتحاق بفوجي. وأنا ابحث

عنه ولست هارياً منه. لا أريد أي شيء آخر سوى الوصول إلى فوجي بأسرع ما يمكن. أنا قلق جداً الآن حين أفكر في أنني أبتعد أكثر فأكثر عن تشسكه بوديوفيتسه وأن الفوج بأكمله ينتظرني هناك. لقد أراني الرقيب في «بوتيم» على الخريطة أن بوديوفيتسه تقع إلى الجنوب، ولكنه بدلاً من أن يرسلني إلى هناك وجهني نحو الشمال.

- وهكذا فأنت لا تستطيع أن تجد فوجك؟ هل بحثت عنه؟

شرح شفيك الوضع كله. وقد سمى له «تابور» وكل الأمكنة التي مرّ بها في طريقه إلى بوديوفيتسه: فيليفسكو، كفييتوف، فراج، مالتشيين، تشيجوفا، سيدليتس، هوراجد أوفيتسه، رادوميشل، بوتيم، وشتيكونو، ستراكوتيسه فوليني، دوب، فودنياني، بروتيفين وأخيراً بوتيم مرة أخرى. وبحماسة كبيرة وصف شفيك صراعه مع القدر، وكيف حاول بكل قوته أن يصل إلى فوجه الواحد والتسعين في بوديوفيتسه بغض النظر عن كل العوائق وكيف باءت كل جهوده بالفشل.

كان يتحدث بانفعال فرسم النقيب بقلم رصاصه تلقائياً على قطعة ورق الحلقة المفرغة التي لم يستطع الجندي الطيب شفيك الخلاص منها حين انطلق ليلتحق بفوجه.

قال أخيراً بعد أن أصغى مستمعاً إلى وصف شفيك لمدى انزعاجه بسبب انقضاء كل ذلك الوقت الطويل دون أن يستطيع الوصول إلى فوجه: - كان ذلك جهداً لا يتحمله إلا هرقل الجبار. لا شك أنه كان منظرًا مدهشاً رؤيتك تتجول حول بوتيم المرة تلو الأخرى.

قال شفيك:

- كنت سأصل إلى قرار آنذاك لولا ذلك الرقيب في ذلك الجحر البائس. لم يسألني أبداً عن اسمي أو فوجي وكان الأمر بطريقة ما أو بأخرى شيئاً غامضاً على نحو رهيب بالنسبة إليه. كان عليه أن يوصلني إلى بوديوفيتسه وكانوا سيقولون له في الثكنة أن كنت شفيك الذي يبحث عن فوجه أو أنني

مجرد شخص مشبوه. كنت أستطيع ان أكون الآن مع فوجي منذ اربع وعشرين ساعة وانا اقوم بواجباتي العسكرية.

- ولماذا لم توضح لهم في بوتيم ان الأمر كله عبارة عن غلطة؟

- لأنني لاحظت انه من المستحيل إقناعه بذلك. هذا ما قاله صاحب

الحانة العجوز «رامبا» في فينوهرادي حين أراد شخص ما ان يحصل على شيء منه بالدين: هناك أوقات يكون فيها المرء أصم كالعمود تجاه كل شيء.

لم يتوقف النقيب كثيراً ليتأمل، بل استنتج فقط ان مثل هذه الرحلة الدائرية من قبل رجل أراد الوصول الى فوجه عبارة عن انحطاط إنساني كأشده ما يكون الانحطاط، وأمر بأن ينسخ على الآلة الكاتبة ما يلي آخذاً في الاعتبار كافة الانظمة والتزويقات الخاصة بالرسميين:

«الى القيادة اللامعة للفوج الواحد والتسعين الامبراطوري والملكي مشاة في تشسكه بوديوفيتسه:

يرجى أن تجدوا طيه يوسف شفيك، الذي افاد انه جندي مشاة في الفوج نفسه المذكور أعلاه، وأنه اوقف من قبل مخفر الدرك في بوتيم، منطقة بيسيك، وفقاً لإفادته هناك على اساس انه فار من الخدمة: ويؤكد هذا الشخص المذكور انه كان في سبيله الى فوجه المذكور اعلاه. إن للمرفق طياً جسداً قصيراً ممتكناً ووجهاً وأنفاً متناظرين وعينين زرقاوين ليست لهما ميزات خاصة. وفي الملحق (ب/1) تجدون حساب اطعام المرفق طياً وذلك حتى يتم تحويله اذا تكرتم الى حساب وزارة الدفاع الاقليمي، ويرجى تثبيت استلام المرفق. وفي الملحق (ج/1) تجدون لائحة ضبط بالأغراض العسكرية التي كانت مع الموقوف يوم القبض عليه».

* * *

مرت رحلة شفيك بالقطار من بيسيك الى بوديوفيتسه بسرعة ونشاط. كان مرافقه دركياً شاباً، مستجداً لم تغادر عيناه وجه شفيك وكان خائفاً

حتى الموت من ان يهرب شفيك منه. وقد حاول طوال الرحلة ان يحل مسألة صعبة: «لو اضطررت للذهاب لأعمل الرقم واحد او الرقم اثنين فماذا افعل»؟.

وكان الحل الذي وجدته هو ان يتصرف شفيك معه كوصيف له. وخلال الرحلة كلها كانت عيناه مثبتتين على شفيك، وكلما وصلا الى زاوية او مفترق طرق كان يقول لشفيك وبلهجة عرضية تماماً، كم عدد الطلقات التي تعطى عادة للمرافق، وكان شفيك يرد عليه بأنه مقتنع بأنه لا يوجد دركي يطلق النار على اي شخص في الشارع حتى لا يسبب في وقوع حادثة.

تشاحن الدركي معه ووصلا الى الثكنة على هذه الحالة. كان الضابط المناوب في الثكنة ولليوم الثاني على التوالي الملازم الأول لو كاش. كان يجلس خلف مكتبه دون ان يخامر الظن في شيء حين جلبوا له فجأة شفيك مع الأوراق.

قال شفيك وهو يحييه ويضع تعبيراً رزيناً فوق وجهه:



- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني قد عدت ثانية.

وقد حضر هذا المشهد كله رقيب أول السرية «كوت أتكو»، الذي افاد لاحقاً انه حين قدم شفيك نفسه الى الملازم الأول لوكاش، قفز هذا من مكانه ووضع يديه على رأسه وسقط الى الخلف باتجاه «كوت أتكو»، وانهما بعد ان اعاده الى وعيه، كرر شفيك، الذي كان لا يزال يحيي تحية عسكرية طوال الوقت: «ابلغكم بتواضع يا سيدي اني قد عدت ثانية». ثم أخذ الملازم الأول لوكاش، وهو شاحب الوجه كالأموات، الأوراق الخاصة بشفيك بيدين مرتجفتين، ووقعها وطلب من الجميع مغادرة الغرفة، وقال للدركي إن كل شيء على ما يرام، ثم أقفل باب مكتبه على نفسه مع شفيك.

وهكذا انتهت حملة شفيك في بوديوفيتسه. من المؤكد انه لو منحت حرية الحركة لشفيك لكان قد بادر بالوصول الى بوديوفيتسه بنفسه. ومهما تفاخرت السلطات بأنها هي التي اعادت شفيك الى مكان تأدية الواجب، الا ان هذه مجرد غلطة فحسب. فمع كل طاقة وحيوية شفيك ورغبته في القتال كان تصرف السلطات عملاً اشبه برمي مفتاح صوملة في ورشة اشغال.

* * *

نظر شفيك والملازم الأول لوكاش الواحد الى الآخر في العين مباشرة. كان في عيني الملازم الأول شعاع رهيب شرير، بينما نظر شفيك الى الملازم الأول برقة ولطف، وكأنه ينظر الى أعز الناس عليه بعد ان فقدته ووجده من جديد.

في المكتب كان الهدوء اشبه بهدوء المقابر. بالقرب من الممر أمكن سماع شخص وهو يمشي. كان ذلك متطوعاً ذا ضمير حي من متطوعي العام الواحد، وكان قد اضطر الى ان يبقى في البيت بسبب اصابته بالزكام،

كما تجلى ذلك من الاداء الأنفي لما تعلمه عن ظهر قلب بالألمانية: كيفية استقبال اعضاء الأسرة الامبراطورية في القلاع. كان يمكن للمرء ان يسمع بوضوح ما يلي: «ما ان تقترب تلك الشخصيات المجيدة تطلق نيران المدافع تحية لها من كل الأبراج والتحصينات. وسوف يستقبلها القائد على ظهر جواده والخنجر في يده.

ثم يتقدم.

زمجر الملازم الأول في الممر:

- اخرس! اخرج من هنا الى الجحيم! اذا كنت محموراً فابق في سريرك

في البيت!

كان يمكننا سماع المتطوع المتحمس وهو يتعد، ومن نهاية الممر كان يمكن سماع الصدى الضعيف لصوته الأنفي: «في لحظة قيام القائد بالتحية يتم تكرار اطلاق النار. وسيتم اطلاق النار مرة ثالثة حين تترجل الشخصيات».

ومن جديد راح الملازم الأول وشفيك يحدقان كل في وجه الآخر في صمت، حتى قال الملازم الأول لو كاش أخيراً بتهكم قاسي اللهجة:

- أهلاً بك من القلب يا شفيك في بوديوفيتسه. ان من ولد ليشنق لن يموت غرقاً. هناك أمر بالقاء القبض عليك وغداً ستمثل امام لجنة تأديب الفوج. لن ازعج نفسي بك بعد اليوم. لقد عانيت أكثر من اللازم بسببك وقد نفذ صبري تماماً. حين افكر في اني استطعت ان اعيش كل هذه الفترة الطويلة مع أحق لعين مثلك.

بدأ يذرع المكتب جيئة وذهاباً ثم قال:

- لا، هذا مخيف. الآن أنا مندهش من اني لم اطلق النار عليك بعد. ما الذي كان سيحدث لو فعلت؟ لا شيء اطلاقاً. كانت ساحتي ستبرأ. هل تدرك ذلك؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انني ادرك ذلك تماماً.

- لا تعد يا شفيك الى هرائك، وإلاّ حدث شيء ما بالفعل. في النهاية سيكون علينا ان نضع حداً نهائياً لحيلك. لقد ارتفعت بحماقتك الى درجة اللانهاية بحيث انفجر كل شيء على نحو كارثي.

فرك الملازم الأول لوكاش يديه واستأنف قائلاً:

- لقد انتهى أمرك يا شفيك.

ثم عاد الى طاولته وكتب بضعة اسطر على قطعة من الورق ونادى على الحارس الواقف امام المكتب وأمره ان يقتاد شفيك الى السجن ويعطيه الورقة التي كتب عليها للتو.

وقد اقتيد شفيك عبر الساحة وراح الملازم الأول يراقب بفرح ظاهر السجن وهو يفتح الباب الذي ألصقت عليه لوحة كتب عليها بالأسود والأصفر «معتقل الفوج»، ثم رأى كيف اختفى شفيك خلف الباب بعد لحظة وكيف خرج السجن لوحده من الباب بعد ذلك.

فكر الملازم الأول بصوت مرتفع:



- والآن، حمدا لله، إنه هناك أخيراً.

في ظلام زنزانة ثكنة «مار يانسكه» تم الترحيب بشفيك ترحيباً ودياً من قبل متطوع لعام واحد كان ممتدداً فوق حشية من القش. كان السجين الوحيد هناك وكان الملل يكاد يقتله لليوم الثاني على التوالي. سأله شفيك عن سبب وجوده في السجن فقال انه هناك دون سبب. لقد لكم ملازم مدفعية خطأ في الساحة تحت إحدى الأقواس وكان الوقت ليلاً وكان هو مخموراً. وهو لم يلكمه بالفعل بل اوقع له قبعته فحسب. لقد حدث ان كان ملازم المدفعية واقفاً في الليل تحت القوس وكان في انتظار إحدى المومسات على ما يبدو. كان يعطيه ظهره وظنه المتطوع صديقاً من أصدقائه وهو متطوع آخر اسمه «ماتيرنا فرانتشيك».

قال لشفيك:

- وهو قرادة صغيرة كذاك الرجل تماماً، لذا جئت إليه من الخلف بلطف وأوقعت له قبعته وأنا اقول: «سرفوس يا فرانتسي». وقد كان ذلك النغل احمق لعينا الى درجة أنه صفر فوراً للشرطة العسكرية التي اعتقلنتني فوراً.
قال المتطوع معترفاً:

- ربما حدث خلال تلك المشاحنة ان تم تبادل بعض اللكمات بيننا، ولكني لا أظن أن لهذا تأثيراً على المسألة، حيث إنها مسألة خطأ في التعرف وعلى نحو واضح. والملازم يعترف بأني قلت: «سرفوس يا فرانتسي». بينما اسمه هو «انطون». هذا صحيح، ولكن الشيء الذي يمكن ان يورطني هو اني هارب من المستشفى وإذا ما تبين ذلك من خلال سجل ذلك المستشفى...

ثم استأنف قائلاً:

- حين التحقت بالجيش استأجرت غرفة في البلدة وحاولت ان اجعل نفسي مصاباً بالروماتيزم. لقد سكرت تماماً ثلاث مرات متواليات ورحت

وتمددت في حفرة خارج البلدة والمطر منهمر وخلعت حذائي أيضاً. ولكنني لم امرض. ثم اغتسلت في نهر «المالشه» اسبوعاً كاملاً في كل ليلة، ولكن النتيجة كانت عكس ما اردته. ايها العجوز، لقد اصبحت قوياً قادراً على تحمل المشاق بحيث اني استطعت ان انام في الثلج في ساحة البيت حيث اسكن الليل بطوله، وحين يوقظني الجيران في الصباح تكون قدماي دافتين وكأني ارتدي خفاً من الفرو. لو ان لوزاتي التهبت على الاقل! ولكن لا شيء حدث لي. ولم استطع حتى الإصابة بذلك المرض الجنسي اللعين. كنت اذهب كل يوم الى حانة «بورت آرثر»، اذ كان بعض زملائي قد سبق لهم وأصيبوا بتورم في الخصيتين وتم إخصاؤهم ولكنني بقيت دون ان اصاب بالعدوى. كان حظي سيئاً الى اقصى حد ايها العجوز. ثم قابلت مرة في حانة «الوردة» جندياً ذا عاهة جسدية من «هلوبوكا». وقد طلب مني ان ازوره في إحدى أيام الأحد ووعدني بأنه سيكون لدي في اليوم التالي ساقان ضعيفتان كالتنك. وفي البيت كانت عنده إبرة ومحقنة، والصحيح، اني لم استطع الوصول من «هلوبوكا» الى البيت بعد ذلك. لم يخدعني ذلك الشخص العزيز أبداً. وهكذا حصلت في النهاية على الروماتيزم العضلي. وقد اخذت الى المستشفى فوراً وكان كل شيء رائعاً. وهكذا ابتسم لي الحظ ثانية فقد تم نقل صهري الدكتور «ماساك» من جيجكوف الى بوديوفيتسه، وإليه يعود الفضل في بقائي كل تلك الفترة الطويلة في المستشفى. كان بإمكانه ان يحتال على الأمر لفترة طويلة بحيث اصرف في النهاية على اساس أني غير لائق للخدمة لولا اني خربت القضية كلها بسجل المستشفى ذاك.

كانت الفكرة جيدة ومن الدرجة الأولى. لقد وقعت على سجل كبير ألصقت عليه رقعة تقول: «كتاب المستشفى الخاص بالفوج الواحد والتسعين». كانت العناوين والترويسات كلها صحيحة. وقد كتبت فيه اسماء مزيفة ودرجات الحرارة والأمراض، وفي عصر كل يوم وبعد زيارة

الطبيب كنت انزل الى البلدة وهذا السجل تحت ابطي. عند البوابة كان الحرس من رجال الاندفير وكنت مطمئنا اليهم. كنت اريهم السجل فكانوا يحيونني حتى. ثم ذهبت الى رجل عرفته، وهو موظف في مكتب الضرائب، ولبست ملابس مدنية ومضيت الى حانة، حيث تحدثنا ضمن مجموعة أعرفها مختلف الأحاديث الخيانية. وبعد ذلك أصبحت شديد الثقة بنفسي الى حد أني أصبحت أرتدي الملابس المدنية وأذهب الى الحانات وأتجول في البلدة. ما كنت أعود الى سريري في المستشفى قبل ساعات الصباح الباكر وحين كانت الدورية توقفني في الليل كنت اريها «سجل مستشفى الفوج الواحد والتسعين»، وبعد ذلك لم يعد احد يستوقفني ليسألني أبداً. عند بوابة المستشفى كنت أظهر السجل بصمت وأستطيع دائماً ان اصل الى سريري بسلام. ثم أصبحت جريئاً الى حد اني ظننت أنه لم يعد بإمكان احد أن يفعل بي أي شيء. ثم جاءت تلك الغلطة القاتلة في إحدى الليالي في الساحة تحت القوس، وهي غلطة أثبتت أن الأشجار مهما طالت لن تبلغ السماء أيها العجوز. الاعتزاز بالنفس يسبق السقوط. كل اللحم عبارة عن عشب وكل مجد الإنسان اشبه بزهرة العشب. لقد احرق «ايكاروس» جناحيه. يتمنى الإنسان ان يكون مارداً، وهو لا شيء سوى مجرد براز أيها العجوز. لا تثق بالحظ بل اقرص نفسك صباحاً وليلاً لتذكرها بأن التعقل هو الجزء الأفضل من الشجاعة وأن لا شيء اكثر إيذاء للإنسان من الإفراط. بعد الانغماس في الملذات والعريضة تأتي الصحوة الاخلاقية. هذا هو قانون الطبيعة ايها العجوز. حين افكر كيف أني خربت فرصة ان أعفى من الخدمة الميدانية طول حياتي وان أصرف منها على اساس درجة (ج/3).. ويا لها من خسارة! كنت أستطيع أن أنفق ايامي متسكعاً في مكتب من مكاتب قيادة الاحتياط، ولكن إهمالي اوقعني في شر اعمالتي.

أنهى المتطوع اعترافه كما يلي:

- لقط سقطت قرطاجة. نينوى تحولت الى أنقاض ايها العجوز، ولكن لا يهم! لا ندع اي شخص يظن انهم حين يرسلونني الى الجبهة سأطلق طلقة واحدة. هل سأقدم الى لجنة تأديب الفوج؟ اطرده من المدرسة؟ لتعش القماءة الامبراطورية والملكية! لماذا اجثم في مدارسها وأتقدم الى امتحاناتها؟ طالب ضابط، مرشح، ملازم ثان، ملازم أول! سأبرز عليهم. مدرسة الضباط! التعامل مع اولئك التلاميذ الذين عليهم ان يكرروا مرة اخرى الدورة السنوية! الشلل العسكري. هل يجب حمل البندقية على الكتف الأيسر أو الأيمن؟ كم نجمة يحمل العريف؟ مراجعة لوائح الاحتياطين! يا رب السماء! لا شيء ندخه ايها العجوز! هل تريدني ان اعلمك كيف تبصق على السقف؟ انظر، هكذا. تمنى شيئاً ما وأنت تفعلها وستحصل عليه، اذا كنت تحب شرب الجعة تستطيع ان أنصحك بالماء الممتاز الموجود في الايريق. اذا كنت جائعاً وأردت الاستمتاع بطعامك فأنصحك بـ«نادي المدينة». أنصحك بكتابة الشعر كعلاج للملل. لقد سبق لي وكتبت ملحمة بحالها:

«هل السجان في البيت؟ انه ينام الليل بطوله.

نتحمل الوطأة العظمى في الهجوم حتى نسمع من رئاسة الأركان ان المعركة قد تمت خسارتها.

وهنا لصد هجمة العدو

نبني من الأسرة متراسا.

وحين ينتهي من بناء سوره

تسمع من شفتيه الحكاية:

«لن تسقط قوة النمسا أبداً،

فليحفظ الله سلطتها ومجدها».

ثم استأنف المتطوع السمين قائلاً:

- اترى أيها العجوز؟ فليذهب الى الجحيم كل من يقول ان احترام ملكيتنا العزيزة آخذ بالاضمحلال بين شعبنا. ها هو رجل في السجن ليس معه ما يدخنه و ينتظر ان يقدم الى لجنة تأديب الفوج، ومع ذلك فإنه يقدم اروع مثل على محبته للعرش! انه يعلن البيعة من خلال اغانيه لأرض وطنه الأم الكبير وذلك في لحظة يكون فيها هذا الوطن مهدداً بالضرب من كل الاتجاهات. إنه محروم من حريته، ولكن تتدفق من شفتيه شعارات عن الإخلاص الذي لا يتزعزع: «الموتى يحيونك يا قيصر»، ولكن السجنان نغل. لدينا خدم جيدون لعينون في خدمتنا. في يوم اول امس أعطيته خمسة كراونات ليشتري لي لفافات تبغ وقد قال لي الخنزير اللعين هذا الصباح إن التدخين ممنوع، وإنه سيتورط في المشاكل لو فعل ما طلبته منه وإنه سيعيد لي تلك الكراونات الخمسة حين يستلم راتبه. نعم ايها العجوز، لا اصدق أي شيء في هذه الأيام: «أفضل الشعارات يجري قلبها عاليها سافلها. سرقة المساجين! وفوق ذلك كله يغني النغل اليوم بطوله: «حين يغني الناس تنام دون خطايا. الناس ذوو الخطايا لا اغاني لهم!» حقيقير، زقاي، وغد، خائن!

والآن سأل المتطوع شفيك عما ارتكبه.

قال:

- كنت تحاول ان تجد فوجك؟ لا بد أن تلك كانت مطاردة، حقيقية، تابور، ميليفسكو، كفييتوف، فراج، مالتشين، تشيجوفا، سيدليتس، هوراجد اوفيتس، رادوميشل، بوتيميم، شتييكنو، سترაკونيتسه، فوليني، دوب، فودنياني، بروتيفين، بوتيميم بيسيك، بوديوفيتسه، طريق شائك! وغداً ستقدم الى لجنة تأديب الفوج انت أيضاً؟ يا أخي، سنتقابل معاً في ساحة الاعدام. ثم سيكون لدى عقيدنا شرودر ما يقوقي عليه. انت لا تعرف كم تستثار مشاعره في مسائل الفوج. انه يطير في أرجاء الساحة ككلب بولييسي مسعور ويخرج لسانه كحصان تحميل عجوز محتضر! اما خطاباته

ونصائحه التي يلقيها وهو ييصق فيما حوله طوال الوقت كأنه جمل يسيل لعابه، فلا تنتهي، ويمكنك ان تتوقع انهيار ثكنة ماريانسكه فوراً. اعرفه جيداً لأنني مثلت امام لجنة تأديب فوجه مرة في السابق. لقد التحقت وأنا ارتدي جزمة طويلة وقبعة رسمية عالية سوداء لأن خياطي لم يسلم بزتي العسكرية في الوقت المناسب. وهكذا حضرت الى ساحة الاعتراض في مدرسة متطوعي السنة الواحدة مرتدياً تلك القبعة ووقفت في الصف وسرت مع الآخرين في الجناح الأيسر. سار العقيد شرورد على حصانه باتجاهي مباشرة وكاد يوقعني، ثم زمجر بالالمانية زمجرة كنت تستطيع سماعها من «شومافا»: «يا برق السماء! ما الذي تفعله هنا أيها المدني اللعين؟» فأجبت بلطف اني متطوع لعام واحد وأني أشترك في التدریب. وكان يتوجب عليك أن تراه! لقد خطب مدة نصف ساعة ثم لاحظ للمرة الاولى انني كنت أحيي وأنا مرتد تلك القبعة الرسمية السوداء. وكان كل ما فعله هو الصراخ بأن عليّ ان أتقدم في اليوم التالي الى لجنة تأديب الفوج، وبعد ذلك حث جواده الى حيث لا يدري الا الله وكأنه فارس مجنون. ثم اسرع بجواده مرة اخرى وزمجر واهتاج وضرب صدره وامرني بالخروج فوراً من ساحة التدریب والذهاب الى المحرس. وامام لجنة تأديب الفوج امر باحتجازي اربعة عشر يوماً في الثكنة وجعلني ارتدي بزة عسكرية رثة بغیضة من المستودع وهدد بخلع شارتي العسكرية عني.

استمر ذلك العقيد الأحمق اللعين يهذي قائلاً: «المتطوع لعام واحد أمر نبيل، هؤلاء هم اجنة المجد والكفاءة العسكرية والبطولة. لقد ترقى المتطوع لعام واحد المدعو «فولتات» الى رتبة عريف بعد ان نجح في الامتحانات العادية. ثم تطوع للذهاب الى الجبهة واستطاع أسر خمسة عشر جندياً من جنود العدو. وبينما كان يسلمهم اصيب بقذيفة مزقته الى أشلاء. وبعد خمس دقائق وصل الامر بترقيته الى رتبة طالب ضباط. ويمكنك ان تتوقع مثل هذا المستقبل الباهر والتقدم والأوسمة أنت أيضاً.

بل ويمكن أن ينقش اسمك في الكتاب الذهبي الخاص بالفوج».
 بصق المتطوع ثم قال:

- وهكذا ترى ايها العجوز اي نوع من الأنغال يولدون تحت الشمس.
 لا أهتم اطلاقاً بشارات المتطوعين لعام واحد وكل ما يمنحونك اياه من
 ميزات: «سيدي، أنت أبله». لكم يبدو هذا جميلاً! «سيدي أنت...»،
 لاحظ، انهم لا يتكلمون بابتذال فيقولون: «أبله لعين!» هكذا دون
 «سيدي». وبعد موتك ستحصل على وسام «سيغنوم لا وديس» او الوسام
 الفضي الأكبر: المورّدون الامبراطوريون والملكيون للجنث مع او بدون
 نجوم. عجباً حتى الثور حالته أفضل. فهم يذبحونه في المسلخ ولا يجرونه
 مسبقاً الى ساحة التدريب والتمرين على البنادق.

انقلب المتطوع البدين الى حشية القش الأخرى واستأنف قائلاً:

- من الواضح ان الامور ستنتهار في يوم من الايام، لا يمكن ان تدوم هكذا
 الى الأبد. حاول ان تضخ المجد في خنزير وسينفجر في النهاية. لو ذهبت
 الى الجبهة لكتبت على العربة:



«فوق الحقول سيضعون عظامك.

ثمانية جياذ او اربع دزينات من الاقدام».

فتح الباب وظهر السجنان وقد احضر ربع رغيف عسكري لكلا السجنين وبعض الماء العذب.

وبدون ان ينهض من على حشيته، ناجى المتطوع السجنان بالخطاب التالي:

- كم في زيارة السجناء من نبل وجمال، يا قديس آنييس الفوج الواحد والتسعين! مرحباً يا ملاك الإحسان، يا من قلبه مترع بالرحمة. ظهرك ينحني تحت ثقل الطعام والشراب الذي تجلبه لتخفف من معاناتنا. لن ننسى أبداً الإحسان الذي عرضته علينا. أنت رؤيا مضيئة في سجننا المعتم. همهم السجنان:

- امام لجنة تأديب الفوج سرعان ما سوف تنسى روح دعابتك هذه.

اجابه المتطوع من سريره الخشبي:

- حافظ على رباطة جأشك ايها السجنان العجوز البائس. الأحرى بك ان تقول لنا ما كنت ستفعله لو اضطررت الى حبس عشرة من متطوعي العام الواحد؟ لا تحاول ان تبدو احمق لعيناً الى هذه الدرجة يا سجان ثكنة ماريا نسكه! ستحبس عشرين وتفرج عن عشرة ايها الجرد. يا للمسيح، لو كنت الوزير لكنت جعلتك تشهد حرباً رائعة! هل تعرف القانون الذي يقول ان زاوية السقوط تساوي زاوية الانعكاس؟ اطلب منك شيئاً واحداً: أرني وامنحني نقطة ثابتة واحدة في هذا الكون وسوف أرفع العالم كله عليها وأنت فيه، أيها الأبله المخدوع!

جحظت عينا السجنان، ثم تمايل وخرج مغلقاً وراءه الباب بقوة.

قال المتطوع وهو يقسم قطعة الخبز بعدل الى قسمين:

- جمعية الاسعاف الخيري التعاونية لنقل السجنائين. وفقاً للمادة السادسة عشرة من أنظمة السجن فإنه يتوجب تقديم حصة طعام كاملة للمساجين المحتجزين في الثكنة حتى يصدر عليهم الحكم، ولكن هنا تسود شريعة الغاب: طوبى لمن يلتهم حصص المساجين أولاً.

كان هو وشفيك يجلسان الآن على السرير الخشبي ويمضغان الخبز.

استأنف المتطوع تأملاته فقال:

- يمكنك ان ترى من خلال هذا السجن كيف تحول الحرب الإنسان الى وحش. لا شك ان سجاننا كان قبل استدعائه للخدمة شاباً ذا افكار، ملاكاً ذا شعر أشقر، لطيفاً وإنسانياً، يدافع عن المساكين الذين يقف في صفهم دائماً حين يحدث شجار خلال الاحتفالات بسبب فتاة ما. لا شك ان الجميع كانوا يحترمونه آنذ، اما اليوم... يا الهي كم أتوق الى لكمه على فكه وضرب رأسه على السرير وإلقائه في المراحيض ورأسه يسبق قدميه. وهذا أيضاً برهان، ايها العجوز على كيفية تحويل عقليتك في الجيش الى عقلية متوحشة تماماً.

ثم بدأ يغني:

ولا حتى الشيطان كان يستطيع إخافتها.

حتى قابلت جندياً من سلاح المدفعية...».

ثم استأنف قائلاً:

- أيها العجوز، لو درسنا كل ذلك من وجهة نظر مملكتنا العزيزة لوصلنا الى النتيجة الحتمية التي مفادها أن الوضع هو نفسه كما كان في ايام عم «بوشكين»، الذي كتب عنه بوشكين انه طالما كان شخصاً عزيزاً يحتضر فلم يكن هناك من شيء يمكن فعله سوى:

«التنهد والاستمرار في التساؤل:

متى سيحملك الشيطان أخيراً!».

سمعت خشخشة المفتاح في الباب ثانية وأضاء السجان المصباح النفطي في الممر.

صاح المتطوع:

- شعاع ضوء في العتمة! التنوير يتغلغل في الجيش! ليلتك سعيدة ياسيد سجان، سلم لي على كل ذوي الرتب العليا وامننى لك احلاماً سعيدة، فربما تحلم بأنك أعدت لي تلك الكراوات الخمسة التي أعطيتك اياها لتشتري لي بها لفافات التبغ والتي أنفقتها على شرب نخبي. احلاماً عذبة أياها الوحش العجوز.

كان يمكن سماع السجان وهو يهمهم بشيء ما حول لجنة تأديب الفوج في اليوم التالي.

قال المتطوع:

- طالما أني وحيد مرة أخرى سأقوم الآن بتكريس وقت ما قبل النوم لبيان تفسيرى ومحاضرة حول موضوع ازدياد المعرفة في علم الحيوان لدى ضباط الصف والضباط يومياً. فحتى يتم اكتشاف مواد جديدة حيّة ولقم ذات وعي عسكري لحشو المدفع بها، هناك حاجة الى دراسات عميقة في التاريخ الطبيعى أو الى كتاب «مصادر الازدهار الاقتصادى» الذي نشره «كوتشي» حيث نجد في كل صفحة الكلمات التالية: «قطع، خنزير، لحم خنزير. ولكننا لاحظنا مؤخراً على اية حال ان دوائرنا العسكرية التقدمية قد طرحت تسميات جديدة للمجندين الجدد ففي السرية الحادية عشرة يستعمل العريف «ألتهوف» كلمة «عنزة انغادين» اما وكيل العريف «مولر»، وهو مدرّس الماني من «كاشير سكه هوري»⁽¹⁾ فيسمى المجندين الجدد «خنازير تشيكية قدرة»، كما يستعمل الرقيب الأول «زوندرنومر» عبارة «علاجيم برؤوس ثيران» او «خنازير يور كشاير»، ويعددهم زيادة على ذلك

(1) تسمى بالالمانية برغراينشتاين وهي بلدة في الغابة البوهيمية كانت غالبية سكانها من الألمان. (س. ب.).

بأنه سيسلخ ثم يحشو كل مجند جديد. وهو يفعل ذلك بمعرفة خبير وكأنه سليل عائلة محنطي حيوانات. ان ضباطنا يحاولون بهذه الطريقة ان يغرسوا فينا حب الوطن بواسطة وسائل أيضاً مدرسية خاصة: مثل الصراخ على المجندين الجدد والرقص من حولهم مع اطلاق صرخة حرب تذكر بسكان افريقيا الأصليين حين يوشكون على سلخ ظبي بريء او شوي عجز مبعوث تبشيري ذبح خصيصاً للمائدة. ان تعابير كهذه لا تنطبق على الالمان طبعاً. لو استعمل الرقيب الأول «زوندر نومر» تعبير «قطع خنازير» فإنه يضيف إليه بسرعة كلمة «تشيكية»، حتى لا يغضب الالمان فيحسبون ان الكلام موجه إليهم هم أيضاً. ثم يقلب كل ضباط صف السرية الحادية عشرة اعينهم كما يفعل الكلب البانس الجشع الذي تصل به الامور حدا يتلع معه اسفنجة مغمسة بالزيت ثم لا يستطيع اخراجها من حلقه. سمعت مرة حواراً بين وكيل العريف مولر والعريف ألتهوف حول المراحل التالية من تدريب الرجال على الدفاع المدني. وفي هذا الحوار كانت الكلمات التالية هي الأبرز: «لكمتان على الفك». ظننت في البداية أنهما كانا يتشاجران وان المسلة الالمانية العسكرية قد بدأت تتحطم، ولكني كنت على خطأ مبين. فقد كانا يشيران الى الافراد العاديين فحسب. «حين لا يتعلم خنزير تشيكي كذاك» (كانت تلك هي التعليمات المتميزة التي كان يعطيها العريف ألتهوف) «لا يتعلم بعد ثلاثين انبطح» ان يقف باستقامة كالشمعة فلا يكون كافياً ان تلحمه بضع لكمتان على الفك. اضربه بقوة في معدته بقبضة يدك واجعل قبعته بالقبضة الأخرى تنزل حتى اذنيه وانت تقول: «وراء در!» وحين يستدير ارفسه في مؤخرته وسترى الى اي حد يستقيم معها وكيف سيضحك الملازم «داويرلينغ».

استأنف المتطوع قائلاً:

- والآن عليّ ان احكي لك أيها العجوز شيئاً عن داويرلينغ. ان المجندين الجدد في السرية الحادية عشرة يتحدثون عنه كما تحلم امرأة عجوز وحيدة

تعيش في مزرعة قرب الحدود المكسيكية بقاطع طريق شهير. كان لداورينغ شهرة أكل لحم البشر، انه من أكلة لحم البشر من تلك القبائل الاوسترالية التي تلتهم أفراد القبائل الأخرى إذا ما وقعوا في قبضتها. قصة حياته رائعة. بعد مولده بقليل سقطت مربيته وهي تحمله وقد أصيب كونراد داورلينغ الصغير وقتها بضربة شديدة على الرأس بحيث تستطيع حتى اليوم ان ترى انه مسطح وكان مذنباً اصاب القطب الشمالي. لقد كان الجميع يشكون في قدرته على القيام بأي شيء حتى لو عاش بعد الارتجاج الدماغى الذي أصابه. والده فحسب، وكان عقيداً في الجيش. لم يفقد الأمل وقال انه لا يهتم اطلاقاً لأن داورلينغ الصغير سيلتحق طبعاً بالجيش حين يكبر. وقد استطاع داورلينغ الشاب الالتحاق بمدرسة الضباط في هاينبورغ بعد كفاح رهيب مع اربع سنوات في المدرسة التقنية الدنيا كان يدرسه فيها اساتذة خصوصيون من النوع الذي يحشو دماغ الطالب بالمعلومات حشواً بحيث يجتاز الامتحانات. وقد شاب شعر الاستاذ الأول منهم قبل الاوان ثم اصيب بالجنون، وأصيب الثاني باليأس الى حد انه أراد القفز من فوق برج القديس ستيفن في فيينا. وفي مدرسة الطلاب الضباط لم يكثر ثواب اطلاقاً بالتعليم السابق لأنه لا يكون عادة مناسباً للضباط النمساويين النظاميين. كان مثالههم العسكري الأعلى هو رقيب التدريب البروسي. الثقافة تسمو بالنفس وهذا غير مجد في الجيش. كلما كان الضباط اخشن كلما كان ذلك أفضل. في مدرسة الطلاب الضباط لم يكن داورلينغ ناجحاً أبداً حتى في تلك المواضع التي كان لكل طالب معرفة سطحية بها. وحتى هناك كان يمكن ملاحظة أن رأسه قد أصيب بصدمة قوية في الطفولة. كانت اجاباته في الامتحانات تكشف بفصاحة عن ذلك الحادث التعيس. فقد كانت متميزة بغباؤها وتعتبر امثلة اصيلة نموذجية على الحماسة الشديدة والاضطراب العقلي، بحيث إن الاساتذة في مدرسة الطلاب الضباط ما كانوا يسمونه سوى «صديقنا الغبي». كان غباؤه باهراً الى حد انه برر له

الأمل بأنه بعد عدد من العقود القليلة قد يصل الى «الأكاديمية العسكرية التيريزية» التابعة لوزارة الحربية. وخين اندلعت الحرب عيّن كل الطلاب الضباط كملازمين واستطاع كونراد داويرلينغ ان يضع اسمه على لائحة طلاب ضباط هاينبورغ الذين تمت ترفيتهم وهكذا وجد طريقه الى الفوج الواحد والتسعين.

توقف المتطوع لبرهة ثم استأنف الحديث قائلاً:

- لقد نشرت وزارة الحربية كتاباً تحت عنوان «التدريب أم التعليم» قرأ فيه داويرلينغ ان الإرهاب جوهرى بالنسبة للجنود. يكون التدريب ناجحاً بقدر درجة الارهاب المستعملة. وفي هذا الخصوص كان داويرلينغ ناجحاً باستمرار. ولتجنب الاضطرار الى الإصغاء الى صراخه كانت سرايا بأكملها من الجنود تشكو من المرض: وهي ممارسة لم تكن تلاقي النجاح دائماً. كان كل من يشكو من المرض يتلقى عقوبة ثلاثة ايام من «المعاملة الصارمة» هل تعرف بالمناسبة ما تعنيه «المعاملة الصارمة؟» انهم يطاردونك في ساحة التدريب طوال النهار وبعد ذلك يحبسونك طوال الليل، وهكذا حدث انه لم يعد احد يتقدم من سرية داويرلينغ ليشكو من المرض. وكان اولئك الذين يشكون يقبعون في السجن بكل بساطة. كان داويرلينغ يمارس في ساحة والتدريب لغة الثكنات المعهودة مبتدئاً بكلمة «خنزير» ومنتهاً بذلك اللغز «علم - الحيواني» الغامض: «كلب الخنزير». ولكنه كان ليبرالياً جداً في الوقت نفسه اذ كان يترك للجنود حرية القرار فيقول: «ما الذي تريده ايها الفيل، بضع لكومات على الأنف ام ثلاثة ايام «معاملة صارمة؟» واذا ما اختار احدهم «المعاملة الصارمة» كان يتلقى لكمتين على أنفه أيضاً، وكان داويرلينغ يفسّر ذلك قائلاً: «ايها العجبان اللعين، اعتقد انك خائف على خطمك، أليس كذلك؟ ما الذي ستفعله لاحقاً حين تكون تحت قصف المدفعية الثقيلة؟» ومرة حين قلع عين احد المجندين المستجدين صرّح بالالمانية: «تباً! لماذا كل هذه الضجة حول

نغل سيموت على اية حال؟» وكان الفيلد مارشال كونراد فون هوتسندورف قد اعتاد ان يقول الشيء نفسه: «على كل الجنود ان يموتوا آجلاً أم عاجلاً». وكان لدى داويرلينغ هواية مفضلة تتجلى في استدعاء الجنود التشيكيين العاديين والقاء محاضرة عليهم حول مهمات النمسا العسكرية، فيفسر لهم المبادئ العامة للتدريب العسكري، من تقييد الأيدي الى الشنق والقتل بإطلاق النار. في بداية الشتاء قبل ذهابي الى المستشفى كنا نتدرب في ساحة التدريب الى القرب من السرية الحادية عشرة، وما ان حان موعد الاستراحة حتى ألقى داويرلينغ خطاباً على المجندين التشيكيين المستجدين، فقال: «أعرف انكم حثالة وان عليّ أن اطرد من رؤوسكم كل ذلك البراز التشيكي. باللغة التشيكية لن تستطيعوا بلوغ اي شيء حتى المشنقة. ان قائدنا الأعلى الماني أيضاً. هل تسمعون؟ اجراس الجحيم! انبطاح!» انبطح الجميع ارضاً، وبينما كانوا منبطحين راح داويرلينغ يسير امامهم ويخطب قائلاً: «الانبطاح يعني الانبطاح، حتى لو مزقتم انفسكم الى اشلاء في الطين أيها اللصوص. لقد وجد «الانبطاح» حتى في روما القديمة، ففي تلك الايام كان على كل شخص ان يلتحق بالجيش ويخدم فيه من سن السابعة عشرة وحتى الستين. كان عليهم ان يخدموا ثلاثين عاماً في الميدان دون ان يسمح لهم بالتمرغ في الثكنات كالخنازير. وفي ذلك الوقت أيضاً كانت هناك لغة واحدة للجيش وقيادة واحدة. لو حاول الرجال ران يتكلموا باللغة الاترورية⁽¹⁾ لأذاقهم أولئك الضباط الرومان طعم الجحيم، وأنا أيضاً اطلب منكم أن تجيبوا بالالمانية وليس بلغتكم المبهمة تلك: ألا ترون كم هو جميل ان تتمددوا في الطين؟ ولكن تصوروا فحسب ما الذي سيحدث لو ان احدكم رفض التمدد هناك وحاول النهوض! ما الذي كنت سأفعله؟ كنت سأكسر له فكاه حتى أذنيه، لأن ذلك سيكون تصرفاً يدل على التمرد والعصيان والمعارضة والتقصير في اداء الواجب

(1) لغة ايطالية قديمة. (المترجم).

بالنسبة للجندي الجيد، وخرقاً للنظام والانضباط واحتقاراً للتعليمات الرسمية عموماً. ومن هذا يتبع ان نغلا كهذا سيكون مصيره المشنقة ومصادرة كل مطالبه بالاحترام والحقوق المدنية».

صمت المتطوع ثم استأنف ثانية بعد ان فكر دون شك خلال تلك الفترة في موضوعه، ألا وهو وصف شروط الحياة في الثكنة:

- كان تحت امره النقيب آدميتشكا. كان لا مبالياً على الاطلاق. وحين يجلس في المكتب كان يحرق مشدوهاً في الفراغ كمجنون غير مؤذ وعلى وجهه تعبير اشبه بمن يود ان يقول: «لا اهتم البتة». في لجنة تأديب الكتيبة الله وحده يعرف ما الذي كان يفكر فيه. لقد تقدم مرة جندي من السرية الحادية عشرة الى لجنة تأديب الكتيبة شاكياً من أن الملازم داويرلينغ قد ناداه في الشارع في إحدى الأمسيات مسمىاً إياه بالخنزير التشيكي. كان هذا الجندي مجلد كتب في الحياة المدنية وهو عامل تشيكي يتمتع بوعي وطني. قال النقيب آدميتشكا بهدوء، فقد كانت تلك عادته: «هكذا إذاً. قال لك البارحة في الشارع. والآن سنرى ان كان مسموحاً لك الخروج من الثكنة. انصرف» بعد فترة من الزمن استدعى النقيب آدميتشكا الرجل الذي تقدم بالشكوى وقال له ثانية بالهدوء نفسه: «لقد تم التحقق من انه كان مسموحاً لك الخروج في ذلك اليوم من الثكنة حتى الساعة العاشرة مساءً. إذاً لن تعاقب. انصرف!» بعد ذلك ايها العجوز، بدؤوا يقولون عن النقيب آدميتشكا انه يتمتع بحس العدالة، وهكذا ارسل الى الجبهة وعين في مكانه الرائد فنتسل». وكان هذا شيطاناً فيما لو حاول البعض اثاره النعرات بين مختلف الجنسيات. كان هو الذي انتقد الملازم داويرلينغ وعنفه بشدة.

إن للرائد فنتسل زوجة تشيكية وهو يخشى كثيراً النعرات بين الجنسيات. فمنذ سنوات بعيدة حين كان يخدم كنقيب في «كوتناهورا» سكر مرة وشم نادلاً في احد الفنادق وسماه بـ«الحنثالة التشيكية». دعني

اذكر لك أن الرائد فنتسل لا يتلکم سوى التشيكية في اوساط المجتمع، وكذلك في البيت، وان أبناءه يدرسون بالتشيكية. ولكن حدث ما حدث مع ذلك ونطق النقيب آنذاك بتلك الكلمات في الفندق ونشر ذلك في الصحف المحلية. ثم قام احد نواب البرلمان في فيينا باستجواب وزير الحربية حول تصرف النقيب فينتسل في الفندق. انزعج النقيب فينتسل من هذا اذ انه حصل في ذلك الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه ضمن البرلمان مناقشة تقييمات الجيش، وها قد وصل في وسط ذلك كله النقيب فينتسل المخمور من كوتناهورا. علم النقيب فينتسل لاحقاً أن ذلك كله كان عملاً مدبراً من «زيتكو»، احد الطلاب الضباط الشرطيين من المتطوعين لعام واحد، والذي أرسل تقريراً الى الصحيفة بسبب وجود نزاع بينه وبين النقيب فينتسل منذ تلك الحفلة التي بدأ فيها زيتكو في حضور فينتسل بالتفكير بصوت عال قائلاً ان على المرء أن ينظر فحسب الى الطبيعة الأم ليلاحظ كيف تغطي السحب الأفق وكيف تبرز الجبال عالية عند خط الأفق وكيف ترعد الشلالات في الغابات وتشدو الطيور. قال الطالب الضابط الشرطي «زيتكو»: «عليك ان تساءل فحسب: ما هي قيمة اي نقيب بالمقارنة مع الطبيعة السامية؟ إنها قيمة الصفر بالمقارنة مع اي طالب ضابط شرطي». ولأن كل الضباط كانوا في تلك اللحظة مخمورين تماماً، أراد النقيب فينتسل ان يضرب الفيلسوف التعيس الحظ زيتكو كما يضرب البغل، وهكذا ازدادت العداوة بينهما وراح النقيب يتنمر على زيتكو كلما استطاع الى ذلك سبيلاً بسبب ان خطابة زيتكو اصبحت مترعة بالأمثال. وهكذا اصبحت جملة «ما هي قيمة النقيب فينتسل بالمقارنة مع الطبيعة السامية؟» شهيرة في كل انحاء «كوتنا هورا». وقد اعتاد النقيب فينتسل ان يقول: «يا للنعلى! سأجعله يشنق نفسه!» ولكن زيتكو عاد الى الحياة المدنية والى دراسة الفلسفة. أن الرائد فينتسل أصبح مصاباً بمرض كره كل الضباط الأقل رتبة. حتى رتبة الملازم الأول ما كانت تمثل وقاء ضد غضبه وهذره.

فكيف هي الحال مع الطلاب الضباط والمرشحين؟ يقول الرائد فينتسل: «سأسحقهم كأنهم حشرات!» وويل لذلك الملازم الذي يشكو احداً الى لجنة تأديب الكتيبة لأي سبب تافه. ففي نظر الرائد فينتسل لا اهمية سوى للإساءة الكبرى الرهيبة: مثلاً ان ينام الجندي خلال حراسة مستودع الذخيرة او حين يفعل شيئاً ارهب كالنوم لدى التسلل ليلاً فوق سور ثكنة ماريا نسكه والسماح بالقبض عليه من قبل دورية من الاندفير او سلاح المدفعية: باختصار اشيء رهيبة من النوع الذي يشكل لطفة فوق جبين الفوج الناصع. سمعته مرة يزمر في الممر: «كرمي للمسيح!» هذه ثالث مرة تمسكه بها دورية اللاندفير. ارموا بالحيوان الزاحف في السجن فوراً! على النغل ان يبعد فوراً عن الفوج الى قافلة التموين ليحمل الروث الى مكان ما. انه لم يقاتلهم حتى! انهم ليسوا بالجنود أولئك الانغال بل ماسحو ممرات! لا تطعموه اي شيء الى ما بعد الغد. خذوا حشية القش وارموه في الحبس الانفرادي. لا تركوا له حتى البطانية، ذلك الجرذا!» والآن تصوّر يا صديقي انه بعد ان أتى الرائد الى هنا مباشرة، قدّم الملازم داويرلينغ الى لجنة تأديب الكتيبة رجلاً ادعى انه تعمد ألا يحييه وهو راكب عربة اجرة في الساحة يوم الاحد الماضي وكان مع سيدة شابة! ووفقاً لإفادات ضباط الصف، فقد كانت لجنة تأديب الفوج في تلك المناسبة اشبه بيوم الدينونة. ركض الرقيب الأول الذي يعمل في ديوان الكتيبة الى الممر حاملاً السجلات وزمجر الرائد فينتسل على داويرلينغ: «لن اسمح بهذا الهراء اللعين. بالعاصفة السماء الرعدية! هذا ممنوع بتاتاً! هل تعرف ايها الملازم ما هي لجنة تأديب الكتيبة؟ ليست لجنة تأديب الكتيبة حفلة مدرسة يوم الاحد! كيف سيستطيع ان يراك بحق الجحيم وانت في عربة عبر الساحة؟ ألا تعرف انك قد تعلمت ان الضباط لا يمكن ان يحيوا إلا عندما يتقابلون مع الجنود، وهذا لا يعني ان على الجندي ان يدوم كالبلبل من اجل ان يتعقب ملازماً يركب عربة عبر الساحة. امسك عليك لسانك! لجنة تأديب

الكتيبة مؤسسة شديدة الجدية. لو سبق للجندي وقال لك انه لم يرك لأنه كان يحييني أنا في تلك اللحظة بالذات وانه قد أدار عينيه باتجاهي، هل تفهم، «باتجاهي» أنا، الرائد فينتسل ولو قال انه لم ينظر الى الخلف باتجاه العربية التي كانت فيها، عندها اعتقد ان عليك ان تصدقه. في المرة التالية ارجو الا تزعجني بمثل هذه الترهات». ومنذ ذلك الحين تبدل داويرلينج.

ثناء المتطوع وقال:

- علينا ان ننام جيداً قبل المثل امام لجنة تأديب الفوج، لقد أردت ان أحكي لك فحسب شيئاً عن جو هذا الفوج، فالعقيد شرودر لا يحب الرائد فينتسل. انه على اية حال شخص مضحك. اما النقيب ساغر المسؤول عن مدرسة المتطوعين، فيرى في شرودر النموذج المثالي للجندي، رغم انه لا شيء في هذا العالم يخيف العقيد شرودر مثل فكرة اضطراره الى الذهاب الى الجبهة. ساغر زبون شديد الذكاء بالفعل ويكره الضباط الاحتياطين كما هي حال شرودر. فهو يسميهم «النتن المدني». كما أنه يعتبر المتطوعين حيوانات متوحشة عليك ان تحولها الى اشخاص آليين عسكريين وتخطط النجوم على ستراتهم وترسلهم الى الجبهة لتتم تصفيتهم بدلاً عن الضباط النبلاء الذين يتوجب الاحتفاظ بهم بهدف المحافظة على النسل الأصيل. كل شيء في الجيش يفوح برائحة الفساد.

وهنا غطى نفسه بالبطانية ثم استأنف:

- وحتى الآن فإن الجماهير المفتوحة الأعين لم تسمع ذلك بعد. انهم يسمحون لأنفسهم ان يتحولوا الى لحم مفروم وأعينهم جاحظة، ثم يهمسون حين يصابون برصاصة «أماها!». الابطال لا وجود لهم، بل هناك قطع جاهز للذبح، والنजारون موجودون هناك في مقر الأركان العامة. ولكن في النهاية سيتمرد الجميع ويتحول كل شيء الى خراب. يعيش الجيش! ليلتك سعيدة!

صمت المتطوع. ثم بدأ يتقلب تحت البطانية ثم سأل:

هل أنت نائم أيها العجوز؟

أجاب شفيك من السرير الآخر:

- لا، بل افكر.

- بماذا ايها العجوز؟

- بالوسام الفضي الأكبر للشجاعة الذي منح في بداية الحرب لصانع خزائن من شارع فافروفا في فينوهراي. واسمه مليتشكو. لانه كان أول جندي في فوجه يفقد ساقه بقذيفة. وقد ركبت له ساق اصطناعية وبدأ يتفاخر بوسامه هذا في كل مكان ويقول انه كان أول مقعد في الفوج. وقد جاء مرة الى مقهى «ابولو» في فينوهراي واختلف مع الجزائريين من العاملين في المسلخ. وفي الغابة قطعوا له ساقه الاصطناعية وضربوه بها على رأسه، لم يكن الرجل الذي قطع له ساقه يعرف انها اصطناعية وقد أغمي عليه من الرعب، وفي مخفر الشرطة اعادوا ساق مليتشكو الى مكانها ولكنه صب جام غضبه على وسامه الفضي الأكبر وذهب ليرهنه في متجر الرهونات فكان أن القي القبض عليه وعلى الوسام. وكانت النتيجة بعض الإزعاجات. لقد قدم الى محكمة شرفية خاصة بالجنود المشوهين وقد حكمت عليه ان يحرم من وسامه الفضي وساقه أيضاً في وقت لاحق.

- ما الذي تعنيه؟

- أمر شديد البساطة. وصلت لجنة ذات يوم واعلمته انه لا يستحق حمل ساق اصطناعية. ثم فكوا براغيها وأخذوها ورحلوا. او من المضحك جدا أيضاً حين يستلم الناجون من رفاق احد قتلى الحرب وساماً كذلك الوسام وقد أرفق به اهداء يقول إن الوسام قد أعيد لهم ليلقوه في مكان بارز. في شارع بوجيتيخوفا في فيشيهراد. قام أب غاضب، ظن ان السلطات كانت تسخر منه، بتعليق الوسام في المرحاض وقام شرطي يشاركه في المرحاض

في البناء نفسه بالتبليغ عنه على انه يمارس نشاطات خيانية، وعانى الرجل المسكين كثيراً.

قال المتطوع:

- من هذا يمكننا أن نستنج أن اللحم كله كالحشيش وأن كل مجد الإنسان كزهرة الحشيش. وها هم قد نشروا الآن في فيينا «مذكرات متطوع لعام واحد» وفيه قصيدة مذهلة مترجمة الى التشيكية:

«كان هناك مرة متطوع شجاع

منح حياته لأجل وطنه العزيز:

وهكذا أظهر كيف يتوجب على الرجل أن يحارب من أجل بلده دون خوف أو وجل.

يحملون جثمانه إلى المدفع .

الصلوات ترتفع إلى السماء، الواحدة إثر الأخرى.

بينما يبتون وساماً على صدر الرجل الذي سقط في سبيل ملكه» قال المتطوع بعد صمت قصير:

- وهكذا اظن ان معنوياتنا الحربية في حالة من التراجع، لذلك أقترح عليك ايها العجوز، ان نقوم في عتمة الليل وصمت سجننا، بإنشاد اغنية حول المدفعي «يابوريك». فمن شأن هذا ان يرفع المعنويات الحربية. ولكن علينا ان نصرخ بأعلى صوت نستطيعه حتى يسمع في كل انحاء ثكنة ماريانسكه. واقترح بالتالي ان نتمركز قريباً من الباب.

ومن السجن سرعان ما هدرت زجرة قوية جعلت نوافذ الممر تهتز:

«وقد وقف قرب مدفعه

ولقمه ولقمه ولقمه.

ووقف قرب مدفعه،

ولقمه

في خضم المعركة

اطارت قذيفة ذراعيه.

ولكنه بقي حيث كان

ولقمه ولقمه ولقمه،

ووقف قرب مدفعه

ولقمه».

في الساحة كان يمكننا سماع خطوات وأصوات.

قال المتطوع:

- هذا هو السجنان ومعه الملازم الأول «بليكان» الذي هو الضابط

المنابوب اليوم. انه ضابط احتياطي وصديق لي من «النادي التشيكي». في

الحياة المدنية هو اخصائي في الرياضيات في شركة تأمين. سنحصل على

لغافات تبغ منه. هيا نستمر في الصراخ.

ومن جديد كان يمكن سماع: «ووقف قرب مدفعه...»

حين فتح الباب صاح بهم السجنان بقسوة وقد أربكه على نحو واضح

وجود الضابط المنابوب:

- هذا ليس معرضاً للوحوش!

اجاب المتطوع:

- اعذرني، هذا هو الفرع المحلي «رودولفينوم»، وهي فرقة موسيقية

مهمتها مساعدة المساجين. لقد أنهينا للتو البند الاول في البرنامج:

«سيمفونية الحرب».

قال الملازم الأول بليكان وهو يتظاهر بالشدة:

- وضعا حداً لهذا!! أظن انكما تعرفان انه من المفروض ان تكونا في



السريير الساعة التاسعة وألا تحدثا اي ضجة. ان البند الاول من برنامجكما الموسيقي يمكن سماعه حتى الساحة.

قال المتطوع:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اننا لم نتدرب عليه على النحو الصحيح، وان كان هناك اي سوء في التناغم.

قال السجان وهو يحاول ان يجعل الضابط يتحامل على عدوه:

- انه يفعل ذلك كل مساء. وعلى وجه الإجمال فإنه يتصرف على نحو لا يدل على الذكاء اطلاقاً.

قال المتطوع:

- من فضلك يا سيدي أود ان اتحدث إليك على انفراد. فليتنظر السجان خارجاً.

حين تم ذلك قال المتطوع بلهجة تدل على الألفة:

- حسناً، هيا اخرج لفافات التبغ يا فرانتا... «سبورتكي» فقط؟ أنت ملازم أول وليس معك ما هو افضل؟ حسناً إذاً. لا بأس مؤقتاً، شكراً. وكبريت أيضاً.

قال المتطوع باحتقار بعد أن رحل الملازم الأول:

- سبورتكي! حتى في أحلك المحن فإن على الإنسان ان يبقي معنوياته عالية. هيا دخن ايها العجوز للمرة الأخيرة. غدا تنتظرنا الدينونة.

لم ينس المتطوع ان يغني قبل ان ينام: «الجمال والوديان والجروف السامقة اصدقائي. ولكنها لا تستطيع ان تعيد إلينا ما أحبيناه مرة، حبيبتي التي اعشقها...».

ان كان المتطوع قد وصف العقيد شرودر على انه متوحش، فقد كان على خطأ لأن العقيد شرودر كان يتمتع بحس جزئي بالعدالة كان يعبر عنه

بوضوح بعد تلك الليالي التي يكون فيها سعيداً مع رفقته التي يقضي معها الليالي في الفندق. ومتى لم يكن سعيداً؟

وبينما كان المتطوع ينتقد بشدة شروط الحياة في الثكنة، كان العقيد شرودر يجلس في الفندق بصحبة الضباط ويستمع الى الملازم الأول كرتشمان، الذي عاد من الصرب بساق جريحة (كانت احدى البقرات قد عضته)، وكان يروي كيف رأى الهجوم على المواقع الصربية من المركز الذي عين فيه:

- أجل، ها هم ينطلقون من خنادقهم الآن. وعلى امتداد كيلو مترين يتسلقون حواجز الأسلاك الشائكة ويندفعون باتجاه العدو والقنابل اليدوية في أحزمتهم، وأقنعة الغاز والبنادق فوق اكتافهم. مستعدون لإطلاق النار، مستعدون للهجوم. يسمع صفير الطلقات. احد الجنود ممن قفزوا خارج الخنادق يسقط، كما يسقط آخر فوق الاستحكام الذي تم تفجيرها، ويسقط ثالث بعد خطوات قليلة، ولكن رفاقه يستمرون في الاجتياح وهم يصرخون «هوراه!» عبر الدخان والبارود. ويروح العدو يطلق النار من كل الجوانب، من الخنادق والحفر التي خلفتها القذائف، ويوجه نيران مدافعه الرشاشة باتجاهنا. ومن جديد يسقط الجنود. تحاول احدى المجموعات الوصول الى مدفع رشاش معاد. يسقط افرادها أيضاً. ولكن رفاقهم كانوا قد سبق وتقدموا نحو الأمام. هو زاه! يسقط ضابط. لم نعد نسمع صوت الطلقات. هناك شيء مخيف ينتظرهم. ومن جديد تسقط مجموعة كاملة ويمكن سماع المدافع الرشاشة للعدو: راتاتاتا.. وهناك يسقط... اعذروني، لا أستطيع الاستمرار، لقد سكرت...

ثم صمت الضابط ذو الساق الجريحة وظل جالساً ببلادة على كرسيه. ابتسم العقيد شرودر بكياسة وراح يستمع الى النقيب «سبيرا» الجالس قبالة والذي ضرب بالطاولة بقبضته وكأنه يريد ان يبدأ شجاراً ويكرر شيئاً لا معنى له بل ومن المستحيل استنتاج الغرض منه او ما يريد ان يقوله:

- ارجو ان تفكروا جيداً في الموضوع. لقد عبأنا تعبئة كاملة كلاً من الفرسان البروسيين النمساويين والانديفيرا الاوهلان النمساويين ورماة البوسنة، والرماة النمساويين والمشاة النمساويين والمشاة المجرين والقناصة الامبراطورية التيرولية ومشاة البوسنة ومشاة الهونفيد المجرين ووحدات الفرسان الخفيفة من المجرين ووحدات الفرسان الخفيفة من اللانديفير، والرماة الراكبين، والفرسان «الدراغون» والفرسان البروسيين والمدفعية وقوافل التموين والهندسة العسكرية والوحدات الطبية ومشاة البحرية. هل تفهمون؟ وبلجيكا؟ الوحدات المجندة الأولى والثانية من الجيش العملياتي، والثالثة تعتنى بالخدمة في القاعدة...

ضرب النقيب سبيرا الطاولة بقبضته واستأنف قائلاً:

- اللانديفير ينفذ واجباته في القاعدة في وقت السلم.

كان ضابط شاب الى القرب منه يحاول جاهداً اقناع العقيد بأنه جندي متمرس ويؤكد بصوت مرتفع لجارته ما يلي:

- على المصايين بالسل ان يرسلوا الى الجبهة. فهذا يفيدهم من ناحية، اما من ناحية أخرى فإنه من الأفضل ان يقتل المرضى لا الأصحاء.

ابتسم العقيد، ولكنه عبس فجأة وقال وهو يلتفت الى الرائد فيتنسل:
- يدهشني ان الملازم الأول لوكاش يتجنب صحبتنا. منذ جاء الى هنا لم يجلس معنا ولا حتى مرة واحدة.

قال النقيب ساغتر بلهجة الاحتقار:

- انه ينظم الشعر. ما ان وصل الى هنا حتى وقع في حب زوجة المهندس شرايتر التي قابلها في المسرح.
تجهم وجه العقيد وحدث في الفراغ ثم قال:

- لقد سمعت انه يستطيع غناء الدوبيت⁽¹⁾.

أجاب النقيب ساغتر:

- أجل في مدرسة الطلاب الضباط اعتاد ان يسألنا بكثير من دوبيتاته، وهو يعرف الكثير من القصص الجيدة، انها رائعة. لا اعرف لماذا لا ينضم الى مجالسنا.

هز العقيد رأسه بحزن وقال:

- اليوم، لم تعد الروح الصحيحة لرفاق السلاح تسود علاقانا. في الايام الغابرة، كما اذكر، كان كل واحد من ضباطنا يحاول ان يساهم نوعاً ما بتسليتنا في نادي الضباط. كان احدهم، على ما اذكر، وهو الملازم الأول «دانكل» يتعري من كل ملابسه ويتمدد على الأرض ثم يلصق ذيل سمكة الرنكة في مؤخرته ويقدم لنا عرضاً عن عروس البحر. كما كان هناك الملازم الأول «شلايزنر»، الذي كان يستطيع ان يهز أذنيه ويصهل كالحصان ويقلد مواء القطط وأزيز النحلة الكبيرة الطنانة. كما اذكر نقيباً باسم «سكوداي» الذي كان يجلب صديقاته الى قاعة الطعام كلما طلبنا منه ذلك. كن ثلاث اخوات وكان قد دربهن كما تدرّب الكلاب. كان يضعهن فوق المائدة ويبدأن بالتعري في تلك الاثناء. كما كانت معه عصا المايسترو من ذلك النوع الصغير وكان بالفعل، وهو ما يشرفه، قائد فرقة موسيقية رائعة. وما هو الذي لم يكن يفعله بهن على الاربيكة! ومرة ادخل حوض استحمام ممتلئ بالماء الساخن الى منتصف القاعة وكان على كل واحد منا بدوره ان يخلع ملابسه ويستحم مع اولئك الفتيات الثلاث. وكان يصوّرنا.

وهنا ابتسم العقيد شرودر بنشوة وهو يستذكر ذلك ثم استأنف وهو يتلمظ بشهوانية ويتلوى في كرسيه:

- ويا لها من رهانات تلك التي كنا نلعبها في الحوض. اما اليوم؟ هل هناك من مرح على الإطلاق؟ وحتى مغني الدوبيتات ذاك لا يظهر. وضباط اليوم من

(1) مقطع شعري مؤلف من بيتين. (المترجم).

الشباب لا يعرفون حتى كيف يسكرون. لم تبلغ الساعة الثانية عشرة بعد، وهناك حول هذه المائدة، كما ترون، ثلاثة من بين خمسة اشخاص قد سبق لهم وثلثوا. مرت علينا اوقات كنا نجلس هنا يومين متواصلين وكلما شربنا كنا نصحو اكثر. كنا نستمر في صب الجعة والبيذ والليكور في أحشائنا دون توقف. واليوم لم تعد الروح العسكرية الحقيقية موجودة. والله وحده يعرف السبب. لا نكات، بل حديث ابدي لا نهاية له. اصغوا الآن الى تلك المائدة المجاورة ولاحظوا كيف يتحدثون عن اميركا.

من الطرف المقابل للمائدة كان يمكن سماع صوت رزين وهو يقول: «لا يمكن لأميركا ان تتدخل في الحرب، فالأميركيون والبريطانيون اعداء حقيقيون. ليست اميركا مستعدة للحرب». تنهد العقيد شرورد وقال:

- هذا هو هذر الضباط الاحتياطين. انه يجعلك تصاب بالغثيان. البارحة فحسب كان شخص كهذا جالساً في احد المصارف وهو يدون شيئاً ما، او يصنع أكياساً ورقية او يبيع التوابل والقرفة وطلاء الاحذية، او يحكي للأطفال في المدرسة ان الجوع يدفع بالذئاب الى خارج الغابات. واليوم يعتقد انه يستطيع ان يكون نذاً للضباط العامل، وانه يعرف كل شيء ويقحم انفه في كل شيء. وحين يكون لدينا ضابط عامل مثل الملازم الأول لو كاش فإنه لا يأتي ليشاركنا مجلسنا.

ذهب العقيد شرورد الى بيته غاضباً، وحين استيقظ في الصباح كان في مزاج أسوأ حتى، لأنه وجد في الصحف التي قرأها وهو في السرير عدة تقارير من الجبهة تفيد بأن قواتنا كانت تنسحب الى مواقع سبق اعدادها وتجهيزها. كانت تلك أياماً مجيدة للجيش النمساوي، وتشابهه مع ايام «شاباتس»⁽¹⁾ كما تشابهه حبتا البازلاء في القرنة الواحدة.

وتحت ثقل هذه الانطباعات حضر العقيد شرورد في الساعة العاشرة

(1) شاباتس: بلدة من الصرب تحارب من أجلها الجيشان النمساوي والصربي خلال عامي (1914) و(1915). (س. ب.).

صباحاً لجنة تأديب الفوج التي وصفها المتطوع عن حق على انها أشبه بيوم الدينونة.

وقف شفيك والمتطوع في الساحة وانتظرا وصول العقيد. كان حاضرا هناك ضابط الصف والضابط المناوب ومساعد الفوج والقيب الاول من ديوان الفوج مع الوثائق الخاصة بمنتهكي القانون اللذين كانت فأس العدالة - لجنة تأديب الفوج - ستسقط على رقبتهما.

وأخيراً ظهر العقيد متجهماً يرافقه النقيب ساغر من مدرسة المتطوعين. كان ينقر على جزمته بسوطه الخاص بالفرسان بعصبية.

بعد استلام التقرير سار عدة مرات في صمت مطبق ماراً بشفيك والمتطوع، اللذين كانا يؤديان «عينا» او «يساراً» بأعينهما وفقاً للجانب الذي كان العقيد يمر منه. كانا يفعلان ذلك بدقة غير اعتيادية وكان من الممكن بكل سهولة ان يؤدي ذلك الى التواء عنقيهما نظراً لأن ذلك استمر فترة طويلة.

وأخيراً توقف العقيد امام المتطوع الذي قال مقدماً نفسه:

- المتطوع لعام واحد.

قال العقيد بايجاز:

- اعرف. متطوع لعام واحد وحثالة ونفاية. ما كان عملك في الحياة المدنية؟ هل كنت تدرس الفلسفة الكلاسيكية؟ اعتقد انك مثقف كبير...

ثم خاطب النقيب ساغر فقال:

- أيها النقيب، احضر كل مدرسة المتطوعين الى هنا.

ثم التفت الى المتطوع واستأنف قائلاً:

- طبعاً، طالب كلية «لوردهاي» للفلسفة الكلاسيكية، وعلينا نحن ان نبثلي به. وراء در! هذا ما توقعته! الطيات على معطفه ليست منتظمة. يبدو

وكانه قد غادر فراش امرأة ما للتو او كان يتسكع في ماخور. سألقنك درساً ايها الغر الشاب.

سار أفراد مدرسة المتطوعين الى الساحة.

أمر العقيد قائلاً:

- شكلوا مربعا.

وهكذا شكلوا مربعا ضيقاً حول المتهمين والعقيد.

صاح العقيد وهو يشير الى المتطوع بسوط الفرسان:

- انظروا الى هذا الرجل. لقد شرب شرفكم حتى الثمالة، شرف

المتطوعين، اولئك الذين علينا ان ندرّب منهم كادراً من الضباط المحترمين

الذين يستطيعون قيادة الرجال نحو المجد على ساحة القتال. ولكن الى اين

سيقود هذا الشخص رجاله، هذا السكير المدمن؟ سيبتلع حصص «الروم»

المخصصة لرجاله بأكملها. هل لديكم ما تقولونه دفاعاً عنه؟ لا ليس لديكم.

انظروا إليه. انه لا يستطيع أن يقول أي شيء دفاعاً عن نفسه، اما في الحياة

المدنية فهو يدرّس الفلسفة الكلاسيكية. انه مثال كلاسيكي بالفعل.

لفظ العقيد الكلمات الأخيرة ببطء وتوكيد ثم قال:

- فيلسوف كلاسيكي يوقع، وهو في نوبة من السكر، قبة ضابط من

على رأسه ليلاً يا الهي! لكم هو محظوظ ان ذاك الضابط لم يكن من سلاح

المدفعية!

لقد ركز العقيد في تلك الملاحظة الاخيرة كل كره الفوج الواحد

والثسعين لمدفعية بوديوفيتسه. ويل للمدفعيين الذين كانوا يسقطون ليلاً

بين ايدي دوريات الفوج والعكس صحيح. كان الحقده رهيماً لا يقبل

المصالحة، كان ثاراً ونزاعاً دمويّاً تم توارثه عاماً بعد يوم، وكان متلازماً من

كلا الجانبين مع الحكايات التقليدية عن المشاة الذين ألقوا برجال المدفعية

في نهر الفلتافا او العكس، وكيف تقاتلوا في حانة «بورت آرثر» او في حانة

«الوردة» وفي اماكن التسلية العديدة الأخرى في عاصمة بوهيميا الجنوبية. استأنف العقيد كلامه فقال:

- وعلى اية حال فإن جريمة كهذه يجب ان تعاقب على نحو رادع. يجب ان يطرد النغل من مدرسة المتطوعين ويتم سحقه اخلاقياً. لدينا ما يكفي من المثقفين من نوعه في الجيش. ديوان الفوج! تقدم الرقيب الأول العامل في ديوان الفوج برزانة مع الوثائق وقلم الرصاص.

ساد الصمت كما في غرفة المحكمة اذ تم محاكمة قاتل وكان القاضي يقول: «سألفظ بالحكم الآن».

وبهذه اللهجة نفسها اعلن العقيد:

- يحكم على المتطوع لعام واحد «ماريك» بالسجن المشدد واحداً وعشرين يوماً. وبعد أداء هذه العقوبة سيرسل الى المطبخ ليقشر البطاطا.

ثم التفت الى طلاب مدرسة المتطوعين، فأمرهم بالانصراف.

وكان بالإمكان سماعهم وهم يشكلون صفوفاً من أربع ويسيرون مبتعدين بينما كان العقيد يقول للنقيب ساغر إن اداءهم ليس مناسباً وإن عليه ان يكرر التدريب على السير في الساحة.

- يجب ان يرددوا. وهناك شيء آخر. لقد كدت انسى. قل لهم ان طلاب المدرسة محرومون من الخروج من الثكنة مدة خمسة ايام وذلك حتى لا ينسوا أبداً زميلهم الوغد: «ماريك».

ولكن الوغد ماريك كان يقف الى جانب شفيك ويبدو في منتهى السعادة. لم يكن ممكناً ان تنتهي الامور الى افضل مما انتهت إليه. كان من الافضل حتماً تقشير البطاطا في المطبخ وتكوير الشيشبرك ونزع اللحم عن العظم على مواجهة نيران العدو الاعصارية والصراخ: «شكلوا صفين في العمق! ثبتوا الحراب!» وعندها يكون سروال المرء ممتلئاً.

وبعد أن انتهى من النقيب ساغتر توقف العقيد امام شفيك وتفحصه ملياً. كان شخص شفيك متميزاً في تلك اللحظة بوجهه ذي الابتسامة العريضة، والمحاط بأذنين كبيرتين. كانت اذناه تخرجان من تحت قبعته العسكرية التي كان قد حشر رأسه فيها، بحيث تهدلت فوقه. كان ذلك كله يعطي انطباعاً بالثقة الكاملة والجهل المطبق بأي انتهاك للأنظمة. كانت عيناه تسألان: «هل فعلت ما هو غير مناسب من فضلكم؟» كانت عيناه تنطقان فتقولان: «ألا ترى اني بريء كالحمل»؟.

وقد ركز العقيد ملاحظته في السؤال الذي طرحه على الرقيب الأول من ديوان الفوج:

- معتوه؟

ثم رأى العقيد فم ذلك الوجه الودود فاغراً امامه.

اجاب شفيك عن الرقيب الأول:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي: نعم، معتوه.

أوماً العقيد برأسه الى المساعد ثم اخذه جانبا. ثم ناديا على الرقيب الأول ونظرا الى الوثائق الخاصة بشفيك.



قال العقيد شرودر:

- هاهه! إذا فهذا هو وصيف الملازم لوكاش الذي فقد في «تابور» وفقاً لتقريره. اعتقد ان على الضباط ان يتقفوا وصفاءهم بأنفسهم. وإن كان الملازم الأول لوكاش قد اختار مثل هذا الاحتمق برخصة كوصيف له فعليه ان يتحمل العواقب. ان لديه الكثير من الوقت ينفقه في التعليم طالما انه لا يذهب الى اي مكان. لم تراه في صحبتنا أيضاً، أليس كذلك؟ حسناً إذا. لديه ما يكفي من الوقت لتثقيف وصيفه.

سار العقيد شرودر نحو شفيك ثم نظر إلى وجهه البهيج وقال:

- أيها الحيوان الضعيف العقل، عقوبتك ثلاثة ايام حبس مشدد. وبعد ان تقضيها اذهب وضع نفسك تحت تصرف الملازم الأول لوكاش. وهكذا التقى شفيك مرة اخرى مع المتطوع في سجن الفوج وكان الملازم الأول لوكاش قادراً على الاستمتاع بفرصة لقاء العقيد الذي أرسل يطلبه وقال له:

- ايها الملازم الأول، بعد وصولك الى الفوج بحوالي اسبوع تقدمت بطلب كي نعين لك وصيفاً لأن وصيفك فقد في المحطة في «تابور». وبما انه قد عاد...

أجاب الملازم الأول بتوسل:

- سيدي..

تابع العقيد مع التشديد:

- لقد قررت أن اضعه في السجن ثلاثة ايام ومن ثم اعيده إليك...

خرج الملازم الأول لوكاش مترنحاً من مكتب العقيد ومحطماً تماماً.

خلال الايام الثلاثة التي قضاها شفيك في صحبة المتطوع «ماريك» سلى نفسه الى حد كبير، فقد كانا يقومان كل مساء باستعراضات وطنية فوق سريريهما المصنوعين من الألواح الخشبية.

وكان يمكننا لنا ان نسمع عند المساء أنغام نشيد «ليحفظ الله امبراطورنا» و«الامير يوجين الفارس النبيل» وهي تدوي خارجة من السجن كما كانا يغنيان سلسلة كاملة من الأغاني العسكرية وحين يأتي السجن كانا يستقبلانه بـ:

«سجاننا القديم

قد لا يسلم روحه.

حتى يصل الشيطان من الجحيم

ويضعه على المشواة.

يأتي بعربته

ويرمي به إلى الأرض.

يا له من حطب رائع

وجدته الشياطين في جهنم!»

وفوق السرير رسم المتطوع صورة للسجان وكتب تحتها نص اغنية قديمة:

«حين ذهبت الى براغ لأشتري المقائق

من تراني قابلت سوى رجل عجوز مضحك؟

كان ذلك العجوز المضحك سجاننا،

ولولا أنني كنت قد هربت لكان قد عضني».

وفي هذه الاثناء، وبينما كانا يغيطان السجنان، كما يغاظ الثور الاندلسي

في اشبيلية بالرداء الأحمر، كان الملازم لو كاش ينتظر في كرب لحظة عودة

شفيك إليه مرة اخرى.



مغامرات شفيك

في كيراليهيدا

انتقل الفوج الواحد والتسعون الى كيراليهيدا او «بروك أن دير لايتا». وقبل ثلاث ساعات من اطلاق سراح شفيك بعد حبسه لمدة ثلاثة ايام، اخذ مع المتطوع لعام واحد الى غرفة المحرس الرئيسية ثم اقتيد الى المحطة تحت الحراسة العسكرية.

قال المتطوع له خلال الطريق:

- كان معروفاً منذ وقت طويل اننا سننقل الى هنغاريا وهناك سيشكلون كتائب متقدمة وسيدرب الجنود على اطلاق النار ميدانياً، ويتشاجرون مع المجرين ثم نذهب بمرح الى الجبال الكارباتية. سيأتي المجرين الى

بوديوفيتسه هنا ليشكلوا حاميات وستختلط الأجناس. هناك نظرية تقول بأن اغتصاب الفتيات من جنسية اخرى هو أفضل وصفة ضد الانحلال. لقد فعل السويديون والاسبان ذلك خلال «حرب الثلاثين سنة» وكذلك فعل الفرنسيون ايام حكم نابوليون والآن في منطقة بوديوفيتسه سيفعل المجريون هذا الأمر نفسه، ولن يكون ذلك اغتصاباً مع العنف البالغ. سيكون كل شيء على ما يرام في حينه. التبادل العادل ليس سرقة. سينام جندي تشيكي مع فتاة هنغارية وستصطحب فتاة تشيكية تعيسة الحظ جندياً هنغاريّاً الى فراشها، وبعد قرون ستكون هناك مفاجأة هامة لعلماء الاثروبولوجيا: لماذا ظهر بشر ذوو وجنات بارزة على ضفاف «المالشه»؟
قال شفيك:

- مسألة التهجين هذه مسألة شديدة الأهمية بكل ما في الكلمة من معنى. في براغ نادل زنجي يسمى «كريستيان»، كان أبوه ملكاً من ملوك الحبشة، وقد سمح هذا ان يتم عرضه شخصياً في سيرك في «شتفا نيتسه» في براغ. هذا وقد قامت معلمة مدرسة اعتادت ان تنشر قصائد في «لادا» تدور حول الرعاة والجداول التي تسري في الغابات بالذهاب معه الى فندق ثم زنت معه، كما يقال في الكتاب المقدس، وقد دهشت جداً حين ولدت صبياً كان أبيض اللون تماماً. حسناً، ولكن الصبي أخذ بعد اسبوعين يكتسب لوناً اسمر، ثم راح هذا الاسمرار يزداد يوماً بعد يوم حتى اصبح يميل الى الاسوداد بعد شهر واحد. وخلال نصف عام اصبح اسود كجده لأبيه، الملك الحبشي. وقد اخذته الى عيادة أمراض الجلد على امل ان يقوم الأطباء بتبييضه نوعاً ما، ولكنهم اخبروها هناك ان بشرته بشرة زنجي حقيقي ولا يمكن القيام بأي شيء حيال ذلك. وقد جعلها ذلك تفقد صوابها، فبدأت ترسل الى المجلات تسألها النصح عما يتوجب فعله ضد الزوج، وقد اخذوها الى «كاترجينكي»⁽¹⁾ ووضعوا الصبي الزنجي الصغير

(1) مصح عقلي في براغ. (س. ب.)

في دار الايتام حيث كان موضع تسلية كبيرة. ثم اصبح هذا نادلاً وراح يرقص أيضاً في النوادي الليلية. واليوم هناك مولدون تشيكيون من نسله وهم ذوو بشرات اقل سمرة منه. لقد حكى لنا طالب طب كان يرتاد حانة «كأس القربان» ان المسألة لم تكن بهذه البساطة اطلاقاً. ان نصف الهجين يلد انصاف هجناء لا يمكن تمييزهم عن بيض البشرية. ولكن فجأة وفي جيل لاحق يظهر زنجي. تصوّر الكارثة! قد تتزوج من سيدة شابة. هذه الفتاة بيضاء تماماً وفجأة تلد لك طفلاً زنجياً. ولو انها قبل شهرها التاسع خرجت معك الى «مسرح المنوعات» لمشاهدة المصارعة، وكان مشتركاً فيها احد الزوج، فاعتقد ان المسألة ستعطيك شيئاً تفكر فيه على اية حال.

قال المتطوع:

- ان قضية زنجيك كريستيان ذاك يجب ان ينظر إليها من وجهة نظر حربية أيضاً. فلنفرض انهم استدعوا ذلك الزنجي الى الخدمة العسكرية. انه من براغ ولذا فهو يلتحق بالفوج الثامن والعشرين. ولكنك سمعت كيف ان هذا الفوج قد استسلم الى الروس. لكم سيدهش الروس لو وجدوا انهم قد أسروا ذلك الزنجي كريستيان. ستقوم الصحف الروسية بنشر خبر مفاده ان النمسا تدفع الى الحرب قوات من سكان المستعمرات وهي لا تملك مستعمرات وانها اصبحت تعتمد الآن على احتياطياتها من الزوج.

قال شفيك:

- اعتاد الناس ان يقولوا انه كان للنمسا بعض المستعمرات في مكان ما في الشمال، وكانت تسمى: «الامبراطور فرانتس - يوسيف لاند» او ما شابه...

قال احد الحرس المرافقين:

- يكفي ايها الشبان. الافضل لكما ان تقلعا عن الحديث عن «الامبراطور فرانتس يوسيف لاند». لا تذكر اية اسماء فهذا افضل لكما...

قال المتطوع:

- انظر الى الخريطة إذأ. هناك بالفعل أرض باسم مليكنا شديد الرحمة، الامبراطور فرانتس يوسف. ووفقاً للإحصائيات فإن الشيء الوحيد المتواجد فوقها هو الثلج الذي يصدر منها فوق كاسحات الجليد التي تخص معمل الثلج في براغ. صناعة الثلج هذه يقدرها الاجانب الى حد كبير، حيث انها صناعة مريحة وان تكن خطيرة. وأكبر اخطارها يحدث خلال نقل الثلج من «الامبراطور فرانتس- يوسف لاند» عبر الدائرة القطبية. هل تستطيع ان تتصور ذلك؟

همهم الحارس شيئاً غير مفهوم واقترب العريف الذي كان يرافق الحرس واصغى الى الملاحظات اللاحقة التي قالها المتطوع الذي تابع برزانة:

- هذه المستعمرة النمساوية الوحيدة يمكنها ان تفي بحاجة اوروبا كلها من الثلج وهي مرفق اقتصادي وطني بارز. الاستعمار يتم ببطء طبعاً، لأن رواد المستعمرات لا يتطوعون من ناحية ومن ناحية اخرى فإنهم يتجمدون حتى الموت. وعلى الرغم من ذلك، وبلاستعانة بتعديل في الظروف المناخية، والذي يهتم به كثيراً وزيراً الخارجية والتجارة الخارجية، فإن هناك املاً في ان يتم استثمار تلك المناطق الواسعة التي تتواجد فيها الجبال الثلجية على نحو ملائم، وعن طريق بناء الفنادق سيأتي السواح بالأكوام. وسيكون ضرورياً بالطبع تعبيد طرق وممرات سياحية بين الطوافات الجليدية ورسم اشارات سياحية على الجبال الثلجية. والصعوبة الوحيدة هي الاسكيمو. الذين يجعلون نشاط سلطاتنا المحلية مستحيلاً...

ثم استأنف المتطوع قائلاً بينما راح العريف يصغي باهتمام:

- اولئك الانغال يرفضون تعلم الالمانية.

كان هذا العريف رجلاً شديد النشاط وكانت مهنته في الحياة المدنية عاملاً زراعياً. كان غيبياً وجلفاً، ويصدق كل ما لا يعرف عنه شيئاً، وكان

المثال الذي يؤمن به هو ان يشيخ وهو في خدمة النمسا.

- لقد بنت لهم وزارة التعليم، ايها العريف، مدرسة انفقت عليها الكثير من الأموال والتضحيات. لقد تجمد خمسة من البنائين حتى الموت... قاطعه شفيك:

- ولكن بنائي الآجر ظلوا على قيد الحياة حيث انهم بقوا دافئين بسبب غلايينهم التي اشعلوها.
قال المتطوع:

- ليس الجميع، فقد نسي اثنان منهم لسوء الحظ ان يفتتا الدخان فانطلقا غليوناهما. وهكذا اضطروا الى دفنهما في الثلج. ولكن المدرسة بنيت في النهاية من قطع من الثلج والاسمنت المسلح وهاتان المادتان تماسكان جيداً، الا ان الأسكيمو اشعلا النار من حولها وذلك من الخشب الذي اخذوه من السفن التجارية التي كان الثلج قد حاصرها، وهكذا حققوا ما يريدون. لقد ذاب الثلج الذي بنيت فوقه المدرسة، وسقطت المدرسة بأجمعها وبكل من فيها في البحر: مدير المدرسة وممثل الحكومة الذي جاء لتدشين المدرسة في اليوم التالي. وحين اصبح ممثل الحكومة حتى عنقه في الماء كان يمكنك سماعه وهو يصيح: «ليعاقب الله انكلترا». وربما سيرسلون الآن جيشاً الى هناك لتسوية الأوضاع مع أولئك الاسكيمو. ستكون تلك بالطبع حرباً شرسة بيننا وبينهم. ولكن ما سوف يوقع اكبر الخسائر بين صفوف قواتنا هو الدبية القطبية المروضة.
قال العريف بحكمة:

- ستكون تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لكأنه لا يوجد هناك بعد ما يكفي من الاختراعات الحربية. خذ مثلاً اقنعة الغاز لأجل التسمم بالغاز. تضع واحداً منها على رأسك فتتسمم كما قالوا لنا في مدرسة ضباط الصف.

قال المتطوع:

- انهم يحاولون اخافتك فحسب. يتوجب على اي جندي ان يخاف من اي شيء. حتى لو سقط في المرحاض وهو يقاتل فما عليه سوى ان يلحق نفسه ويعود الى المعركة. كما ان الجميع معتادون على الغازات السامة في الشكنة، وذلك حين يقدمون لك وجبة من الخبز الطازج مع البازلاء والبرغل. ولكنهم يقولون الآن ان الروس قد حصلوا على اختراع جديد ضد ضباط الصف..

ثم اضاف المتطوع:

- وربما تكون هذه عبارة عن تيارات كهربائية خاصة ما ان يتم وصلها الى النجوم الموجودة فوق قبّات سترات ضباط الصف حتى تنفجر هذه النجوم لأنها مصنوعة من السيلولويد. ستكون تلك كارثة جديدة.

ورغم ان العريف كان في الحياة المدنية راعي ابقار وأحمق من الصنف الممتاز، الا انه فهم على الارجح أخيراً انهما كانا يخدعانه. فتركهما وابتعد نحو مقدمة الدورية.

كانوا يقتربون الآن من المحطة حيث كان سكان بوديوفيتسه يودعون فوجهم. لم يكن للوداع اية صفة رسمية، ولكن الساحة امام المحطة كانت ممتلئة بالناس المنتظرين قدوم الجيش.

كان اهتمام شفيك متركزاً على الجماهير المحتشدة في الشوارع. وكما هي الحال فإن الجنود الطيبين كانوا يسيرون في الخلف كالعادة اما اولئك الموقوفون فيسيرون في المقدمة. الجنود الطيبون سيحشرون لاحقاً ضمن عربات نقل المواشي اما شفيك والمتطوع فسوف يوضعون في عربة خاصة بالسجناء والتي تربط دائماً بالقطارات العسكرية خلف حافلة الضباط. في عربة السجناء الكثير من الفراغ.

لم يستطع شفيك ان يغالب نفسه فصرخ: «نازدار!»⁽¹⁾ وذلك باتجاه ذلك الصف من الناس ولوح بقبعته. وقد كان لذلك الصراخ فعل النار في الهشيم بحيث صرخ الناس بصوت عال من ورائه «نازدار» وانتشرت الصرخة وهدرت امام المحطة. ومن البعيد بدأ الناس يقولون: «انهم قادمون».

انزعج عريف الحرس تماماً وصرخ على شفيك طالباً منه ان يغلق فمه. ولكن الصرخات انتشرت كأنها انهيار ثلجي. دفع الدرك بالحشود نحو الخلف وفتحوا طريقاً للحرس، ولكن الناس استمروا يصرخون «نازدار» ويلوحون بقبعاتهم وأغطية رؤوسهم.

كانت تلك مظاهرة بكل ما في الكلمة من معنى. من نوافذ الفندق المقابل للمحطة لوحت بعض السيدات بمناديلهن وصرخن: «هايل!».

وهنا اختلقت صرخة «نازدار» بصرخة «هايل» الالمانية واغتنم احد المتحمسين الفرصة ليصرخ بالالمانية: «فليسقط الصربيون» ولكنه تعثر فوق ارضاً وداسته الاقدام قليلاً في تلك الفوضى المصطنعة.

وكشراة كهربائية انطلقت الصرخة: «انهم قادمون!».

وقد وصلوا، شفيك تحت الحراسة المسلحة يلوح بدماثة الى الجمهور والمتطوع يحيي برزانه تحية عسكرية.

وعلى هذا النحو دخلوا المحطة ثم القطار العسكري المخصص لهم، حيث كانت الفرقة الموسيقية الخاصة بـ«القناصة» والتي كان قائدها مشوشاً الى حد كبير بسبب المظاهرة غير المتوقعة، قد كادت تشرع في عزف «صان الله امبراطورنا». ولحسن الحظ ظهر في الوقت المناسب بالضبط كبير القساوسة، «الأب لاتسينا» التابع للفرقة السابعة من الفرسان، مرتدياً قبعة مستديرة سوداء وبدأ يعيد النظام الى ارجاء المكان.

(1) التحية التي يستعملها الوطنيون التشيكيون. (س. ب).

كانت حكايته بسيطة جداً. فهو قد جاء الى بوديوفيتسه قبل ذلك بيوم وحضر. كأنما بالصدفة، وليمة صغيرة لضباط الفوج الراحل. وبما انه كان شراً الى حد كبير وكارثة حقيقية لكل مطاعم الضباط، فقد أكل وشرب عن عشرة اشخاص وذهب في هذه الحالة من النشوة الى مطعم الضباط ليحاول ان يحوز على بعض الفتات من الطباخ. هذا وقد ابتلع اطباقاً من المرق والشيشبرك، وكشط اللحم عن العظم كقطة برية، ووصل أخيراً الى شراب الروم في المطبخ. وبعد أن غب الكثير من هذا الشراب تجشأ وعاد الى حفلة الوداع واكتسب لنفسه شهرة هناك بنوبة جديدة من احتساء الشراب. كانت لديه تجربة غنية في مثل هذا النوع من الامور وكان يكلف الضباط في الفرقة السابعة للفرسان، وباستمرار، الكثير من الاموال، ففي الصباح خطر له ان عليه ان يرتب الامور حين تنطلق اول عربة تحمل الفوج ولذلك مشى الهويناً على امتداد خط الناس المتجمهرين وبذل جهداً هائلاً في المحطة بحيث ان الضباط المسؤولين عن نقل الفوج حجروا أنفسهم في مكتب مدير المحطة هرباً منه.

وهكذا ظهر ثانية امام المحطة في الوقت المناسب لينتزع عصا قائد الفرقة الموسيقية الخاصة بالقناصة وفي اللحظة التي كان القائد يوشك فيها على الاشارة الي الفرقة بعزف «صان الله امبراطورنا».

قال:

- توقف! ليس بعد! انتظر حتى اعطيك الاشارة. قف في حالة الاستراحة حتى أعود.

ثم ذهب الى المحطة ولحق بالحرس الذين رأو قفهم حين صرخ بالالمانية:
- «هالت!» (قف).

قال بلهجة صارمة مخاطباً العريف الذي لم يكن يدري ما يفعله في هذا الوضع المستجد:

- الى أين ذاهبون؟

أجاب شفيك الطلق المحيا عن العريف:

- انهم يقتادوننا الى «بروك». واذا اردت ان ترافقنا يا سيدي فأهلاً بك.

قال الأب لا تسينا:

- حسناً إذاً. سأفعل.

ثم التفت نحو الحرس واطاف:

- من يقول اني لا استطيع؟ الى الأمام سر!

وحين وجد كبير القساوسة نفسه في عربة السجناء، تمدد فوق المقعد

وقام شفيك الودود بخلع معطفه الخارجي ووضع تحت رأسه، بينما قال

المتطوع للعريف المصاب بالفرع:

«خدمات الرعاية لكبار القساوسة».

تمدد الأب لاتسينا على المقعد بكامله وبدأ يتوسع في الشرح:

- اليخنة مع الفطر افضل كلما كان الفطر اكثر، ولكن يتوجب قلي الفطر

اولاً مع البصل وبعد ذلك فحسب يتوجب اضافة أوراق الغار والبصل....

قال المتطوع:

- لقد سبق لك يا سيدي ووضعت البصل.

نظر إليه العريف في يأس فقد رأى في الأب لاتسينا سكيراً حقيقياً وان

يكن ذا رتبة عالية على أية حال.

كان وضع العريف يدعو بالفعل الى اليأس.

قال شفيك:

- نعم، كبير القساوسة على حق تماماً. كلما وضعت المزيد من البصل

كان ذلك افضل. في باكومبير جيتسه كان يعيش صانع جعة اعتاد ان يضع

البصل في الجعة، لأنه قال ان البصل يثير العطش. البصل شيء مفيد جداً

إجمالاً. كما ان البصل المقلي يستعمل ضد البثور أيضاً...

كان «الاب لاتسينا» لا زال يتحدث في هذه الاثناء بلهجة نصف هامسة وهو متمدّد على المقعد كأنه في حلم:

- يعتمد كل شيء على البهارات، البهارات التي تخلط مع الطعام لتطيبه. لا يتوجب وجود الكثير من الفلفل او الكثير من الفليفلة... وبينما استمر في الحديث راح صوته ينخفض أكثر فأكثر:

- لا وجوب لكثير من القرنفل والثوم، ولا الكثير من الليمون، ولا الكثير من الفلفل الافرنجي، ولا الكثير من العنب طيب الشذا...

لم ينه حديثه بل نام وهو يصفر من أنفه، وكان يتوقف عن الشخير بين الحين والآخر.

نظر إليه العريف بعين كامدة، بينما جلس أفراد الحرس على مقاعدهم وراحوا يضحكون بصوت خفيض.

قال شفيك:

- لن يستيقظ بسرعة. انه مخمور تماماً.



وحين أشار إليه العريف اشارة تدل على الكرب طالباً منه السكوت، استأنف قائلاً:

- لا يهم، لا يمكنك ان تفعل شيئاً حيال ذلك. انه مخمور كواحد من اللوردات. رتبته نقيب. كل هؤلاء القساوسة كباراً كانوا أم صغاراً في الرتبة، يتمتعون بتلك الموهبة التي منحها لهم الله، موهبة السكر حتى الثمالة كلما حانت الفرصة لذلك. لقد خدمت تحت إمرة القسيس «كاتس» وكان مستعداً ان يفرق حتى أنفه في الشراب. وما يفعله هذا الرجل هنا لا شيء اطلاقاً بالمقارنة مع ما كان يفعله ذلك الآخر. لقد رهنا وعاء القربان المقدس مرة كي نحصل على الشراب، وكنا مستعدين ان نرهن الرب نفسه لو كان هناك من يقرضنا المال عليه.

اقرب شفيك من الاب لاتسينا ثم اداره باتجاه الجدار وقال بثقة الخبير:

- سيظل يشخر حتى نصل الى «بروك».

ثم عاد الى مكانه تتابعه نظرات العريف البائس الحظ الذي قال:

- ربما من الأفضل ان اذهب لأبلغ عما حصل.

قال المتطوع:

- لا تفكر في فعل ذلك. أنت قائد الحرس. يجب ألا تتركنا. ووفقاً للانظمة ليس عليك ان تترك اي واحد من الحرس المرافق يغادرنا لتقديم تقرير حتى يكون لديك بديل عنه. وهذه مشكلة معقدة كما ترى. كما لا يمكنك ان تطلق رصاصة كإشارة لأحد ما كي يأتي، لأن هذا غير ممكن أيضاً. لاشيء يحدث هنا. ومن ناحية اخرى فإن احد الانظمة يقول انه باستثناء السجناء وكافة الحرس المرافقين لهم لا يحق لأي شخص دخول عربة السجناء. الدخول محرم تماماً على الاشخاص غير المفوضين بذلك. وزيادة عليه، فإنك لو اردت مسح آثار عصيانك للأوامر وقمت على نحو لا فضولي بالقاء كبير القساوسة خارج القطار وهو سائر فإنك لا تستطيع

ذلك أيضاً، لأن هناك شهوداً رأوا انك سمحت له بالدخول الى العربية وهو غير مسموح له بذلك. وبالتالي سيتم تنزيل ربتك ايها العريف.

أجاب العريف مرتبكاً بأنه لم يسمح لكبير القساوسة بالدخول الى العربية، بل دخل من تلقاء نفسه، وهو على اية حال ضابط ذو رتبة أعلى.

أكد المتطوع بلهجة مشددة:

- أنت الوحيد الأعلى رتبة هنا.

وقد اكمل شفيك قائلاً:

- حتى لو أراد صاحب الجلالة الامبراطورية الدخول فليس عليك ان تسمح له. هذا اشبه بما يحدث حين يتقدم ضابط مفتش من مجند يقف خفياً فيطلب منه ان يذهب ليحضر له لفافات تبغ، فيسأله المجند عن اي نوع من اللفافات يريد. هذا العمل جزاؤه الحبس في القلعة.

اعترض العريف بضعف قائلاً ان شفيك كان أول من قال لكبير القساوسة ان بإمكانه الانضمام إليهم.

اجاب شفيك:

- يمكن أن اكون أنا من فعل ذلك لأني احمق. ولكن لا يتوقع احد مثل هذا التصرف منك.

سأل المتطوع العريف خلال الحديث:

- هل أنت في الخدمة النظامية منذ زمن طويل؟

- ثلاث سنوات. واتوقع الآن ان اترقى الى رتبة رقيب فصيلة.

قال المتطوع بسخرية:

- يمكنك ان تراهن على ذلك، اقول لك ان الامر يبدو وكأنه تنزيل رتبة.

قال شفيك:

- الأمر سيان سواء سقطت على ارض المعركة كضابط صف او كجندي

عادي. ولكن والحق يقال انهم يدفعون بأولئك الذين انزلت رتبهم الى خطوط النار الأولى.

تحرك كبير القساوسة.

قال شفيك بعد ان تأكد من ان كل شيء كان في أحسن حال:

- انه ينام نوماً خفيفاً الآن. لا بد وانه يحلم بوليمة ما. كل ما اخشاه هو ان يرتكب شيئاً هنا. حين كان القسيس «كاتس» يسكر، لم يكن يعرف ما يفعل في نومه. مرة...

ثم راح شفيك يقص تجاربه مع القسيس «أوتو كاتس» بتلك الطريقة الممتعة التفصيلية بحيث انهم لم يشعروا بأن القطار قد انطلق من المحطة. كان الهدير الآتي من العربات التي في الخلف هو الذي قاطع حكاية شفيك. وكانت السرية الثانية عشرة المؤلفة من الالمان القادسين من «كروملوف» و«كاشبرسكه هوري» يصرخون:

«حين اجيء، حين اجيء،

حين اجيء، اجيء من جديد».

ومن عربة اخرى كان شخص يائس يصرخ باتجاه بوديوفيتسه الآخذة بالاختفاء عن الانظار:

«وأنت يا عزيزتي،

ابقي هنا.

هولاريو، هولاريو، هولولو!».

كان الصباح والزعيق مرعبين بحيث اضطر رفاقه الى جره بعيداً عن الباب المفتوح لعربة الجواشي التي كانوا يركبونها.

قال المتطوع للعرىف:

- يدهشني عدم وجود اي تفتيش حتى الآن. وفقاً للانظمة حالما نصل



الى المحطة عليك ان تبلغ عنا الى قائد القطار، لا ان تضيع وقتك على كبير قساوسة مخمور.

احتفظ العريف البائس بصمت عنيد ثم استمر يحدق بعناد في اعمدة التلغراف المخفية.

استأنف المتطوع بخبث:

- حين افكر في انه لم يبلغ عنا الى احد حتى الآن، وان قائد القطار في المحطة التالية سيأتي بالتأكيد ويرانا. عندها سينتفض كل الدم العسكري في عروقي احتجاجاً. لماذا نعامل مثل...
قاطع شفيك قائلاً:

- مثل العجر او المتشردين. كأننا خائفون من نور الرب فلا نجرؤ على الشكوى الى اية جهة في حال انهم حبسوننا.
قال المتطوع:

- وازافة الى ذلك ولاحقاً بالمرسوم تاريخ (21) تشرين الثاني (نوفمبر) لعام (1879) فإنه يتوجب اتباع الانظمة التالية لدى نقل جنود موقوفين بالقطار: اولاً، يجب ان تكون عربة المساجين مزودة بالقضبان. وهذا أمر واضح وضوح النهار وتم تنفيذه وفقاً للانظمة. فنحن وراء قضبان كاملة. إذا هذا يتفق مع الانظمة المرعية. ثانياً، تماماً للمرسوم الامبراطوري والملكي تاريخ (21) تشرين الثاني (نوفمبر) لعام (1879) لا بد من وجود دورة مياه في كل عربة مساجين. وإذا لم يكن هناك مثل هذه لا بد من تزويد العربة بإناء ذي غطاء حتى يتمكن المساجين والحرس من تلبية حاجاتهم البدنية الصغرى والكبرى. في حالتنا هذه لا نستطيع ان نتحدث بالفعل عن عربة سجن فيها دورة مياه، فنحن ببساطة ضمن مقصورة خصوصية معزولة عن العالم كله. ولا يوجد إناء لقضاء الحاجات هنا..

أجاب العريف بلهجة يائسة:

- يمكنك ان تفعلها عبر النافذة.

قال شفيك:

- لقد نسيت انه ليس مسموحاً لأي سجين بالاقتراب من النافذة.

استأنف المتطوع:

- ثم ثالثاً: لا بد من تزويد العربية بوعاء يحتوي على ماء للشرب. لم تزعج

نفسك حتى...

قال شفيك:

- وهكذا ترى ايها العريف ان نقل المساجين ليس بالعملية السهلة كما هو تنظيم مدرسة يوم الاحد مثلاً. عليك ان تعتني بنا. لسنا جنوداً عاديين يستطيعون الاهتمام بأنفسهم. يجب ان يجلب كل شيء الى عندنا لأن هناك مراسيم وقوانين تتعلق بذلك وعلى الجميع التقيد بها وإلا فلن يسود النظام. لقد قال لي مرة صعلوك رديء الشهرة: «الرجل المعتقل اشبه بالطفل في القماط. اذ يجب ان يعتنى به حتى لا يصاب بالزكام او يُستفز. وبذلك يكون قانعاً بمصيره ولا يهينه احد، ذلك الشاب المسكين الصغير».

قال شفيك بعد برهة وهو ينظر بود الى العريف:

- بالمناسبة. هل لك ان تتلطف وتنبهني حين تكون الساعة هي الحادية

عشرة؟

نظر العريف الى شفيك متسائلاً:

- من الواضح انك أردت ان تسألني ايها العريف لماذا عليك ان تنبهني حين تكون الساعة هي الحادية عشرة. لانه اعتباراً من الساعة الحادية عشرة سيكون مكاني هو عربات الماشية أيها العريف.

هذا ما قاله شفيك مع التشديد ثم استأنف بصوت رزين:

- لقد حكم عليّ من قبل لجنة تأديب الفوج بالحبس ثلاثة ايام. لقد بدأت

بتنفيذ الحكم في الساعة الحادية عشرة واليوم في الساعة الحادية عشرة يتوجب اطلاق سراحي. بعد الساعة الحادية عشرة لا عمل لي هنا. لا يتوجب اعتقال الجندي فترة اطول من المفروض. لان النظام والانضباط أمران لا بد من التقيد بهما في الحبس ايها العريف.

مرّ وقت طويل قبل ان يستطيع العريف اليائس استعادة رباطة جأشه بعد هذه الضربة، ولكنه عبّر أخيراً عن اعتراضه قائلاً انه لم يستلم أية أوراق.

قال المتطوع:

- يا عريفي العزيز، الأوراق لا تذهب الى قائد الحرس من تلقاء ذاتها. واذ لم يتحرك الجبل للقاء «محمد» فإن على قائد الحرس ان يذهب ويحضر الأوراق بنفسه. والآن يواجهك وضع جديد. لا حق لك بكل تأكيد ان تعتقل شخصاً يتوجب اطلاق سراحه. ومن ناحية اخرى، ووفقاً للأنظمة السارية لا يحق لأي شخص مغادرة عربة السجن. وبأمانة اقول لك اني لا اعرف كيف ستخرج من هذا الوضع المريع. ويبدو ان الأمر يزداد سوءاً مع كل خطوة تخطوها. الساعة الآن هي العاشرة والنصف.

اعاد المتطوع ساعته الى جيبه وقال:

- أنا شديد الفضول ايها العريف: ما الذي ستفعله يا ترى خلال نصف ساعة من الزمن؟

كرر شفيك بلهجة حالمة:

- خلال نصف ساعة سيكون مكاني هو عربات المشاية.

فالتفت إليه العريف، الذي اصبح الآن في حالة من الاضطراب والارتباك، وقال:

- ان لم يكن في الامر ازعاج لك، الا اني اظن ان المكان هنا اكثر راحة من عربات المشاية، اعتقد...

وهنا قاطعته صرخة من كبير القساوسة الذي صاح في نومه:

- المزيد من صلصة مرق اللحم!

قال شفيك بدمائة وهو يدس تحت رأس كبير القساوسة زاوية معطفه الخارجي الذي كان متديلاً من المقعد:

- اهدأ، اهدأ، وهيا تابع حلمك الجميل حول إسرافك في الشراب.
وهنا بدأ المتطوع يغني:

«اسكت يا طفلي فوق أعلى الشجرة،

حين تهب الريح سيهتز المهد.

وحين ينحني الغصن سيسقط المهد،

اسقط يا حبيبي، مهداً وكل شيء».

لم يعد العريف القانط يقوم بأي رد فعل على اي شيء.

كان يحرق في المناظر الريفية واطلق العنان للفوضى الكاملة التي كانت تسود عربة المساجين.

عند الجدار الداخلي الفاصل كان جنود الحرس يلعبون لعبة «اللحم»، وكانت الضربات الرشيقة والقوية تنهال على أفقيتهم. وحين نظر في اتجاههم لفتت انتباهه المؤخرة الاستفزازية لأحد جنود المشاة. تنهد والتفت من جديد الى النافذة.

فكر المتطوع للحظة بشيء ما ثم خاطب العريف المحطم:

- هل تعرف مجلة اسمها «عالم الحيوان»؟

أجاب العريف وقد بدا تعبير واضح من السعادة على وجهه بسبب ان الحديث قد اتخذ مجرى مغيراً:

- لقد اعتاد صاحب الحانة في قريتنا ان يشتري تلك المجلة لأنه كان قلقاً الى حد كبير على الماعز من نوع «الانغورا»، وكانت هذه كلها قد نفقت. ولذا كان يقرأ تلك المجلة للاستشارة.

قال المتطوع:

- يا عزيزي، الحكاية التي سأرويها لكم الآن ستثبت لكم بوضوح اشبه بنور الشمس انه لا احد بمنجاة من الخطأ! أنا على قناعة ايها السادة انكم هناك في الخلف ستوقفون عن لعب «اللحم» لأن ما سأرويهِ ممتع جدا والسبب الاساسي في ذلك هو انكم لن تكونوا قادرين على فهم الكثير من التعابير الفنية فيها. سأحكي لكم حكاية عن مجلة «عالم الحيوان» حتى ننسى مشاكلنا الحالية. كيف اصبحت أنا رئيس تحرير «عالم الحيوان»، وهي مجلة شديدة الاهمية. هذا اللغز بقي بدون حل فترة طويلة، حتى وصلت الى النتيجة التي تفيد بأني ما كنت استطيع قبول تلك الوظيفة لولا تلك الحالة العقلية من الخبل التي قادتني إليها تلك العاطفة الودية التي اكنها لصديقي القديم «هاييك». فحتى ذلك الحين كان هو الذي يحرر المجلة على نحو محترم تماماً، ولكنه وقع خلال ذلك في غرام ابنة صاحب المجلة السيد «فوخس» الذي اعطاه إنذاراً مدته ساعة واحدة شريطة ان يجد له محرراً محترماً. وكما ترون فإن علاقات العمل كانت غريبة في ذلك الحين. وحين قدمني صديقي «هاييك» الى صاحب المجلة، استقبلني هذا بكل لباقة وسألني ان كانت لدي أية فكرة عن الحيوانات. وقد اقتنع بجوابي تماماً حين قلت له اني طالما احترمت الحيوانات والى أبعد الحدود، ورأيت فيها مرحلة الارتقاء نحو الإنسان. كما انني كنت من حيث الرفق بالحيوانات شخصاً يحترم رغباتها وأمنياتها. وليس هناك من حيوان لديه رغبة اخرى غير ان يتم قتله بأقل حد ممكن من الألم قبل أكله. من يوم مولده تهيمن على سمك الشبوط فكرة انه ليس لطيفاً من الطباخ ان يشق له بطنه وهو لا زال حيا بعد. اما عادة قطع رأس الديك فهي خطوة الى الأمام نحو مبادئ «جمعية الرفق بالحيوان». وانه لا يتوجب ذبح الطيور بأيدي غير خبيرة. ان الأشكال الملتوية لسمك «الروتش» النهري تثبت انها تحتج على قليها حية بالسمن النباتي في «بودولي»، كما ان مطاردة الديك الرومي...

وهنا قاطعني وسألني ان كنت اعرف اي شيء عن تربية الدواجن والكلاب والأرانب والاعتناء بالنحل وانواع اخرى مختلفة من عالم الحيوان، وفيما اذا كنت تستطيع ان اقتطع من المجلات الاجنبية صوراً لإعادة طبعها وان اترجم مقالات اختصاصية من المجلات الاجنبية حول الحيوانات والعودة الى الصفحات التي يحررها «بريم» والتعاون معه في كتابة مقالات رئيسية حول حياة الحيوانات وعلاقة ذلك بأيام القديسين الكاثوليكين، والمواسم المتنوعة وسباق الجياد والصيد والرماية وتدريب الكلاب البوليسية وأيام العطل الوطنية والدينية. اي باختصار ان تكون لي تلك النظرة الشاملة للأمر التي يتمتع بها الصحفي وان اعرف كيفية استغلالها لكتابة افتتاحيات قصيرة دسمة. وقد صرحت له بأنه سبق لي وفكرت بالطريقة التي استطعت بها ان أدير بها مجلة كـ«عالم الحيوان» على النحو المناسب واني استطعت القيام بالعمل فيما يخص تلك المقالات والمواضيع، بعد ان استوعبت كل المواضيع التي ذكرها، وستكون محاولتي هي رفع المجلة الى مستوى عال غير عادي وسأقوم بإعادة تنظيم محتوياتها ونظامها، واقدم فيها زوايا جديدة مثل: «زاوية النشاطات الاجتماعية للحيوانات» و«حيوانات تتحدث عن حيوانات» آخذاً في الحسبان بكل حذر الوضع السياسي، كما انني سأعرض على القراء المفاجأة تلو الأخرى بحيث لا يستطيعون التقاط أنفاسهم بين الحيوان والآخر. ستتناوب زاوية بعنوان: «يوم في حياة الحيوانات» مع زاوية «برنامج جديد لحل مسألة حيوانات المزرعة» و«حركة المواشي». وقد قاطعني مرة أخرى وقال ان ذلك سيكون رائعاً واني اذا نجحت في تنفيذ نصف ما اعتزم فعله فإنه سيهديني زوجاً من ديكة «وينادوت» من آخر معرض اقيم في برلين للدواجن. كان هذا الزوج قد فاز بالجائزة الاولى ومنح صاحبه ميدالية ذهبية بسبب اختياره الممتاز للسلالات. استطيع القول اني قد بذلت قصارى جهدي واستطعت تنفيذ برنامجي من حيث ادارة المجلة ضمن قدراتي. ولكنني سرعان ما اكتشفت

ان مقالاتي قد تجاوزت قدراتي. وبسبب رغبتني في منح القراء شيئاً جديداً تماماً فقد اخترعت حيوانات من بنات افكاري. وقد انطلقت من الافتراض الاساسي القائل ان حيوانات كالفيل والنمر والأسد والقرود والخلد والحصان والخنزير... الخ هي من المخلوقات المألوفة التي يعرفها قراء «عالم الحيوان» وانه من الضروري فتح شهية القراء بشيء جديد واكتشافات جديدة. وهكذا قمت بتجربة مع «الحوت ذي البطن الكبيرتي». وهذا النوع الجديد من الحيتان له حجم سمك «الكود» ومجهزاً بمثانة مليئة بالاسيد النملكي وباست خاص يستطيع من خلاله تفرغ طلقة متفجرة تحتوي على أسيد مخدر سام يطلقه على انواع الاسماك الصغيرة التي يريد التهامها. وقد قام عالم انكليزي، نسيب الآن الاسم الذي اطلقته عليه، بإطلاق اسم «أسيد الحوت» على هذا النوع من الأسيد. كان دهن الحوت أمراً معروفاً لدى كل شخص آنذ، ولكن الأسيد الجديد آثار اهتمام قراء عديدين سألوها عن اسم الشركة التي تصنعه، واستطيع ان أوكد لكم ان قراء «عالم الحيوان» هم عموماً اشخاص شديدي الفضول. وبعد اكتشافني لـ«الحوت ذي البطن الكبيرتي» سرعان ما اكتشفت سلسلة كاملة من الحيوانات الأخرى. ومنها على ما اذكر: «الناجح الماكر» وهو حيوان ثديي من فصيلة القنغر، و«الثور الصالح للأكل»، وهو النموذج الاصلي القديم للبقرة، و«الحبار النقاغي» الذي وصفته كنوع من جرذان المجاري. كانت حيواناتي الجديدة تتكاثر كل يوم. وقد دهشت كثيراً أنا نفسي بنجاحاتي في هذا المضمار. لم يخطر لي أبداً انه سيكون من الضروري ان اختلق مثل هذه الإضافات الكثيرة على مملكة الحيوان وان «بريم» قد نسي ذكر الكثير من الحيوانات في كتابه «حياة الحيوانات». هل كان «بريم» وكل اولئك الذين ساروا على خطاه يعرفون عن أمر «الوطواط الايسلندي» و«الخفاش الحالم»، او عن قطتي المنزلية التي جلبتها من قمة جبل كلمنجارو والمسماة «هرة الأيل النزقة البازوكية»؟ هل كان لدى علماء

الحيوان من قبل اية فكرة عن «برغوث المهندس فون» الذي اكتشفته في الكهرمان والذي هو اعمى تماماً لأنه كان يعيش على خلد تحت أرضي من فترة ما قبل التاريخ والذي كان اعمى أيضاً لأن جدته الكبرى قد تزوجت مع «أولم» اعمى تحت - أرضي كان يعيش في كهوف «بوستوميا» والتي كانت في ذلك الحين تمتد حتى بحر البلطيق الحالي. ومن هذه الحادثة التافهة نما خلاف واسع بين «تساس» و«تشيخ»⁽¹⁾. لأن الاخيرة في مقالاتها الساخرة حول مجموعة من الاشياء اقتبست من مقالي المتعلقة بالبرغوث الذي اكتشفته وافادت: «ما يفعله الله يفعله جيداً». أما صحيفة «تساس» وبأسلوب واقعي محض فقد مزقت - بالطبع - برغوثي الى اشلاء ومعه صحيفة «تشيخ» الغراء. وقد منذ ذلك الحين ان حظي الجيد كمخترع ومكتشف لمخلوقات جديدة قد تخلى عني. وهكذا بدأ المشتركون في مجلة «عالم الحيوان» يصابون بالقلق. وكان ذلك يعود الى مختلف الحكايات الاخبارية التي كنت اكتبها حول تربية النحل والدواجن، حيث قمت بتطوير نظرياتي الجديدة. وقد سببت هذه فرعاً حقيقياً لأنه بعد قراءة الزوايا الصغيرة المتعلقة بالنصائح اصيب مربّي النحل الشهير السيد «بازوريك» بالسكتة القلبية وقضي على صناعة تربية النحل في «شومافا» و«بودركونوشي» قضاء مبرماً. كما اصيبت الدواجن بالوباء، وباختصار بدأ كل شيء يموت. بدأ المشتركون بكتابة رسائل التهديد ورفضوا استلام اعداد المجلة. ثم رميت بنفسي في مجال الطيور البرية ولا زلت استطيع حتى اليوم ان اتذكر قضيتي مع رئيس تحرير مجلة «أفق الفلاح» ونائبه المخرج «يوسيف م. كادتلشاك». القصة وما فيها اني اقتطعت من مجلة انكليزية تدعى «حياة الريف» صورة لطائر صغير يجلس فوق شجرة جوز. وقد اعطيته اسم «نقار الجوز»، وكنت لن اتردد منطقياً في ان اكتب ان

(1) «تساس» (الزمن) كانت الصحيفة المعبرة عن أفكار «ماساريك» و«الحزب الواقعي» بين عامي (1887-1923). أما «تشيخ» او «التشيكي» فكانت احدى أدوات الجناح المحافظ من حزب الشعب (الكنسي). (س. ب).

طائراً يجلس مثلاً على شجرة عرعر هو «العرعر» او «نقار العرعر». وما الذي لم يحدث بعد ذلك؟ لقد هاجمني السيد كادلتشاك الذي كتب إليّ على بطاقة بريدية عادية وقال ان الطائر المعني هو «أبو زريق» وليس «نقار الجوز» بكل تأكيد، وان الذي حدث هو خطأ في ترجمة الكلمة الالمانية Eichel haher وقد أرسلت له رسالة شرحت فيها نظريتي حول «نقار الجوز» مقحماً فيها شتائم كثيرة واقتباسات خيالية من «بريم»، وقد اجاب نائب رئيس التحرير «كادلتشاك» بافتاحية في «أفق الفلاح». كان رئيسي السيد «فوخس» يجلس كالعادة في المقهى ويقرأ الصحافة الريفية لانه كان ينفق مؤخراً الكثير من الوقت وهو يبحث عن مصادر مقالاتي المثيرة المنشورة في «عالم الحيوان». وحين دخلت اشار الى عدد من «أفق الفلاح» كان موضوعاً فوق المنضدة وتحدث بهدوء وهو ينظر إليّ بذلك التعبير الحزين الذي لم يغادر عينيه اطلاقاً في الفترة الأخيرة. وقد قرأت بصوت عال في حضور زبائن المقهى ما يلي:

«سيدي المحترم:

لقد قمت بلفت انتباهكم الى حقيقة ان مجلتكم تقوم بطرح مصطلحات غريبة غير مبررة والى انها لا تبدي اي اهتمام بنقاء اللغة التشيكية وانها تخترع حيوانات عن مختلف الأنواع. وقد اوردت كمثال على ذلك انه بدلاً عن الاسم المعروف والمصطلح عليه منذ زمن بعيد الا وهو «أبو زريق» استعمل محرركم اسم «نقار البلوط» الذي استمده من ترجمة خاطئة للكلمة الالمانية Eichel haher وتعني أبو زريق».

كرّر صاحب الصحيفة بيأس من بعدي: «أبو زريق». ولكنني استأنفت القراءة بهدوء.

«ثم استلمت من محرر «عالم الحيوان» رسالة كانت مبتذلة ووقحة وموجهة الى شخصي بالذات، وقد اشار إليّ فيها على نحو اجرامي قائلاً اني

بغل لعين جاهل وهذا مما يستدعي توبيخه اشد التوبيخ. ليست هذه هي الطريقة التي يجيب بها الأشخاص المحترمون على النقد الموضوعي المثقف. وأود ان اعرف اي منا نحن الاثنان هو البغل الأكبر. ربما يكون صحيحاً انه كان من واجبي ألا اقوم بمراسلته بواسطة بطاقة بريدية، بل كان عليّ بالأحرى كتابة رسالة إليه، ولكنني نظراً لضغط العمل اغفلت هذه المسألة التافهة. والآن وبعد ذلك الهجوم المبتذل الذي شنّه محرر «عالم الحيوان» فإني مصمم على التشهير به علانية. ان محررك يرتكب خطأ فادحاً اذ يتصور اني بغل جاهل لا يعرف شيئاً عن تسميات الطيور. لقد انفقت الكثير من وقتي على علم الطيور واستمر ذلك سنوات بحالها، ولم أدرس هذا العلم من الكتب بل على الطبيعة. لديّ في اقصاي من الطيور اكثر بكثير مما رأى محررك طوال حياته، وهو الشخص الذي ينفق حياته مدفوناً في حانات براغ ومشارب «الجن» فيها، ولكن تظل هذه مسائل ذات قيمة ثانوية، رغم انه ما كان هناك اي ضير لو ان محرر «عالم الحيوان» قد ازعج نفسه قبل القيام بتلك النشاطات وعرف من هو الذي يتهمه بأنه بغل، خشية ان تصل «عالم الحيوان» الى «فريدلاندر» قرب «ميستك» في مورافيا، حيث كان لها قبل ظهور هذه المقالة مشتركون أيضاً. ليست هذه مسألة جدل شخصي مع أخرق مجنون بل مسألة حقائق. ولذا اكرر مرة اخرى انه أمر غير مسموح به اختراع اسماء عن طريق الترجمة حين يكون لدينا في لغتنا الاسم المعروف الشائع «أبو زريق». قال رئيسي بصوت اكثر قنوطاً حتى: «أجل، أبو زريق». ولكنني تابعت القراءة دون ان اسمح لأحد بمقاطعتي:

«إنها لنذالة محضة حين يرتكب ذلك من قبل الجهوليين والمخربين. ومن يا ترى سبق له وسمى «أبا زريق» باسم «نقار الجوز»؟ في كتاب «طيورنا» وعلى الصفحة (148) هناك الاسم اللاتيني: غانولوس نداريوس⁽¹⁾ ب.آ.

(1) الصحيح هو غارولوس غلانداريوس Garruls glandairus (س.ب.).

هذا هو طائري: «ابو زريق». ولكن محرر مجلتكم سيترف دون شك اني اعرف طيري اكثر من معرفة اي شخص عادي له. ووفقاً للدكتور «باير» فإن «نقار الجوز» يدعى «موسيفراغا»⁽¹⁾ كاريكاتيكتس ب» وان هذه ال«ب» لا تعني، كما كتب محررك في رسالته الحرف الاول من كلمة تشيكية بعينها. ان علماء الطيور التشيكيين لا يعرفون سوى «أبي زريق» العادي ولا يعرفون «نقار البلوط» الذي ما هو سوى اختراع ذلك السيد ومن بنات افكاره، والذي ينتمي إليه أيضاً حرف «ب». انه طعن فح شخصي لا يغير الحقائق. ابو زريق سيبقى ابا زريق حتى لو ان محرر «عالم الحيوان» قد بد... ل غضباً عليه، وهذا يثبت دون شك الى اي حد يمكن للناس ان يكونوا تافهين وغير موضوعيين لدى كتابتهم في المجالات، حتى لو اقتبسوا من «بريم» بأسلوب فح متفاخر. كما توقع ذلك المغفل الى حد انه كتب انه وفقاً ل«بريم» فإن ابا زريق ينتمي الى فصيلة التمساحيات (ص 452) حيث الاشارة هنا الى طائر «الصدر» الرمادي الاقل شأناً او طائر «النهس» العادي (لاينوس ماينور ل). ثم قام هذا المجهول - اذا كان لي ان استعمل هذا التعبير - بالاستشهاد بـ «بريم» مرة اخرى على انه مصدر تصريحه بأن ابا زريق ينتمي الى الفصيلة الخامسة عشرة. بينما يجعل «بريم» في الواقع الغربان تنتمي الى الفصيلة السابعة عشرة التي تتضمن الغداف الزرعي والزاغ الزرعي. انه مبتذل الى حد انه يدعوني بالزاغ الزرعي (كولايوس) واني من جنس العقعق. والغربان الزرقاء والفصيلة الثانوية «الابله المغفل» رغم ان الاشارة في الصفحة نفسها هي الى أبي زريق الغابات والعقعق المرقط...

تهند صاحب المجلة وقال: «أبو زريق الغابات» ثم وضع يديه فوق رأسه واستأنف يقول: «اعطني اياها حتى اكمل قراءتها بنفسي». ولقد ظننت انه قد فقد صوته حين استأنف القراءة:

(1) الصحيح «نوسيفراغا» Nucipwga وليس (موسيفراغا). (س. ب).

«ان» (الأوزيل الحلقي) او «الشحرور التركي» سيبقى بالترجمة التشيكية على الدوام «الأوزيل الحلقي» كما سيبقى «(السمن» هو «السمن».

قلت له: «يجب ان يُسمَى» السمن باسم «العرعور» او نقار العرعر لأنه يتغذى على العرعر الذي يصنع منه شراب الجن».

رمى السيد فوخس الصحف على المنضدة وزحف تحت طاولة البلياردو ثم تلفظ لاهثاً بآخر كلمات قرأها: «توردوس، اوزول حلقي».

ثم نبح من تحت طاولة البلياردو: «ليس أبا زريق، بل نقار جوز. أنا اعض ايها السادة!».

وأخيراً تم سحبه من تحت الطاولة ومات بعد يومين. مات من الانفلونزا الدماغية وهو في أحضان أسرته. وكانت كلماته الأخيرة في آخر لحظاته صفوا هي: «ليست المسألة مسألة مصالح شخصية بل الصالح العام. من وجهة النظر هذه ارجو وان تقبلوا حكمي الذي هو موضوعي بقدر...» وهنا حوزق.

توقف المتطوع عن الكلام ثم قال بلهجة ماكرة مخاطباً العريف:

- كل ما كنت اعنيه من ذلك انه بين الحين والآخر قد يجد كل امرئ نفسه في موضع محرج فيرتكب حماقة ما!

وعلى اية حال فإن الشيء الوحيد الذي فهمه العريف من هذا كله انه كان الوحيد الذي يرتكب الحماسة وهكذا أدار وجهه الى النافذة وراح يحرق بكآبة في المنظر الطبيعي المتراجع.

اظهر شفيك المزيد من الاهتمام بالحكاية. بينما نظر الحرس بغباء الواحد نحو الآخر.

قال شفيك:

- لا شيء يبقى طي الكتمان في هذا العالم. لا بد ان يسقط النور على كل

شيء في النهاية، كما سمعتم، بل ويتبين في النهاية ان أبا زريق الغبي ذاك ليس نفار جوز. من الممتع جداً ان يخدع اي شخص بحيلة كهذه، صحيح ان اختراع الحيوانات مسألة صعبة، ولكن تقديم الحيوانات التي اخترعت الى الجمهور اصعب بكثير. حدث مرة منذ سنوات في مدينة براغ ان كان هناك شاب اسمه «مستيك»، وقد اكتشف هذا حورية بحرية وراح يعرضها من خلف ستار في شارع هافليتشيك في فينوهرادي. في الستار كانت توجد فتحة، وكان باستطاعة كل شخص ان يرى في الإنارة الخافتة اريكة عادية او من تلك التي توضع في الجنائن، وامرأة من «جيجكوف» ممتدة عليها. كانت ساقاها ملفوفتين في شاش اخضر اللون وكان من المفروض ان يكون ذلك هو ذيلها. كما صبغ شعرها بالأخضر ولبست قفازات وضع عليها زعانف مصنوعة من الورق المقوى كانت أيضاً مطلية باللون الأخضر. كما وضع فوق عمودها الفقري نوع من الموجه مثبت بحبل. كان محظوراً على الشباب تحت سن السادسة عشرة الدخول، ولكن كان اولئك الذين تجاوزوا السادسة عشرة ودفعوا ثمن بطاقاتهم يستمتعون كثيرا اذ يكتشفون ان للحورية اردافاً ضخمة كتب عليها بالفرنسية «وداعا». اما بالنسبة لثديها فلم يكونا شيئاً يستحق الاهتمام، فقد كانا يتهدلان على بطنها كثدي مومس مستهلكة. في السابعة مساء كان مستيك يغلق محل الفرجة ذاك ويقول: «أيتها الحورية، يمكنك ان تذهبي الى البيت». وكانت هذه تذهب فتغيز ملابسها، وكنت تستطيع ان تراها في الساعة العاشرة ليلاً تذرع شارع تابورسكا وتقول دون اي تطفل لكل رجل تقابله: «حبيبي، ما رأيك ان تأتي لتلعب «الفيلوبينا» معي؟ ولأنه لم يكن لديها رخصة فقيد حبسها «دراشتر» مع مثيلاتها من المومسات ممن كان يمسك بهن خلال غاراته، وهكذا خسر مستيك تجارته.

في تلك اللحظة سقط كبير القساوسة عن المقعد ولكنه استمر بالنوم فوق أرض العربة. حدق العريف فيه بغباء. ثم خلال الصمت الذي ساد رفعه

الى المقعد مرة اخرى دون اية مساعدة من الآخرين. كان من الواضح انه فقد كل سلطة له، وحين قال بصوت ضعيف لا امل فيه: «هل لكم ان تساعدوني؟». نظر جميع الحرس إليه بجمود ولم يحرك اي منهم ساكناً. قال شفيك:

- كان يتوجب عليك ان تتركه ينام حيث كان. لم أكن افعل مثل هذا مع قسيسي. مرة تركته ينام في دورة المياه. ومرة نام فوق ظهر الخزانة، ومرة اخرى في جرن الغسيل في منزل شخص آخر، والله وحده يعلم كم من الامكنة الأخرى التي تمدد فيها ونام.

وفجأة اصيب العريف بنوبة من التصميم: لقد أراد ان يظهر انه كان سيد الموقف ولذا فقد قال بفظاظة:

- اغلق فمك وكفالك هذراً! الوصفاء جميعاً يهذرون كثيراً جداً. انت اسوأ من الهوام.

أجاب شفيك بهدوء الفيلسوف الذي يريد إحلال السلام الشامل في العالم كله فيدخل في جدالات حامية:

- طبعاً وانت هو الرب ايها العريف. انت «سيدة الأحزان السبعة».

صاح المتطوع وهو يفرك يديه:

- أيها الرب يا أبانا السماوي، املاً قلوبنا بحب كل ضباط الصف، حتى لا ننظر إليهم بكراهية. وبارك هذا الجمع الموجود في هذه الزنزانة ذات العجلات.

توهج وجه العريف وهاجمه قائلاً:

- امنعك من اي تعليق يا ذا السنة الواحدة.

استمر المتطوع بلهجة استرضائية:

- لا يمكنك ان تفعل اي شيء حيال ذلك. لقد حرمت الطبيعة كثيراً من

السلالات والفصائل الحيوانية من اي ذكاء مهما كان نوعه. هل سبق لك وسمعت شخصاً يتحدث عن الغباء الإنساني؟ او لم يكن افضل لك بكثير لو ولدت كنوع آخر من الثدييات ولم تتل ذلك الاسم الاحمق، اسم كائن إنساني وعريف؟ انك لترتكب خطأ عظيماً لو ظننت انك اكثر المخلوقات كمالاً وتطوراً. لو انتزعوا منك نجومك لأصبحت مجرد صفر يقتل في اي خندق او اي جبهة دون ان يكثرث بذلك اي شخص اطلاقاً. ولو منحوك نجمة اخرى وحولوك الى حيوان يدعى «الكادح العجوز» فلن يفيدك ذلك شيئاً. ان افقك الذهني سيصبح اكثر ضيقاً حتى، وحين تريح في مكان ما من الجبهة عظامك ذات النمو الثقافي الناقص لن يكون هناك في اوروبا من يذرف دموعاً واحدة عليك.

صاح العريف بيأس:

- سأضعك في السجن.

ابتسم المتطوع وقال:

- طبعاً تحب ان تضعني في السجن لأنني اطلقت عليك بعض الألقاب. ولكنك تكذب لأن قدراتك العقلية ليست اهلاً لفهم اية اهانات. هذا، وبغض النظر عن ذلك، اود ان أراهنك على أي شيء تريده أنك لن تتذكر كلمة واحدة من حديثنا هذا. لو قلت لك انك عبارة عن جنين، فسوف تنسى ذلك ليس قبل وصولنا الى المحطة التالية بل قبل ان يمر بنا عمود التلغراف القادم. أنت قطعة من مادة رمادية ميتة، لا أستطيع ان اتخيل انك تستطيع اطلاقاً ان تقدم تقريراً بما قلته لك. وبصرف النظر عن ذلك تستطيع ان تسأل اي شخص تريد ان كانت كلماتي تحتوي على اقل اشارة الى أفقك الذهني او ان كنت قد أهنتك بأية طريقة من الطرق.

أكد شفيك هذا الكلام قائلاً:

- عجباً، بالطبع لا! لم يقل لك احد هنا ولو كلمة واحدة تستطيع ان

تعطيها تفسيراً خاطئاً. انه لأمر سيء جداً ان يشعر اي شخص انه قد أهين. مرة كنت جالساً في المقهى الليلي «النفق» وتحدثنا حول الاورانغ- او تانغ. وكان احد البحارة جالساً معنا وقال لنا انه لا يمكن غالباً تمييز قرد من نوع الاورانغ- او تانغ عن مواطن عادي ذي لحية، فذقن الاورانغ- او تانغ مغطاة بخصل من الشعر ك... ك... كذقن ذلك السيد الجالس إلى المنضدة المجاورة. وقد التفتنا جميعاً نحو ذلك الرجل الذي نهض وصفح البحار على وجهه، ولكن البحار ضربه على رأسه بزجاجة جعة فسقط الرجل المتلحي أرضاً وتمدد هناك دون وعي. وقد وذعنا البحار لأنه هرب فوراً حين رأى انه كاد يقتل الرجل ثم أعدنا الرجل الى وعيه، وكان الأحرى بنا ألا نفعل ذلك، حيث انه ما ان استفاق حتى نادى على الشرطة واشتكتانا جميعاً، رغم انه لم تكن لنا اية علاقة على الاطلاق بما حدث، وقد اقتادتنا الشرطة الى المخفر. وهناك قال للشرطة اننا حسبناه قرداً من نوع الاورانغ - او تانغ واننا كنا نتحدث عنه بالذات وليس عن اي شخص آخر. هذا ما قاله، ولكننا عارضنا ذلك وقلنا انه لم يكن اورانغ او تانغ. فقال اجل انه كذلك فقد سمع هذا الامر بأذنيه. وقد طلبت من مفوض الشرطة ان يشرح له الموضوع. وقد شرح له ذلك بكل مودة، ولكن ذلك الرجل ما كان يريد ان يستمع الى اي شيء وقال للمفوض انه لا يفهم شيئاً عن الموضوع واتهمه بأنه متحالف معنا. وهكذا حبسه المفوض حتى يستفيق من سكره، وقد أردنا العودة الى «النفق»، ولكننا لم نستطع حيث اننا وضعنا في السجن نحن أيضاً. وهكذا ترى ايها العريف ما يمكن ان ينجم عن سوء تفاهم صغير وتافه لا يستحق الذكر. في «اوكرهليتسه» أيضاً عاش مواطن كان غالباً ما يشعر بالانزعاج حين يقولون له في «نيسمكي برود» انه ثعبان هندي. وهناك كلمات كثيرة من هذا النوع وهي ليست اجرامية أبداً، مثلاً: لو قلنا لك إنك فأر مسك، هل كنت ستغضب منا حقاً ولأي سبب من الاسباب؟

زعم العريف، لا يمكن ان نقول انه زمجر، فالغضب والعنف واليأس،

امتزجت جميعاً في سلسلة من الأصوات القوية، واكتمل ذلك الجزء من الحفلة الموسيقية بصوت الضفير الذي كان كبير القساوسة يؤديه خلال شخيره من أنفه.

بعد الزعيق حلت الكآبة التامة. جلس العريف على المقعد وثبت عينيه الدامعتين الخاليتين من اي تعبير على الغابات والجبال البعيدة.

قال المتطوع:

- أيها العريف، حين تحدق في الجبال المتنهدة والغابات العطرة تذكرني بشخصية «دانتى». لك الوجه النبيل نفسه الذي كان للشاعر، فأنت رجل طيب القلب والروح سريع التأثر بالعاطفة النبيلة. ارجوك ان تفضل وتستمر بالجلوس هناك. هذا يلائمك تماماً. يا له من وحي غير ممتزج بالاصطناع او التفاخر، ذاك الذي تحدق بواسطته في الريف. لا شك وانك تفكر كم سيكون المنظر جميلاً في الربيع حين تكسني هذه البقع المجدية ببساط من المروج الملونة البهيجة...

قال شفيك:



- وسيعانق ذلك البساط نهر صغير بينما العريف يلحق قلمه وهو يجلس فوق جذل الشجرة ويكتب قصيدة صغيرة عنوانها «الى القارئ الشاب».

اصبح العريف في حالة من اللامبالاة التامة بينما افاد المتطوع انه رأى بكل تأكيد منحوتة رأس العريف معروضة في احد معارض النحت:
- اعذرني ايها العريف، أليس صحيحاً انك جلست مرة كموديل للنحات العظيم «شتورسا»؟

نظر إليه العريف وقال بحزن:

- لا، لم يحدث.

صمت المتطوع وتمدد فوق المقعد.

كان رجال الحرس يلعبون الورق مع شفيك. ومن شدة يأسه كان العريف يتطفل على اللعب بين الحين والحين بل سمح لنفسه مرة ان يقول ان شفيك قد لعب ورقة الآس البستوني وان تلك كانت لعبة خاطئة ما كان عليه ان يلعب بالورقة الرابعة بل ان يبقي ورقة السبعة كحيلة اخيرة في يده.

قال شفيك:

- في الحانات اعتدنا سماع تعليقات جيدة جداً حول المتطفلين على لعب الورق. واتذكر واحدة منها: «أيها المتطفل، امسك عليك لسانك او ارميك أرضاً».

دخل القطار العسكري المحطة حيث سيتم تفتيش العربات. توقف القطار.

قال المتطوع دون هوادة وهو ينظر نظرة العارف الى العريف:

- حسناً بالطبع، فقد وصلنا إلى التفتيش.
دخل المفتشون الى العربية.

* * *

كان الضابط الاحتياطي الدكتور «مراز» قد عيّن من قبل هيئة الاركان قائداً للقطار العسكري.

كانوا يدفعون دائماً بالضباط الاحتياطيين الى استلام الأعمال السخيفة من هذا النوع وكان الدكتور «مراز» قد سبق له وفقد صوابه من هذا العمل. ها هو لا يستطيع حتى الآن ان يعرف مصير إحدى العربات، رغم انه كان في الحياة المدنية مدرساً للرياضيات في مدرسة ثانوية حديثة. وزيادة على ذلك فإن عدد الرجال المفروض ان يتواجدوا في مختلف العربات في المحطة الأخيرة لم يتناسب مع الرقم الذي اعطي له بعد ان جلس كل شخص في مكانه في القطار في بوديوفيتسه، وحين نظر الى أوراقه تبين له فجأة ظهور مطبخين ميدانيين زيادة عن المتوقع. كما ان اكتشافه ان الجياد قد زاد عددها بطريقة غامضة جعل الرجفة تتاب عموده الفقري. وفي لائحة الضباط لم يستطع ان يجد طالين ضابطين مفقودين. في العربية الاولى حيث ديوان الفوج كانوا يبحثون طوال الوقت عن آلة كاتبة. وقد سببت له هذه الفوضى كلها صداعاً. كان قد سبق له وتناول ثلاث حبات من الاسبرين وها هو يفتش القطار الآن وأمارات الألم بادية على وجهه.

وحين دخل عربة السجن مع زميله نظر الى الاوراق، وبعد ان استمع الى تقرير العريف الذاهل حول اصطحابه لسجينين وعدد من الحرس، تحقق المفتش مرة اخرى من خلال الوثائق من صحة المعلومات ونظر حواليه.

سأل بشدة وهو يشير الى كبير القساوسة النائم على بطنه والذي كانت مؤخرته تشير نحو المفتشين على نحو استفزازي:

- ومن هذا الذي معك؟

تلعثم العريف قائلاً:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انه شخص مجهول الاسم...

زمجر الدكتور «مراز»:

- ما الذي تعنيه بمجهول الاسم؟ عبر عن نفسك بوضوح.

اجاب شفيك نيابة عن العريف:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي ان هذا السيد النائم على بطنه هو كبير قساوسة فعل فيه الشراب فعله. لقد تطفل علينا ودخل العربية، وبسبب انه ضابط ذو رتبة عالية لم نستطع ان نزميه من العربية حتى لا نتحصل مخالفة لواجبات الخضوع لمن هم أعلى رتبة منا. لقد حسب دون شك ان عربة السجن هي عربة الضباط.

تنهد الدكتور «مراز» ونظر في اوراقه. لم يكن فيها اي ذكر لأي كبير قساوسة سيذهب الى «بروك» بالقطار. ارتعشت عينه بعصبية. في المحطة الاخيرة كانت لديه زيادة في الجياد وها هو كبير قساوسة يبرز له الآن فجأة من عربة السجن.

لم يستطع ان يفعل اي شيء زيادة على ان يأمر العريف بقلب الرجل على ظهره اذ لم يكن ممكناً في وضعه الحالي وهو نائم على بطنه، تمييز هويته. وبعد جهود مطولة قلب العريف كبير القساوسة على ظهره، وكان قد استيقظ خلال تلك المحاولة، وحين رأى الضابط امامه قال بالالمانية: «مرحباً، سرفوس يا فريدي. ما هي الاخبار؟ هل العشاء جاهز؟» ثم اغمض عينيه مرة اخرى والتفت نحو الجدار.

رأى الدكتور «مراز» فوراً ان ذلك لم يكن سوى ذلك الشره الذي كان في مطعم الضباط في الليلة السابقة والذي ابتلع كل حصص الضباط من الطعام، وهنا تنهد بسرعة.

قال للعريف:

- ستمثل امام لجنة التأديب بسبب هذا.

وكان يود الرحيل حين اوقفه شفيك وقال:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني لا انتمي الى هنا. من المفترض ان اسجن حتى الساعة الحادية عشرة فحسب، حيث ان محكوميتي تنتهي اليوم. لقد حكمت بثلاثة ايام وخدمتها ومن المفروض ان اذهب الآن واجلس مع الآخرين في عربات المواشي. وبما ان الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بكثير فإنني اطلب منك يا سيدي ان تفضل فتأمر بإخلاء سبيلي ووضعني في عربة المواشي حيث انتمي، او تحت تصرف الملازم الأول لو كاش.

سأله الدكتور «مراز» وهو ينظر في أوراقه مرة اخرى:

- ما اسمك؟

- شفيك، يوسف، ابلغكم بتواضع يا سيدي.

- هاهه، إذا فأنت هو ذلك الشفيك الشهير، صحيح انه كان يتوجب اطلاق سراحك في الحادية عشرة، ولكن الملازم الأول لو كاش طلب مني ألا اطلق سراحك حتي نصل الى «بروك». قال ان الامر اسلم هكذا وذلك حتى لا تسبب في اي اذى على الطريق.

بعد رحيل المفتشين لم يستطع العريف ان يمنع نفسه من التعليق اللاذع فقال:

- وهكذا ترى يا شفيك ان محاولتك اللجوء الى سلطة أعلى لم تفدك ولو حتى بشيء من البراز. لو اردت لجعلتكما تذوقان الجحيم كلاكما.

قال المتطوع:

- ايها العريف، ان الرمي بالبراز شكل معقول تقريباً من اشكال النقاش، ولكن لا يجب على الرجل الذكي أن يستعمل مثل هذا الكلام ان كان

غاضباً، او اذا أراد ان يهاجم اي شخص. ثم فيما يخص تهديدك بجعلنا ندوق الجحيم، لماذا بحق جهنم لم يفعل ذلك حين واتك الفرصة؟ هذا يكشف عن نضجك الفكري العظيم وحساسيتك النادرة.

قال العريف وهو يقفز واقفاً:

- كفى! استطيع ان آخذكما الى السجن كليكما.

سأل المتطوع ببراءة:

- بأية حجة؟ بحجة الهروب؟

قال العريف وهو يسترجع شجاعته:

- هذا شأني!

قال المتطوع مبتسماً:

- شأنك وشأننا. مثل لعبة الورق بالضبط. «خالتي - خالتك». بل اود ان

اقول بالأحرى ان الاشارة الى تقديمك الى لجنة التأديب قد ازعجتك. ولهذا بدأت تصرخ فينا على نحو مناف للتعليمات الرسمية بالطبع.

قال العريف وهو يستجمع آخر ما تبقى فيه من شجاعة حتى يبدو مخيفاً:

- أنت خنزير مبتدل!

قال شفيك:

- سأقول لك شيئاً أيها العريف. أنا جندي قديم، لقد خدمت في الجيش

قبل الحرب واقول لك انك لن تبصل الى اي مكان باللغة البديئة. اتذكر اني

حين خدمت منذ سنوات خلت كان معنا في السرية ضابط صف عجوز

اسمه «شرايتر» يخدم لقاء لا شيء كما يقول المثل. كان يمكنه التقاعد منذ

زمن طويل برتبة عريف ولكنه كان مخبولاً بعض الشيء. لقد اعتاد ذلك

الرجل ان يهاجمنا نحن الجنود ويلتصق بنا كما البراز بالقميص. ولم يكن

ذلك صواباً، ولكنه كان حينها يتصرف ضد كل الأنظمة. كان يتنمر علينا

الى أبعد حد ويقول لنا دائماً: «أنتم لستم جنوداً بل مجموعة من النواطير

القدرين». وفي احد الأيام فقدت صبري وتقدمت الى لجنة التأديب. سألني

النقيب. «ماذا تريد؟» قلت: «ابلغكم بتواضع يا سيدي اني اريد ان اشتكي رقيبنا الاول شرايتر: فنحن رغم كل شيء جنود الامبراطور ولسنا مجموعة من النواطير القدرين. نحن في خدمة صاحب الجلالة الامبراطورية ولسنا نواطير على اشجار الفاكهة». اجابني النقيب: «استمع ايها الحشرة، ابعد عن وجهي!» وهكذا طلبت منه بكل طاعة ان يتفضل فيقدمني الى لجنة تأديب الكتيبة. وفي لجنة تأديب الكتيبة، حين شرحت للمقدم أننا لسنا نواطير بل جنود الامبراطور. حبسني هذا لمدة يومين، فطلبت التقدم الى لجنة تأديب الفوج. وحين شرحت الامر امام هذه اللجنة زمجر العقيد في وجهي قائلاً اني احمق لعين وان عليّ الذهاب الى جهنم. وهكذا اجبت مرة اخرى: «ابلغكم بتواضع يا سيدي اني اطلب تقديمي الى لجنة تأديب اللواء». وقد خاف العقيد من ذلك وطلب حلاً حضور الرقيب الأول شرايتر الى المكتب، وكان على هذا ان يعتذر لي في حضور كافة الضباط عن عبارة «نواطير قدرين». وبعد ذلك لحق بي في الساحة وقال انه لن يشتمني من الآن فصاعداً بل سيطاردني حتى سجن الحامية. ومنذ ذلك الحين كنت في منتهى الحذر ولكني ليس بما فيه الكفاية. مرة كنت واقفاً كخفير عند المستودع وكان من عادة كل خفير ان يكتب شيئاً ما على الجدار. كانوا إما يرسمون الاعضاء الجنسية للمرأة او يكتبون قصيدة صغيرة. لم استطع أنا ان اخرج بأية فكرة فكان ان وضعت توقيعى. ومن شدة الملل، تحت كتابة تقول: «شرايتر العجوز أبله». وقد قام ذلك الرقيب الأول الخنزير بالتبليغ عني فوراً حيث كان يلاحقني ككلب الصيد. ولسوء الحظ كان فوق تلك الكتابة كتابة اخرى تقول: «نحن لن نذهب الى الحرب، بل نبرز عليها». وكان ذلك بتاريخ عام (1912) حين كنا على وشك المسير نحو الصرب بسبب ذلك القنصل المسمى «بروخاسكا»⁽¹⁾ وهكذا ارسلوني فوراً الى «تريزين» لأقدم الى محكمة المقاطعة. وقد قام السادة اعضاء المحكمة

(1) في عام (1912) شنت الحكومة النمساوية حملة صحفية ضد الصرب على اساس التهمة التي لا اساس لها والتي تقول ان قنصلها في «بريتسرن» واسمه «بروخاسكا» قد اسبغت معاملته. وفي الواقع فإن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث له. (س. ب).

العسكرية بتصوير ذلك الجدار قرب المستودع حوالي خمس عشرة مرة مع الكتابات وتوقيعي عليه، وقد جعلوني اكتب عشر مرات عبارة: «نحن لن نذهب الى الحرب، بل سنبرز عليها». حتى يتحققوا من خطي. كما اضطررت خمس عشرة مرة الى ان اكتب امامهم «شراير العجوز ابله» وفي النهاية وصل خبير في الخطوط وجعلني اكتب: «في التاسع والعشرين من تموز (يوليو) من عام (1897) حين عرفت «دفور كارلوفي» الواقعة على نهر الالبه احوال فيضان هذا النهر». قال ممثل النيابة العسكرية: «هذا لا يكفي ان ما يهمنا هو البراز. امل عليه شيئاً فيه الكثير من حروف الباء والراء والزاي» وهكذا املى عليّ ما يلي:

«كرز، كبير، قرش، باشا، مأمور، مشبوه، رعا». وقد جن جنون ذلك الخبير بالخطوط. كان ينظر باستمرار الي ذلك الجندي الواقف خلفه وحرته مشرعة واخيراً قال انه جميل مضطر الى ارسال ذلك كله الي فيينا وأن عليّ ان اكتب ثلاث مرات متتاليات: «وتبدأ الشمس تسعفنا أيضاً. انها دافنة على نحو جميل». وقد ارسلت المواد كافة الي فيينا وكانت النتيجة ان تلك الكتابات على الجدار لم تكن بخط يدي، ولكن التوقيع توقيعي حيث اني اعترفت بذلك. وهكذا حكم عليّ بستة اسابيع لأنني وقعت على ذلك خلال قيامي بواجب الحراسة، كما قالوا اني لم اكن اقوم بواجبي كما يجب حين ارتكبت ما ارتكبته.

قال العريف بارتياح:

- إذاً من الواضح انك لم تنج دون عقاب وانك مجرم حقيقي. لو كان الأمر بيدي وليس بيد تلك المحكمة لكنت حكمت عليك بستة اعوام وليس ستة اسابيع فحسب.

قاطعهُ المتطوع قائلاً:

- لا تكن شنيعاً الى هذا الحد وفكر بدلاً عن ذلك في النهاية التي تنتظرك أنت. منذ فترة ليست بالبعيدة قال لك المفتش انك ستقدم الى لجنة

التأديب. وعليك ان تجهز نفسك لمثل هذه المسألة جدياً وتفكر في آخر لحظاتك كعريف. ما أنت بالمقارنة مع الكون حين تعرف ان اقرب نجم ثابت إلينا أبعد بـ(275000) مرة عن هذا القطار من بعد الشمس عنه وان منظوره لا يبلغ سوى ثانية واحدة من الدائرة؟ لو كنت نجماً ثابتاً في الكون لكنت بكل تأكيد اصغر بكثير من ان تستطيع أفضل الأدوات الفلكية تمييزك. ان تفاهتك في الكون تتحدى التعريف. فلمدة نصف عام ستصنع في السماء قوساً دقيقاً، وخلال عام ستتحول الى قطع ناقص دقيق سيكون اصغر من ان يعبر عنه بالارقام. اما منظورك فإنه يتحدى القياس.

قال شفيك:

- ان كانت الحال على هذا المنوال فإنه يتوجب على العريف ان يفخر بحقيقة انه ليس بمقدور اي كان قياسه، وان عليه مهما كانت نتائج المشول امام لجنة التأديب ان يكون رابط الجأش والأيستثار لأن في الاستثارة خطر على الصحة، وعلينا في زمن الحرب هذا ان نعنتي بصحتنا، لأن اجهادات هذه الحرب تتطلب من كل فرد منا الا يكون ضعيف الجسم والعقل.

ثم استأنف شفيك مع ابتسامة عذبة:

- لو وضعوك في السجن أيها العريف او اذا عانيت من اي ظلم، فلا تيأس، ولو كانت لهم آراؤهم فعليك الالتزام برأيك الخاص. عرفت مرة بائع فحم حبس معي في مقر رئاسة الشرطة في براغ بتهمة الخيانة العظمى في بداية الحرب، واسمه «فرانتيشيك شكفور»، وربما اعدم لاحقاً. بموجب مرسوم او ما شابه. حين سئل هذا الرجل خلال التحقيق ان كان يعترض على ما ورد في البيانات قال:

«كيفما كان الأمر فقد كان.

لم يحدث أبداً ما لم يكن حتى الآن».

وبعد ذلك وضعوه في زنزانة مظلمة ومنعوا عنه الطعام والشراب مدة

يوميين ثم احضروه الى التحقيق مرة اخرى. ولكنه استمر في الاصرار على انه كيفما كان الامر فقد كان. لم يحدث أبداً ما لم يكن حتى الآن. وربما ذهب بعد ان حاكموه في محكمة ميدانية الى المشنقة.

قال احد الحراس:

- يقولون انهم كثيراً ما يشنقون الناس او يطلقون عليهم النار في هذه الأيام. منذ فترة ليست بالبعيدة قرؤوا علينا في ساحة التدريب أمراً بأنهم اعدموا بالرصاص في «موتول» الاحتياطي المدعو «كودرنا» لان النقيب ضرب بسيفه ابنه الصغير الذي كان بين ذراعي أمه حين أنت لتودعه في «بينشوف». واثارت نائرة صاحبنا هذا. كما ان «السياسيين» يسجنون هنا بالطبع. كما أعدموا بالرصاص محرراً صحفياً في مورافيا، وقال لنا نقيبنا ان هذا المصير نفسه ينتظر الآخرين الآن.

قال المتطوع بلهجة يشوبها الغموض:

- لكل شيء حدوده.

قال العريف:

- أنت على حق. هذا ما يستحقه اولئك المحررون، فهم لا يفعلون شيئاً عدا اثاره الناس. في العام الماضي حين كنت لا أزال وكيل عريف بعد، كان يخدم تحت امرتي احد المحررين وكان يسميني «كارثة على الجيش»، ولكن حين كنت ادربه على القتال غير المسلح كان العرق يتصبب منه فيقول لي دائماً: «ارجو ان تحترم الإنسان الذي في». ولكني اريته الجحيم كونه إنساناً وذلك حين اعطيته الامر بالانبطاح والساحة مليئة ببرك مياه المطر. لقد اخذته الى احدى تلك البرك وكان على ذلك النغل ان يسقط فيها حتى يتناثر منها الماء كأنها بركة سباحة. وفي فترة ما بعد الظهر كان عليه ان يرتدي كامل ملابسه وهي نظيفة تماماً، وان تكون بزته لامعة كالدبوس الجديد، وكان يفرك ويشن ويهمهم. وفي اليوم التالي كان مرة

اخرى كالخنزير الذي يتمرغ في الطين وكنت اقف فوقه واقول: «وهكذا ترى ايها السيد المحرر ما هو الشيء الالهيم، تلك الكارثة على الجيش ام ذلك الإنسان خاصتك؟» لقد كان رفيع الثقافة بكل ما في الكلمة من معنى، بالفعل!

نظر العريف بانتصار نحو المتطوع ثم تابع قائلاً:

- بسبب كونه رفيع الثقافة فقد خسر رتبته كمتطوع لسنة واحدة، فقد كتب الى الصحافة عن سوء معاملة الجنود. ولكن كيف يمكنك ألا تسيء معاملته حين لم يكن باستطاعة شخص متعلم مثله ان يفك مؤخرة البندقية حتى بعد ان فككتها أمامه عشر مرات؟ وحين كنت اقول له: «يساراره» كان يدير رأسه الحمقاء الى اليمين كأنما عن قصد ويحذق طوال الوقت كبقرة عجوز. وخلال التدريب على البنادق لم يكن يعرف ما الذي يمسكه اولاً: الحمالة ام مخزن الذخيرة. وحين كنت أريه كيف يجب ان تنزل ذراعه على الحمالة، كان يحمق في كعجل يحذق في باب جديد. لم يكن يعرف حى على اي كنف يسند بندقيته وكان يحيي كالقرود، وحين كان عليه ان يمارس الدوران، فليساعدا الله، فيالها من حركات تلك التي كان يقوم بها عند المسير. وحين تعلم كيف يخطوا! وحين كان يؤمر بالدوران نحو الخلف فقد كان سواء عنده أدار على الساق اليسرى ام اليمنى. دوب! دوب! دوب! كان يخطو ست خطوات الى الأمام وعندها فحسب يستدير كديك فوق طاحونة. وحين كان يسير كانت خطوته اشبه بخطوات رجل مصاب بداء النقرس او انه كان يرقص في ارجاء المكان كعاهرة في معرض الابرشية.

بصق العريف ثم استأنف فقال:

- وقد اعطيت له عن قصد بندقية صدئة جدا من المستودع وذلك حتى يتعلم كيف ينظفها وقد فركها كما يفرك الكلب الكلبة، ولكنه حتى لو

اشترى كيلو غرامين من نسالة الكتان ما كان سيقدر على تنظيفها على النحو الصحيح. فكلما فرکہا كلما اصبحت اشد صدأً، وكانت بندقيته عند كل اجتماع تمرر من يد الى أخرى ويندهش الجميع كيف يمكن ان تكون تلك البندقية مجرد صدأ لا غير. لقد اعتاد نقيينا ان يقول له انه لن يصبح جندياً على الإطلاق، وانه من الأفضل له لو ذهب وشنق نفسه وإن خبز الجيش ضائع فيه. ولكن كل ما كان يفعله هو ان يرمش بعينه تحت نظارتيه. كان يوماً مشهوداً بالنسبة إليه ذلك اليوم الذي لا يعاقب فيه بالحبس المشدد ان يحرم من الخروج من الثكنة. وكان يمارس كتابة مقالاته كالعادة ويرسلها الى الصحف، وكلها حول موضوع اساءة معاملة الجنود حتى قاموا في احد الايام بتفتيش أمتعته ويا الهي كم كان معه من الكتب! وكلها تدور حول نزع السلاح والسلام العالمي. وبسبب ذلك اضطر الى الانتقال الى سجن الحامية ومنذ ذلك الحين نعمنا بالسلام حتى عاد ليظهر فجأة في الديوان، حيث كان عمله هو املاء استمارات تعيينات الطعام حتى لا يكون للرجال اي احتكاك معه. وكانت تلك هي النهاية لذلك المثقف رفيع الثقافة. كان يمكنه ان يصبح شخصاً آخر مختلفاً تماماً لو لم يفقد ميزاته كمتطوع وذلك بسبب غبائه. كان يمكنه ان يصبح برتبة ملازم أول.

تنهد العريف ثم استأنف قائلاً:

- ما كان يستطيع حتى ان يجعل طيات معطفه الخارجي على النحو المطلوب. وكان يطلب من براغ مختلف انواع السوائل والورنيش لتنظيف الأزرار ومع ذلك فإن أزراره كانت تبدو صدئة ومحمرّة كعيسو⁽¹⁾، ولكنه لم يكن يستطيع ان يهذر بمقدار ذاك حتى! في الديوان كان لا يفعل شيئاً آخر عدا ان يتفلسف. كان لديه ولع بذلك من قبل. وكما قلت فقد كان يلح دائماً على كونه «إنساناً» ولا شيء آخر. ومرة حين كان يتأمل في بركة من

(1) عيسو: وتعني بالعبرية «المشعراني» وهو ابن يعقوب. وقد باع اخاه الاصغر (ويقال التوام) حقوق البكرية بصحن علس. (المترجم).

الطين عليه ان ينبطح فيها، قلت له: «طالما انك تتحدث باستمرار عن الإنسان حتى وانت في الطين تذكر ان الإنسان قد خلق من تراب الأرض ولا بد ان يكون هذا الانبطاح مؤثياً له».

بعد ان قال ما أراد كان العريف مسروراً بنفسه وانتظر ما سيقوله المتطوع. ولكن شفيك هو الذي تحدث فقال:

- بالنسبة لهذا النوع نفسه من الامور، وفيما يخص سوء المعاملة التي من هذا النوع. حدث منذ اعوام ان طعن شخص اسمه «كونيتشيك» نفسه وطعن عريفه أيضاً وذلك في الفوج الخامس والثلاثين. لقد قرأت عن ذلك في صحيفة «كورير». لقد اصيب العريف بنحو ثلاثين طعنة في جسمه، كانت اثنتا عشرة طعنة منها قاتلة. بعد ذلك جلس الجندي فوق جسد العريف الميت وطعن نفسه وهو جالس هناك، وكانت هناك حادثة اخرى منذ سنوات في «دالماتيا»⁽¹⁾ حيث ذبحوا عريفاً ولا يعرف احد حتى الآن من ارتكب ذلك. لقد ظل الأمر محاطاً بالسرية وكل ما عرف عن الموضوع ان العريف كان يسمى «فيالا» وهو من سكان «دراوفنا» قرب «تورنوف». ثم سمعت عن عريف آخر من الفوج الخامس والسبعين يسمى «ريمانيك»..

وقد تمت مقاطعة هذه الحكاية اللطيفة بأناة صادرة عن المقعد حيث كان كبير القساوسة «لاتسينا» نائماً.

استيقظ الأب المحترم بكل جماله ووقاره. وقد واكبت استيقاظه تلك الظواهر نفسها التي كانت تواكب المارد الشاب «غارغانوتا» كما وصفه «رابليه» ذلك العجوز المرح.

ضرب كبير القساوسة ثم تجشأ وهو على المقعد وبعدها تئاب على نحو هائل. واخيراً جلس. وسأل مندهشاً:

- كروزيلادون، أين أنا.

(1) جزء من الساحل اليوغوسلافي. (المترجم).

حين لاحظ العريف ان الشخصية العسكرية قد استيقظت اجابها بكل تذلل:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انكم ايها الموقر قد تفضلتم وتواجدتم في عربة السجن.

لمعت الدهشة على وجه الاب الموقر. جلس للحظة في صمت وحاول بكل جهده ان يستجمع افكاره. ولكن دون جدوى. كان هناك محيط من الغموض يفصل بين الذي حدث له منذ بواكير الصباح وحتى استيقاظه في عربة على نوافذها قضبان حديدية.

وفي النهاية سأل العريف الذي كان لا يزال واقفاً بتذلل امامه:

- وبناء على أوامر من أنا موجود هنا... أنا...؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انكم هنا بناء على أوامر لا احد. نهض الأب الموقر وبدأ يذرع المسافة بين المقاعد جيئة وذهاباً وهو يهمهم لنفسه انه لم يفهم.

جلس مرة أخرى وقال:

- والى اين نحن ذاهبون؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي: الى «بروك».

- ولماذا الى «بروك»؟

- ابلغكم بتواضع يا سيدي ان الفوج الواحد والتسعين بأسره قد نقل الى هناك.

حاول الأب الموقر مجدداً وهو يبذل قصارى جهده ان يتقّب في ذاكرته عما حدث له بالفعل، كيف دخل العربة والسبب في دخوله العربة الذاهبة الى «بروك» والأهم من ذلك مع الفوج الواحد والتسعين وتحت الحراسة.

كان قد صحا على نحو كاف من أثر الشراب بحيث استطاع ان يميز المتطوع فالتفت نحو وسأله:

- انت شخص ذكي. هل يمكنك ان تشرح دون المزيد من الهذر ودون إخفاء اي شيء كيف انضمت إليكم؟
قال المتطوع بلهجة ودية:

- بكل سرور. حين كنا على وشك ان نركب القطار انضمت إلينا عند المحطة في الصباح حيث كنت قد شربت قطرة زيادة عن المألوف.
نظر إليه العريف بتجهم ولكن المتطوع تابع يقول:

- لقد دخلت الى عربتنا وحصل ما حصل. ثم تمددت على المقعد ووضع شفيك هذا معطفه تحت رأسك. وحين تم تفتيش القطار في آخر محطة وضعت ضمن قائمة الضباط المسافرين فيه. لقد تم، كما يقال، اكتشافك رسمياً وسيضطر عريفنا الى ان يمثل امام لجنة التأديب بسبب ذلك.
تنهد الأب الموقر وقال:

- حسناً، حسناً، تدبروا أمر نقلي الى عربة الضباط في المحطة التالية. هل تعرفون يا ترى ان كانت وجبة الغداء قد قدمت ام لا بعد؟
قال العريف:

- لن يقدم الغداء حتى فيينا يا سيدي.

قال الأب الموقر لشفيك:

- إذا انت من وضع معطفه تحت رأسي. شكراً جزيلاً.

أجاب شفيك:

- لا استحق اي شكر. فقد تصرفت كما قد يتصرف اي جندي حين يرى ضابطاً ذا رتبة أعلى ولا شيء تحت رأسه ونه... ما اسم ذلك الشيء؟ على كل جندي ان يحترم من هم أعلى رتبة منه، حتى لو كان في حالة من

البحران. لديّ تجربة كبيرة مع القساوسة فقد خدمت كوصيف للقسيس اوتوكاتس. القساوسة اشخاص مرحون ودودون.

اخرج كبير القساوسة، الذي أصيب بنوبة من الديموقراطية نتيجة لآثار الشراب الذي تناوله في اليوم السابق، لفاقة تبغ، وقدمها الى شفيك قائلاً:
- خذ لك «شحطة» يا ولدي!

ثم قال للعريف:

- وهل ستقدم الى لجنة للتأديب بسببي؟ لا تقلق. سأخرجك من هذه الورطة. لن يحدث لك اي مكروه.

ثم التفت نحو شفيك وتابع قائلاً:

- اما بالنسبة إليك فسأخذك معي. ستعيش معي براحة كما لو فوق فراش من الريش.

لقد اصيب بنوبة جديدة من الشهامة وراح يلح على انه سيفعل شيئاً ما لكل واحد منهم. سيشتري الشوكولاته للمتطوع والروم للحرس. وسيعمل على نقل العريف الى قسم التصوير في هيئة اركان الفرقة السابعة للفرسان. سيحررهم جميعاً ولن ينسأهم أبداً.

ثم بدأ يوزع لفافات التبغ من علبته ليس على شفيك فحسب بل على الجميع، وصرح بأنه قد سمح للسجناء كافة بالتدخين وانه سيفعل ما بوسعه لتخفيض مدة عقوبتهم وإعادتهم الى حياتهم العسكرية الاعتيادية.

- لا اريدكم ان تظنوا بي الظنون. لديّ علاقات كثيرة ولن اخذلكم. تبدوون لي اشخاصاً شرفاء يحبهم الرب. اذا كنتم قد ارتكبتم الخطيئة فأنتم تكفرون عن افعالكم وأرى انكم تتحملون بكل سرور ما كتبه الله عليك.

ثم التفت نحو شفيك وقال:

- ما السبب في عقوبتك؟

أجاب شفيك بورع:

- لقد كتب الله عليّ العقوبة وذلك على يد لجنة تأديب الفوج يا سيدي نتيجة لتأخري في الوصول الى فوجي بسبب غلطة ليست غلطتي.

قال كبير القساوسة برزانة:

- الله واسع الرحمة والعدل ويعرف من يعاقب ويكشف من خلال ذلك عن حكمته وقدرته الكلية. ولماذا أنت في السجن أيها المتطوع؟
قال المتطوع:

- لأن الرب الرحيم كان شفوفاً الى حدّ انه كتب عليّ الروماتيزم بينما ازددت أنا اعتزازاً بنفسي. بعد ان أمضي عقوبتي سأرسل الى المطبخ.
قال الأب الموقر بحماسة حين سمع عن المطبخ:

- ما يقضي به الله فإنه يقضي به على افضل وجه. حتى هناك في المطبخ يمكن للرجل الشريف ان يحرز نجاحاً في عمله. المطبخ هو المكان الذي يتوجب ان يوضع فيه الاشخاص الأذكياء من امثالك بسبب كثرة وتنوع الصفات المختلفة للأطعمة. وما يهم ليس كيف يطبخ المرء بل الحب الذي يتم بواسطته مزج الطعام وتحضيره وما إليه. خذ انواع المرق مثلاً: فحين يصنع رجل ذكي مرق البصل يستعمل كل انواع الخضار ويقلبها بالزبدة، ثم يضيف الفلفل والبهارات الطازجة وقليلاً من جوز الطيب والزنجبيل. ولكن الطباخ العادي من الدرجة الثانية يغلي البصل ثم يمزجه بمزيج مطهو من دقيق ودهن. لكم أود ان أراك وأنت تعمل في مطعم للضباط. يمكن للمرء غير الذكي ان يمارس مهنة عادية وان يعيش حياته العادية، ولكنه ينكشف في المطبخ. البارحة مساء في مطعم الضباط في بوديوفيتسه قدموا لنا بين اشياء اخرى «الكلاوي على طريقة ماديرا». فليغفر الله كل خطايا ذلك الطباخ الذي طبخها، فقد كان رجلاً ذكياً عن حق، ويبدو انه من الصحيح ان في مطبخ الضباط ذاك استاذ مدرسة من «سكوتيتش». لقد اكلت هذه

الكلاوي نفسها في مطعم الضباط في الفوج الرابع والستين لجنود اللانديف. انهم يضعون معها بذور الكروياء كما يفعلون في حانة ريفية عادية حين يطبخون الكلاوي مع الفلفل. ومن الذي يطبخها؟ ما كان ذلك الطباخ في الحياة المدنية؟ لقد كان مربى مواش في عزبة كبيرة.

توقف كبير القساوسة عن الكلام ثم غير موضوع الحديث باتجاه القضايا المطبخية في العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس اذ كانوا يهتمون على نحو شديد في تلك العهود بمسألة تحضير الأطباق الشهية بعد الصلاة العامة والطقوس الكنسية الاخرى. ثم دعاهم جميعاً الى الغناء، فما كان من شفيك بسوء حظه المعهود سوى ان انطلق يغني:

«كارولين الشيطانة

أشارت بإمءاء صغيرة.

فكان أن لحق بها الكاهن

مع زجاجة النبيذ».

ولكن كبير القساوسة لم يغضب.

قال هو يتسم بود كامل.

- لو وجدت قطرة واحدة من الروم هنا، لما كانت هناك حاجة الى اي نبيذ، كما نستطيع الاستغناء عن «كارولين» تلك. فهي تقود الناس الى الخطيئة على أية حال.

دس العريف يده بحذر في معطفه واخرج زجاجة مسطحة فيها شراب الروم.

قال بهدوء حتى يشعر كبير القساوسة بالتضحية التي كان هذا يقوم بها:

- اقدمها بتواضع يا سيدي هذا اذا لم تسيء فهمها.

اجاب الأب الموقر بمرح وقد اصبح صوته اكثر ابتهاجاً:



- لن اسيء فهمها يا بني. سأشرب نخب رحلتنا السعيدة.

شهو العريف حين لاحظ أن نصف الزجاجاة قد اختفت بعد الجرعة القوية التي تجرعها كبير القساوسة فصاح:

- يا للمسيح ومريم!

قال كبير القساوسة وهو يتسم ويغمز المتطوع بعينه غمزة العارف:

- أيها الوغد! وأنت تستعمل اسم الرب عبثاً زيادة على ذلك! يجب ان يعاقبك الرب على ذلك.

تجرع الأب الموقر جرعة اخرى من الزجاجاة المسطحة ثم اعطاها لشفيك وهو يأمره بلهجة فوقية:

- كعبه أبيض!

قال شفيك بيهجة مخاطباً العريف وهو يعيد إليه الزجاجاة الفارغة، وقد تأكد فراغها من تلك اللعة الغريبة التي كانت في عيني العريف والتي لم يكن ممكناً ان تراها سوى في عيني شخص مصاب بعقله:

- الحرب هي الحرب!

قال كبير القساوسة:

- والآن سأغفو أربعين غفوة صغيرة حتى نصل الى فيينا، وسأكون ممتنا لكم لو أيقظتموني حالما نصل الى هناك.

ثم التفت الى شفيك وقال:

- أنت ستذهب الى مطبخ مطعمنا، فتجمع بعض السكاكين الشوكات وتحضر لي غدائي. قل انه لكبير القساوسة «لا تسينا». تأكد من حصولك على حصة مزدوجة. واذا كان هناك اي شيشبرك فلا تأخذ من الاطراف. فأنت تخرج خاسراً لو فعلت ذلك. واجلب لي أيضاً زجاجاة نبيذ من المطبخ وخذ أيضاً صفيحة الطعام خاصتك حتى يصبوا لي فيها بعض الروم.

ثم فتش الأب لاتسينا في جيوبه وقال للعريف:

- اسمع، ليس معي اية فكة. اقرضني غليدرا واحدا. إليك ما اسمك؟ شفيك؟ إليك يا شفيك هذا البقشيش! ايها العريف اقرضني غليدرا آخر. انظر يا شفيك، ستنال الغليدر الثاني بعد ان تكون قد اتممت واجبك على النحو الصحيح. ولا تنس أيضاً ان تجلب لفافات تبغ وعلبة سيجار لي. وان كانوا يوزعون الشوكولاته أيضاً، فاجلب حصة مزدوجة، وان كانت هناك اية معلبات فاحرص على ان تجلب علبة من اللسانات المدخنة او كبد الأوز. وان كانوا يوزعون جبناً من نوع «امتال» فاحرص على ألا يعطوك قطعة من الحافة، وحين تصل الى السلامي الهنغارية فلا تأخذ من الطرف بل من الوسط حيث إنها أدسم هناك.

تمدد كبير القساوسة على المقعد وغفا خلال لحظة.

قال المتطوع للعريف بمرافقة شخير الأب الموقر:

- اعتقد ان عليك ان تكون مسروراً تماماً بلقىطك هذا، فهو حيّ ويرفس أيضاً.

قال شفيك:

- لقد سبق له وانفطم، وها هو قد اعتاد على الزجاجة الآن.

ناضل العريف مع نفسه للحظة ثم قال بقسوة وقد فقد كل تواضعه فجأة:
- وقاحة جيدة جداً!

قال شفيك:

- كونه لا يملك فكة يذكرني برجل اسمه «مليتشكو»، وهو بناء من «ديفيتسه». لم تكن معه اية فكة أيضاً الى ان غرق حتى أذنيه في الديون وسجن بتهمة الاحتيال. كان يلتهم قطع النقود الكبيرة ولا يحمل اية فكة.

قال احد رجال الحرس:

- في الفوج الخامس والسبعين، وقبل الحرب، كان النقيب ينفق كل اموال الفوج على الشراب وقد سرّح من الخدمة. وها هو قد عاد الى الخدمة ورتبة نقيب أيضاً. كما أن رقيباً اول سرق من الجيش قماشاً يستعمل للتخريج - عشرين رزمة من القماش - اصبح الآن برتبة مساعد. ومنذ فترة ليست بالطويلة أعدموا بالرصاص جندي مشاة في الصرب لأنه التهم علبه الطعام المحفوظ دفعة واحدة بدلاً عن ان يأكلها على ثلاثة ايام.
قال العريف:

- لا علاقة لهذا كله بالموضوع، ولكن والحق يقال فإن اقتراض غيلدرين من عريف فقير لدفعهما كبخشيش أمر...
قال شفيك:

- حسناً، إليك بالغيلدر. لا اريد ان اصبح غنياً على حسابك. واذا ما أعطاني الغيلدر الثاني سأعيده لك أيضاً، حتى لا تنتحب. يجب أن تكون سعيداً حين يقترض منك احد الضباط المال لأجل نفقاته الخاصة. أنت أناني الى حدٍ مخيف، فهي مسألة غيلدرين بائسين لا غير! كم أود ان أرى ما ستفعله لو طلب منك ان تضحي بحياتك في سبيل من هو أعلى منك رتبة، لو كان قد سقط جريحاً في مكان ما من خطوط العدو وكان عليك ان تنقذه وتحمله بين ذراعيك، بينما يطلق العدو القذائف وكل شيء آخر عليك.

دافع العريف عن نفسه فقال:

- لو حدث ذلك لك لكنت عملتها في ملابسك من الخوف، ايها الوصيف الجبان.

تدخل رجل الحرس مرة أخرى فقال:

- هناك الكثير من التبرز في كل معركة. فمنذ فترة ليست بالبعيدة حكى لنا احد الجرحى في بوديوفيتسه انه عملها ثلاث مرات متتاليات في ملابسه

خلال التقدم نحو خطوط العدو: المرة الاولى كانت وهم يصعدون من ملجئهم نحو المساحة الفارغة امام شبكة الأسلاك الشائكة، والمرة الثانية كانت حين شرعوا يقطعون الأسلاك والثالثة حين اندفع نحوهم الروس بحرابهم المشرعة وهم يصرخون: «هورا!». ثم بدؤوا يركضون عائدين الى الخنادق ولم يكن في وحدتهم رجل واحد لم يعملها في ملابسه. وكان هناك قتيل ممتدد فوق الملجأ وساقاه متدلّيتان نحو الأسفل وقد شطرت شظية رأسه الى شطرين متساويين بالضبط، وقد تبرز هذا أيضاً في اللحظة الأخيرة كثيراً والى حدّ ان البراز نزل من بنطاله ليقع الى الأسفل. لا يشعر الرجل حتى كيف يحدث له ذلك.

قال شفيك:

- احياناً يدوخ رجل كهذا في المعركة، حيث إنها تجعله يشعر بالغثيان. لقد حكى لنا ناقه للمرة الثانية من سكان «برزيميسل» في حانة تسمى «المنظر» في «بوهورجيتيس» في براغ انه حدث هجوم بالحرايب في مكان ما تحت التحصينات، وظهر فجأة جندي روسي في مواجهته. وكان هذا رجلاً ضخم الجثة كجبل وانقض عليه بحرته بينما أنفه يسيل على نحو هائل. وحين نظر الى سيلان أنف الروسي ثم الى خطمه، شعر فجأة بالغثيان واضطر الى الذهاب الى مركز الاسعاف الاولى حيث شخصوا مرضه على انه الكوليرا وأرسلوه الى محاجر الكوليرا في بودابست حيث اصيب بهذا المرض هناك فعلاً.

سأل المتطوع:

- أكان ذلك جندياً عادياً ام عريفاً؟

أجاب شفيك بهدوء:.

- بل كان عريفاً.

قال العريف بغباء:

- يمكن ان يحدث هذا لأي متطوع أيضاً.

وقد نظر بانتصار الى المتطوع وكأنه يقول: «واحد صفر لصالحه. ما رأيك؟»

ولكن المتطوع لم يجب اطلاقاً وتمدد فوق المقعد.

اقتربوا من فيينا، فلاحظ اولئك الذين لم يكونوا نائمين شبكات الاسلاك الشائكة والتحصينات حول فيينا من خلال النافذة، والتي اثارت دون شك مشاعر الكآبة في القطار كله.

كان لا يزال ممكناً سماع الهدير المتواصل من العربات التي تحمل جنود «البوخه» من «كاشبر سكه هوري» وهم ينشدون بالالمانية: «حين اجيء، حين اجيء، حين اجيء من جديد...»، ولكن صمت هذا الهدير فجأة بعد رؤية الجنود للأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بفيينا والتي بعثت فيهم شعوراً مزعجاً.

قال شفيك وهو ينظر الى الخنادق:

- كل شيء على ما يرام وفي أحسن حال باستثناء ان سكان فيينا هؤلاء قد يمزقون بناطيلهم حين يخرجون للنزهة في ايام الاحد. على المرء ان يكون شديد الحرص حين يتجول هنا. فيينا مدينة شديدة الاهمية. فكروا على الاقل في تلك الحيوانات البرية التي لديهم في حديقة حيوانات شونبرون⁽¹⁾ حين كنت في فيينا منذ سنوات كنت احب الذهاب للتفرج على القروود، ولكن حين كان اي موكب يخرج من القصر الامبراطوري ما كانوا يسمحون لأحد ان يمر عبر نطاق الشرطة المضروب حول المكان. كان معي احد الخياطين من المنطقة العاشرة وقد ألقوا به في السجن لأنه كان مصمماً على مشاهدة تلك القروود بأي ثمن؟

سأله العريف:

(1) القصر الامبراطوري في فيينا. (الترجم).

- وهل زرت القصر أيضاً؟

أجاب شفيك:

- انه جميل جداً. لم أزره، ولكن شخصاً زاره حكى لي عنه. اما اجمل شيء فهو حرس القصر، فعلى كل واحد من هؤلاء ان يكون طوله مترين ويعطى لاحقاً «كشك» يبيع فيه. اما بالنسبة للأميرات فهناك أسراب بكاملها منهن.

مروا عبر المحطة. ومن ورائهم كان يمكننا سماع النشيد النمساوي الوطني تعزفه فرقة جاءت خطأ الى هنا، لأن دخولهم المحطة بالقطار استغرق منهم زمناً طويلاً. ثم توقف القطار وتناولوا وجبات طعامهم وجرى احتفال رسمي لاستقبالهم.

ولكن الأمر لم يعد كما كان في بداية الحرب حين كان الجنود في كل محطة يمرون بها خلال رحلتهم الى الجبهة يحشون أنفسهم بالطعام وحين كانت العذارى تستقبلهن في اثواب بيضاء غبية وبوجوه أشد غباء وبقايات من زهور غبية أيضاً الى آخر حد، بل وبخطاب أشد غباء من هذا كله تلقيه سيدة يتظاهر زوجها في أيامنا هذه بأنه وطني كبير وجمهوري أيضاً⁽¹⁾.

كانت لجنة الاستقبال في فيينا مؤلفة من ثلاث سيدات من جمعية الصليب الأحمر النمساوي وعضوين من جمعية حربية شكلتها نساء وفتيات فيينا، ووفد رسمي من حاكمي فيينا وممثلها العسكري.

كان يمكن مشاهدة التعب على هذه الوجوه كلها، فقد كانت قطارات الجنود تمر في فيينا خلال النهار والليل، كما تمر عربات الاسعاف المتخمة بالجرحى كل ساعة. في المحطات كانوا يحولون قطارات الاسرى من خط الى آخر، وكان على اعضاء مختلف الجمعيات والنوادي ان يكونوا حاضرين في كل مكان. وقد استمر هذا من يوم الى آخر حتى تحولت

(1) يعني بعد الحرب (المترجم).

الحماسة الاولى الى تناؤب. كان الناس يحضرون الآن على نوبات وكل من كان يظهر في محطة من محطات فيينا يبدو عليه ذلك التعبير المتعب نفسه الذي رأيناه على وجوه من كانوا ينتظرون القطار الذي يحمل فوج بوديوفيتسه.

كان الجنود يطلون من عربات نقل المواشي وعلى وجوههم تعبير اليأس الذي نراه على وجوه الذاهبين الى حبل المشنقة.

اقتربت السيدات منهم وقدمن لهم كعك الزنجبيل الذي كتب عليه بالالمانية وبالسكر: «النصر والانتقام» و«ليعاقب الله انكلترا» و«للمساوي وطن يحبه ولديه قضية يحارب من أجلها».

كان يمكننا مشاهدة الجنود القادمين من «كاشيرسكه هوري» وهم يحشون بطونهم بكعك الزنجبيل دون ان يتخلى عنهم ذلك التعبير اليأس. ثم وصل الأمر بأن تذهب كل سرية بدورها لجلب حصص الطعام من المطابخ الميدانية الموجودة خلف المحطة.

كما كان هناك مطبخ مخصص للضباط حيث ذهب شفيك لتنفيذ أوامر كبير القساوسة، بينما راح المتطوع ينتظر إحضار الطعام له، لأن اثنين من الحرس ذهبوا ليحضروا الطعام لكل عربة السجن.

نفذ شفيك الأوامر بحذافيرها، وبينما كان يعبر خط السكة رأى الملازم الأول لوكاش. الذي كان يمشي بين الخطوط و ينتظر ليرى ان كان في مطعم الضباط ما يؤكل.

كان في موقف لا يدعو الى السرور لأنه كان يشارك الملازم الأول كريشنر وصيفه، وكان ذلك الوغد لا يهتم سوى بسيده ويقوم بعملية تخريب كاملة حين يتعلق الأمر بشيء يخص الملازم الأول لوكاش.

سأل الملازم الأول البائس حين رأى شفيك يضع على الأرض كومة الأغراض التي استطاع نيلها بالتملق من مطعم الضباط والتي لفها بمعطفه:

- لمن تحمل هذه؟

أخذ شفيك على حين غرة ولكن لوهلة قصيرة فحسب اذ سرعان ما استعاد بديته. كان وجهه مليئاً بالفرح والطمأنينة حين اجاب:

- إليك بكل تواضع يا سيدي، ولكنني لا أعرف أين عربتك ولا أعرف إن كان قائد القطار سيغضب لو التحقت بك. لا بد وانه خنزير حقيقي.

نظر الملازم الأول لوكاش نظرة متسائلة الى شفيك الذي استأنف الكلام بود وثقة:

- انه خنزير حقاً يا سيدي. حين جاء ليفتش القطار اعلمته فوراً ان الساعة تجاوزت الحادية عشرة واني خدمت كامل عقوبتي وان عليّ ان انقل إما الى عربة المواشي او الى عربتك، ولكنه انتهرني بقسوة وقال إن عليّ ان ابقى حيث أنا، وذلك حتى لا ألحق بك الخزي مرة اخرى خلال الرحلة يا سيدي.

وهنا انتحل شفيك تعبيراً كتعابير الشهداء واستأنف قائلاً:

- لكأني قد ألحقت بك الخزي يا سيدي!



تنهد الملازم الأول لو كاش.

استأنف شفيك:

- لم ألحق بك الخزي يا سيدي أبداً. ولو حدث اي شيء لكان محض صدفة وتديبيرا من الرب، كما اعتاد ان يقول فانيتشبيك العجوز من «بهجريموف» حين خدم عقوبته السادسة والثلاثين. لم يسبق لي ان تعمدت الأذى يا سيدي. كل ما اردته دائماً هو القيام بعمل مفيد، بشيء نافع، وليس ذنبي ان لم نخرج كلانا بأي خير من ذلك كله، بل بالبؤس والعذاب.

قال الملازم الأول لشفيك بصوت لطيف وهما يقتربان من عربة الضباط:

- لا تبك كثيراً يا شفيك، سأبذل جهدي كي اعيدك إليّ.

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني لا أبكي، ولكن اتضح لي كم انه من المحزن ان نكون كلانا ابأس شخصين في هذه الحرب كلها بل وتحت الشمس أيضاً، وذلك دون ان نستطيع شيئاً حيال ذلك. انه لمصير رهيب، حين افكر أني بذلت قصارى جهدي لأصل الى الحالة الفضلى طوال حياتي.

- هدى من روعك يا شفيك.

- ابلغكم بتواضع يا سيدي، هذا ان لم أكن أخالف تعليمات المرؤوسية بهذا الشأن، اني أود ان اقول اني لا استطيع تهدئة نفسي، ولكن بما ان الأمور على ما هي عليه فعلي ان اقول اني قد هدأت تماماً الآن وفقاً لأوامرك.

- إذا فاذهب وادخل العربة يا شفيك.

- ابلغكم بتواضع يا سيدي اني ادخلها.

حل سلام الليل على المعسكر الحربي في «بروك». في مساكن الجنود كان هؤلاء يرتجفون من البرد بينما كان الضباط في مساكنهم يفتحون النوافذ من شدة التدفئة.

ومن الاشياء المختلفة الموضوعة تحت الحراسة كان يمكن بين الحين والآخر سماع وقع خطوات الدورية التي كان افرادها يسيرون لطرده النوم عن جفونهم.

والى الأسفل في «بروك أن دير لايتا» كانت تلتمتع أنوار المعمل الامبراطوري والملكي للحم المعلّب. وهنا كان الرجال يعملون ليلاً ونهاراً ويعالجون مختلف انواع مخلفات الذبائح. ولأن الريح كانت تهب من ذلك الحي نحو الطريق في المعسكر، فقد كانت تجلب معها الرائحة الكريهة للأعصاب والحوافر والأقدام والعظام الفاسدة التي كانت تدخل كلها في الحساء المعلّب.

ومن سرادق صغير مهجور كان يستعمله مصور في وقت السلم لتصوير الجنود الذين كانوا يقضون شبابهم هنا في ساحة التدريب على الرمي، كان يمكن للمرء ان يرى في وادي «لايتا» النور الكهربائي الأحمر لماخور اسمه «كوز الذرة» والذي شرفه الارشديق ستيفن بزيارة خلال المناورات الكبرى في «سوبرون» عام (1908)، وحيث كان الضباط يلتقون كل يوم. كان ذلك ارقى مبعي ولم يكن مسموحاً للجنود العاديين ومتطوعي العام الواحد بالدخول إليه.

كان على هؤلاء الذهاب الى «منزل الزهور» والذي كانت انواره الخضراء مرئية من استوديو التصوير المهجور.

وكان هذا التمييز الطبقي نفسه موجوداً في الجبهة أيضاً حين لم تستطع السلطة الملكية ان تفعل شيئاً لتساعد قواتها عدا تزويدهم بالمواخير المتنقلة المخصصة لأركان اللواء، وكانت هذه تسمى بـ«اللحف».

ونتيجة لذلك كانت هناك «لحف الضباط الامبراطوريين والملكيين» و«لحف ضباط الصف الامبراطوريين والملكيين». و«لحف الجنود الامبراطوريين والملكيين».

كانت «بروك آن دير لايتا» لأمعة الأنوار، وتلتصق على الطرف الآخر خلف الجسر انوار «كيرا اليهيدا» و«تسيسلايتانيا» و«ترانسلايتانيا»⁽¹⁾. في كلا المدينتين، الهنغارية والنمساوية، كانت فرق الفجر تعزف الموسيقى والمقاهي والمطاعم تشع بالأنوار، وكان هناك غناء وخبز. كان سكان المدينة والرسميون يجلبون زوجاتهم وبناتهم الراشحات إلى المقاهي والمطاعم فتتحول بلدتا «بروك آن دير لايتا» و«كيرا اليهيدا» إلى ماخور هائل واحد.

في الليل وفي أحد أكواخ المعسكر كان شفيك ينتظر ملازمه الأول لوكاش الذي ذهب في ذلك المساء إلى المسرح في البلدة ولم يعد بعد. كان شفيك قد جهز سرير الملازم الأول وكان يجلس عليه بينما جلس وصيف الرائد فنتسل على الطاولة المقابلة.

كان الرائد قد عاد من جديد لينضم إلى فوجه بعد أن أثبت عدم جدارته في المعارك التي جرت على نهر الدرينا في الصرب، إذ يقال أنه أعطى الأوامر بتفكيك وتدمير جسر عائم بينما كانت نصف كتيبته لا تزال بعد على الجانب الآخر منه. والآن عين كقائد ميدان التدريب على الرماية بالبنادق في كيرا اليهيدا والمسؤول عن اطعام المعسكر. قال الضباط أن الرائد فنتسل سيكسب لنفسه ثروة صغيرة الآن. كانت غرفتا لوكاش وفتسل في ردهة واحدة.

كان وصيف الرائد فنتسل شخصاً ضئيل الحجم على وجهه آثار الجدري يدعى «ميكو لاشيك»، وكان هذا يؤرّجح ساقه ويشتم قائلاً:

- لا أدري لماذا لم يعد نغلي العجوز بعد. أود لو اعرف أين يتسكع عجوزي المرتعش طوال الليل. لو أنه اعطاني مفتاح غرفته فحسب

(1) كانت النمسا تسمى تيسلايتانيا أي الأراضي التي تقع على الجانب الأقرب من نهر «لايتا». وكانت هنغاريا تسمى «ترانسلايتانيا» أي الأراضي التي تقع إلى ما وراء النهر. (س. ب).

لاستطعت ان أنام واتناول بضع قطرات من الشراب. لديه محيطات من النبيذ.

قال شفيك وهو يدخن بكل راحة احدى لفافات تبغ الملازم الأول لأن هذا قد منعه من تدخين الغليون في الغرفة:

- يقولون انه يقسو عليك كثيراً، ولكنك تعرف لا بد من أين يأتي بكل ذلك النبيذ.

قال ميكو لاشيك بصوت ضعيف:

- اذهب حين يرسلني. احصل على تفويض منه ثم انطلق واجلب التموين للمستشفى وأعيده الى البيت.

سأله شفيك:

- ولو أمرك بسرقة خزانة الفوج هل ستفعل ذلك؟ أنت تشتمه من خلف ظهره، ولكنك ترتجف امامه كورقة الحور الرجراج؟

رمش ميكو لاشيك بعينه الصغيرتين وقال:

- سأفكر مرتين في ذلك.

صاح به شفيك:

- ولكن لا شيء هناك تفكر فيه مرتين ايها المغفل الأبله!

ولكنه صمت فجأة لأن الباب فتح ودخل الملازم الأول لوكاش. وقد لاحظ فوراً انه كان في حالة معنوية عالية، لأنه كان قد لبس قبعته ومقدمتها الى الخلف ومؤخرتها الى الامام.

أصيب ميكولاشيك بالخوف الشديد والى حد أنه نسي ان ينزل عن الطاولة فحياه وهو جالس ناسياً أيضاً انه لم يكن يرتدي قبعته على رأسه.

قال شفيك وهو يقف باستعداد وفقاً للأنظمة العسكرية رغم ان اللفافة

بقيت في فمه:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي ان كل شيء على ما يرام.

لم يلاحظ الملازم الأول لوكاش اللفافة وذهب نحو ميكولاشيك الذي راح يرقب كل حركة من حركاته بعينين جاحظتين واستمر يحيي وهو لا يزال جالساً على الطاولة.

قال الملازم وهو يقترب من ميكولاشيك بمشية ليست شديدة الثبات:

- الملازم الأول لوكاش. ما اسمك؟

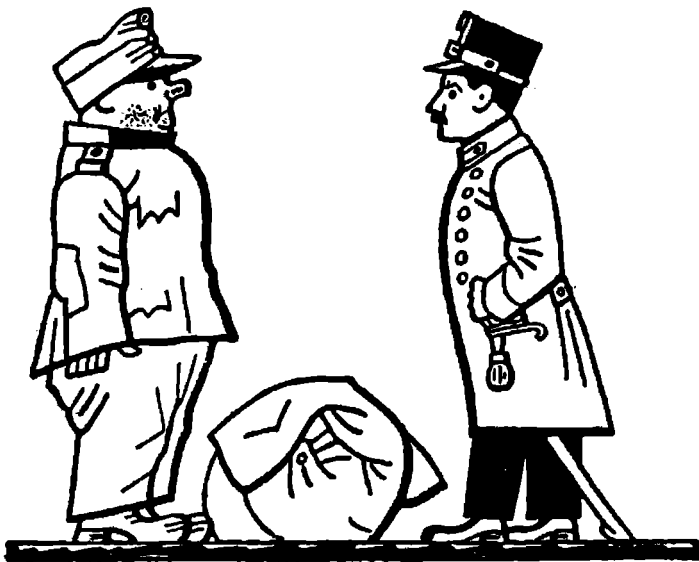
لم ينطق ميكولاشيك بشيء. جلب لوكاش كرسيّاً وجلس امام ميكولاشيك وهو ينظر إليه ثم قال:

- يا شفيك، احضر لي مسدس الخدمة من حقيتي.

طوال الوقت الذي استغرقه شفيك وهو يبحث عن المسدس في الحقية، كان ميكولاشيك يحدق صامتاً في رعب الى الملازم الأول. ولو ادرك لحظتها انه كان جالساً على الطاولة لكان ذلك سيزيده يأساً لأن ساقه كانتا تلمسان الآن ركبتي الملازم الأول الجالس.

صاح الملازم الأول بميكولاشيك:

- مرحباً. ما اسمك يا هذا؟



ولكن الوصيف لم يجب. هذا وقد أفاد لاحقاً انه اصيب بنوع من نوبات الشلل بمجرد وصول الملازم الأول غير المتوقع. لقد أراد ان ينزل من على الطاولة ولكنه لم يستطع وأراد ان يجيب فلم يستطع وأراد ان يتوقف عن ضرب التحية العسكرية فلم يستطع.

قاطع شفيك قائلاً:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي، المسدس ليس محشواً.

- إذا أحشه يا شفيك.

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انه ليس لدينا اية طلقات وسيكون من الصعب اطلاق النار عليه وانت تجلس على كرسي أوطاً من الطاولة التي هو جالس عليها. وهل تسمح لي بأن اضيف يا سيدي ان هذا هو ميكولاشيك وصيف الرائد فنتسل. غالباً ما يفقد هذا الشخص القدرة على النطق حين يرى احد السادة الضباط. انه خجول الى حد انه لا يقدر على النطق. واقول لك انه مخبث تماماً وانه لا زال غريباً. غالباً ما يتركه الرائد فنتسل واقفاً في الممرحين يذهب الى البلدة، وغالباً ما تراه يتسكع ببؤس من وصيف الى آخر في الثكنة. وكان يمكنك ان تفهم الأمر كله لو ان لديه المبرر ليصاب بالذهول، ولكنه لم يرتكب أي شر اطلاقاً.

بصق شفيك، ومن لهجة صوته وحقيقة انه تحدث عن ميكولاشيك بصيغة «الحيادي»⁽¹⁾ يستطيع المرء ان يستنتج احتقاره الكامل لجبن وصيف الرائد فنتسل ومظهره اللاعسكري.

تابع شفيك:

- لو سمحت يا سيدي فسوف اتشممه.

جر شفيك ميكولاشيك الذي استمر ينظر بغباء الى الملازم من مكانه

(1) Netural في بعض اللغات الاوروبية تستعمل هذه الصيغة عادة للاشارة الى الاشياء والحيوانات. في الانكليزية مثلاً: وفي الفنلندية ولكنها غير موجودة في العربية لذا لم يكن ذلك واضحاً في وصف شفيك لزميله الوصيف. (المترجم).

فوق الطاولة، وبعد ان وضعه على الأرض شم له بنطاله.

أكد شفيك قائلاً:

- ليس بعد، ولكنه قد أوشك. هل ارميه خارجاً؟

- ارمه خارجاً يا شفيك.

اخرج شفيك ميكولاشيك المرتجف الى الممر، واغلق الباب خلفه

وقال له:

- حسناً ايها النغل الأحمق. لقد انقذت حياتك. حين يعود الرائد فنتسل

ستجلب لي زجاجة نبيذ وتبقي فمك مغلقاً، هل تفهم؟ لست امزح. لقد

انقذت حياتك، صدقني حين يسكر ملازمي الأول فذاك امر لا يحتمل. أنا

الرجل الوحيد الذي يستطيع التعامل معه في مثل هذه الحالة وليس من احد

غيري.

ثم صاح شفيك باحتقار:

- أنت ربح فاسدة. اجلس على عتبة الباب وانتظر حتى يعود رائدك

فنتسل.

حين عاد شفيك الى الغرفة حياه لو كاش قائلاً:

- لقد غبت ما فيه الكفاية. والآن اريد التحدث إليك. لست مجبراً على

الاستمرار في الوقوف في وضع الاستعداد كخنزير عالق في الطين. اجلس

يا شفيك وتوقف عن «وفقاً للأوامر تلك». اغلق فمك واستمع جيداً. هل

تعرف اين يقع شارع سوبرون في كيرا ليهيدا؟ كرمي للرب لا تقل لي:

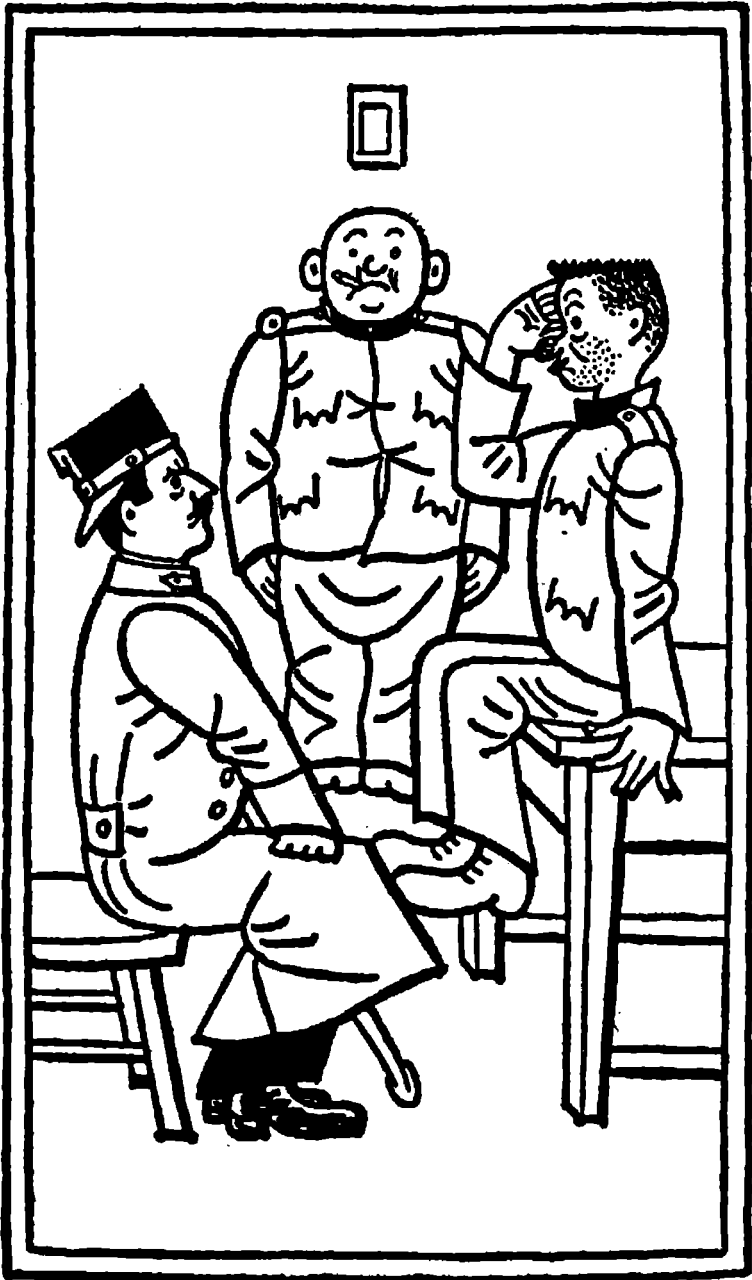
«ابلغكم بتواضع يا سيدي اني لا اعرف». اذا كنت لا تعرف فقل: «لا

اعرف»، وهذا يكفي. اكتب على قطعة من الورق: 16 شارع سوبرون. في

ذلك البناء دكان لبيع الحديد والأدوات المعدنية. هل تعرف ما هو نوع من

هذه الدكان؟ يا الهي، لا تقل: «ابلغكم بتواضع»، قل «اعرف» او «لا

اعرف». إذا فأنت تعرف ما هي دكان بائع الحديد والادوات المعدنية؟



تعرف؟ حسناً. هذه الدكان يمتلكها هنغاري يسمى «كاكوني». هل تعرف ما هو الهنغاري؟ والآن بحق رب السماء، هل تعرف ام لا؟ حسناً، فوق الدكان الطابق الأول وهو يسكن هناك. هل تعرف ذلك؟ لا تعرف. عجباً! اقول لك انه يعيش هناك. أليس ذلك كافياً لك؟ انه كذلك. حسناً. لو لم يكن ذلك كافياً لك لكنك سأرميك في السجن. هل كتبت عندك ان ذلك النغل يسمى كاكوني؟ حسناً. إذأ في صباح الغد حوالي الساعة العاشرة ستذهب الى البلدة وتبحث عن هذا البناء وتصعد الى الطابق الاول وتسلم هذه الرسالة الى السيدة كاكوني.

فتح الملازم الأول لو كاش محفظة جيبه واخرج منها وهو يتشاءب مغلفاً ابيض دون عنوان وضعه في يد شفيك.
ثم استأنف فقال:

- هذه مسألة شديدة الاهمية يا شفيك. الحذر مطلوب على الدوام، وبالتالي تستطيع ان تلاحظ بنفسك عدم وجود عنوان هنا. اعتمد اعتماداً كاملاً على تسليمك هذه الرسالة كما ينبغي. وعليك ان تتبه أيضاً الى ان اسم السيدة هو «إتيلكا». لذا اكتب الآن: «السيدة إتيلكا كاكوني». وسأضيف أيضاً ان عليك ان تسلم هذه الرسالة سرّاً وان تنتظر الجواب. لقد كتبت في الرسالة ان عليك ان تنتظر جواباً. هل هناك من شيء آخر؟

- وما الذي سأفعله يا سيدي اذا لم أعط جواباً؟

- عليك ان تقول لهم انه لا بد لك من الحصول على جواب بأي ثمن.

تشاءب الملازم الأول على نحو رهيب وقال:

- والآن سأذهب الى الفراش. لقد انهكت تماماً اليوم. يا الهي، وما هو الذي لم نشره؟ اعتقد ان اي شخص آخر سيكون متعباً بقدر ما أنا متعب بعد ليلة كهذه.

لم يكن الملازم الأول ينوي في الاصل البقاء فترة طويلة في البلدة. ولكنه حين اقترب المساء غادر المعسكر وذهب الى المسرح الهنغاري في

كيراليهيديا حيث كانت تعرض أوبريت هنغارية هناك. كانت تؤدي الأدوار الرئيسية ممثلات يهوديات عامرات الصدور بدينات الأجسام يتميزن بمزية خرافية تتجلى في أنهن حين يرقصن يقذفن بسيقانهن في الهواء وهن لا يرتدين اية سراويل داخلية او أثواب ضيقة من تلك التي ترتديها الراقصات وكن يحلقن شعورهن من الأسفل كنساء التار حتى يرضين الضباط على نحو أشد. واذا لم يكن جمهور الشرفة ينال اي بهجة من هذا كله فإن كامل الغنيمة كانت من نصيب ضباط المدفعية الجالسين على المقاعد الأمامية من المسرح وقد جلبوا معهم الى المسرح مناظير الميدان ليتفرجوا على ذلك المشهد الجميل.

ولكن هذا النوع من البذاءة الممتعة لم يكن ليرضي ذوق الملازم الأول لوكاش، لأن منظر الأوبرا الذي استأجره لم يكن كاسراً للضوء وبدلاً عن الأفخاذ كان لا يرى سوى بقعة بنفسجية اللون او بقعتين في حالة الحركة. في الاستراحة التي تلت الفصل الأول جذبته على نحو أشد سيدة كانت تجر الى حجرة ايداع المعاطف سيداً كهلاً في صحبتها وتلح عليه طالبة الذهاب الى البيت فوراً لأنها ترفض النظر الى مثل تلك الاشياء. وقد عبرت عن ذلك بصوت مرتفع بالأحرى وبالالمانية بينما اجابها مرافقها بالهنغارية: «حسناً يا ملاكي. فلنذهب موافق. انه عرض تافه جداً بالفعل».

اجابت السيدة بلهجة السخط الشديد حين لف السيد معطف الاوبرا الخاص بها من حولها: «انه مقرف». كانت عيناها تومضان بالنقمة على تلك البذاءة: عينان سوداوان واسعتان كانتا تناسبان تماماً جسدها الجميل. وبينما كانت تقول ذلك نظرت الى الملازم الأول لوكاش وكررت مرة أخرى ببعض الانفعال: «مقرف، مقرف حقاً» وكان ذلك أمراً حاسماً بالنسبة لعلاقة حب عابرة.

عرف من عامل حجرة ايداع المعاطف انهما السيد والسيدة كاكوني،

وان للزوج دكاناً لبيع الحديد والادوات المعدنية في رقم (16) شارع سوبرون.

قال عامل حجرة الايداع بالمعرفة التفصيلية التي تميز في العادة صاحب ماخور عتيق:

- وهو يعيش مع السيدة اتيلكا في الطابق الاول. انها المانية من «سوبرون» وهو هنغاري. هنا كل شيء مختلط.

أخذ الملازم الأول لوكاش معطفه من حجرة الايداع أيضاً وخرج الى البلدة حيث قابل بعض الضباط من الفوج الواحد والتسعين في مطعم النيذ الكبير والمقهى المسميين: «الارشدوق ألبرشت».

لم يتكلم كثيراً بل شرب المزيد بدلاً عن ذلك وهو يفكر فيما سيكتبه لتلك السيدة الجميلة الصارمة ذات الأخلاق الرفيعة التي جذبه على نحو لا لبس فيه اكثر من تلك «القرود الراقصة على الخشبة» كما كان الضباط يصفونهن.

وقد خرج وهو في مزاج جيد جداً ليذهب الى مقهى صغير يسمى «عند صليب القديس ستيفن» حيث دخل الى حجرة خاصة مستقلة ورمى خارجاً بامرأة رومانية كانت فيها بعد ان عرضت عليه ان تعرى كاملاً على ان يفعل ما يريد بها. ثم أمر بأن يجلبوا له بعض الحبر وقلماً وورقاً للكتابة وزجاجة كونيالك. وأخيراً، وبعد تفكير عميق كتب الرسالة التالية التي بدت بالنسبة إليه أجمل ما ألفه في حياته:

«سيدتي العزيزة:

البارحة في مسرح البلدة كنت حاضراً لدى عرض المسرحية التي ازعجتك كثيراً. لقد راقبتك خلال الفصل الأول كله، أنت وزوجك أيضاً. وكما استطعت ان الاحظ...»

قال الملازم الأول لوكاش في نفسه: «لن اهجم بقوة نيران اقل من

قدراتي الحقيقية! بأي حق يكون لذلك النغل مثل هذه الزوجة الجميلة، عجباً، انه يبدو كقرد حليق من نوع البابون».

ثم استأنف الكتابة...

«... لقد راقب زوجك كل ذلك الفسق الذي كان يعرض على الخشبة بتفهم كامل. ولكنك يا سيدتي العزيزة، انتابك الاشمئزاز من ذلك لأنه لم يكن فناً بل استغلالاً مرفقاً لأشد المشاعر الإنسانية حميمة».

وهنا فكر الملازم الأول لوكاش في نفسه: «يا له من صدر ذاك الذي تحمله تلك المرأة! لماذا أحوم حول الموضوع؟».

«... اعذرني يا سيدتي ان كنت اكتب إليك بكل هذه الصراحة وأنت لا تعرفيني. لقد شاهدت الكثير من النساء في حياتي، ولكن لم تترك اية واحدة منهن مثل هذا التأثير الذي تركته أنت، فتقييمك ووجهة نظرك في العالم يتطابقان تماماً مع تقييمي ووجهة نظري أنا أيضاً. أنا على قناعة بأن زوجك اناني مئة بالمئة ويجرك معه...»

قال الملازم الأول لوكاش في نفسه: «لا، هذا ليس جيداً». ثم شطب «يجرك معه» وكتب بدلاً عن ذلك:

«... وهو يصطحبك يا سيدتي العزيزة، وبسبب اهتمامات انانية بحتة الى عروض مسرحية من مستوى ذوقه الفني هو. من عادتي ان اكون صريحاً. لا أود ان اطفل على حياتك الخاصة ورغبتى الوحيدة هي ان اتحدث إليك على انفراد عن الفن الخالص...»

فكر الملازم الأول مرة اخرى في نفسه: «لن تكون الفنادق مناسبة. يجب ان احملها الى فيينا. سأندبر أمر رحلة رسمية الى هناك».

«... ولذا فإنني اسمح لنفسي يا سيدتي العزيزة بأن اطلب منك ان تفضلني وتقابليني حتى يتعرف الواحد منا على الآخر على نحو افضل وبكل شرف. لا شك انك لن ترفضني طلباً كهذا من شخص سيعاني قريباً من

آلام الذهاب الى الجبهة، والذي، إن منحته موافقتك الكريمة، سيحتفظ وهو في وطيس المعركة بأجمل الذكريات عن روح فهمته كما فهمها. قرارك سيكون امراً بالنسبة إليّ، وجوابك سيكون اللحظة الحاسمة في حياتي».

ثم وقع الرسالة وشرب الكونياك وأمر بزجاجة اخرى. ثم راح يعيد قراءة سطورها وهو يشرب الكأس بعد الآخر حتى بكى بالفعل لدى قراءة كل جملة.

* * *

في التاسعة من صباح اليوم التالي حين ايقظ شفيك الملازم الأول لوكاش قائلاً:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انك لم تستيقظ في الوقت المناسب للذهاب لتأدية واجبك، وعليّ ان اذهب برسالتك الى كيرالهيديا. لقد ناديت عليك في السابعة ثم في السابعة والنصف ثم في الثامنة والجنود يمرون في طريقهم الى التدريب، ولكنك كنت تقلب نفسك الى الجانب الآخر ولا ترد يا سيدي... اقول، يا سيدي...

همهم الملازم الأول لوكاش بشيء ما، ثم أراد ان ينقلب الى الجانب الآخر مرة أخرى، ولكنه لم ينجح في ذلك لأن شفيك هزه بقوة وصاح:

- يا سيدي، سأذهب بهذه الرسالة الى كيرالهيديا.

تثاءب الملازم الأول وقال:

- بتلك الرسالة؟ اوه، اجل برسالتني! هذه مسألة شديدة السرية، هل تفهم؟ انه سر بيني وبينك. انصراف.

لف الملازم الاول نفسه مرة أخرى في البطانية التي جره منها شفيك، واستأنف النوم بينما انطلق شفيك في رحلة الحج الى كيرالهيديا.

لم تكن هناك صعوبة في ايجاد رقم 16 شارع سوبرون لو لم يقابل على

الطريق جندي الهندسة العسكرية العجوز «فوديتشكا» الذي استدعي الى الخدمة مع «الستيرين»⁽¹⁾ الذي كانت ثكناتهم في المعسكر. منذ سنوات خلت كان فوديتشكا يعيش في براغ في حي «نابويشتي». ولذا فإن مناسبة لقاء كهذا دعتهما الى الذهاب الى حانة «الحمل الأسود» في بروك حيث كانت النادلة «روجينكا» صديقة له، وهي فتاة تشيكية كان كل المتطوعين التشيكيين في المعسكر مدينين لها بالمال.

مؤخراً، كان جندي الهندسة العسكرية فوديتشكا وهو العجوز الماكر، يتودد إليها، وكانت لديه لائحة بالكثائب المتجهة إلى جبهة المعسكر. لقد ذهب ليرى المتطوعين التشيكيين في الوقت المناسب وليذكرهم بأن عليهم الا يختفوا في حومة الوغى دون دفع ديونهم.

سأل فوديتشكا بعد ان تذوقا أول رشفة من النبيذ الجيد:

- الى اين انت ذاهب بالضبط؟

قال شفيك:

- هذا سر، ولكني سأقوله لك لأنك صديقي القديم.

ثم شرح له كل شيء وبالتفصيل وصرح له فوديتشكا بأنه جندي هندسة قديم، وانه لا يمكن ان يتخلى عنه وانهما سيذهبان معاً لتسليم الرسالة.

وقد قضيا وقتاً رائعاً وهما يتحدثان عن الايام الفاتية وبدا كل شيء لهما طبيعياً وسهلاً حين غادرا في وقت الغداء تقريباً حانة «الحمل الأسود».

وزيادة على ذلك كان في داخلهما قناعة ثابتة بأنهما ليسا خائفين من اي شخص. وفي طريقهما الى رقم (16) شارع سوبرون عبر فوديتشكا عن كره هائل للهنغارين وحكى المرة تلو الأخرى كيف انه تشاجر معهم في كل مكان، واين ومتى تقاوت معهم وما الذي منعه في كذا مكان وكذا زمان من التعارك معهم:

(1) ستيريا (بالألمانية ستاير مارك) مقاطعة في الجنوب الشرقي ووسط النمسا. (المترجم).



- مرة أمسكنا بواحد من اولئك الهنغاريين الانغال من ختآقه في «باوسدورف»، حيث ذهبنا نحن جنود سلاح الهندسة لنحتسي الشراب. قد اردت ان اضربه على «جوزة» حلقه بحزام في الظلام، فقد كنا قد ضربنا المصباح المعلق بزجاجة فحطمناه فور ان ابتدأت المشاحنة، لكنه راح يصرخ فجأة: «توندا! عجباً، هذا أنا، بوكراييك، من فوج اللاندفير السادس عشر!» لقد تجنبت ارتكاب خطأ فادح بمقدار شعرة واحدة. وعلى اية حال وبدلاً عن ذلك لقنا اولئك المهرجين الهنغار درساً لن ينسوه في «نويزيلر زي» التي ذهبنا إليها منذ ثلاثة اسابيع. ففي قرية بالقرب من هناك كانت تعسكر مفرزة من المدافع الرشاشة تابعة لفوج الهونفيد، وقد حدث ان ذهبنا جميعاً الى حانة حيث كانوا يرقصون رقصة «التشارداس» بجنون ويصيحون خلال الرقص «أورام، أورام، بيرو أورام» او «لانوك، لانوك آفالوبا». (1) وقد جلسنا قبالتهم، ولكننا وضعنا أحزمتنا امامنا على الطاولة.

(1) أغان هنغارية: «يا سيدي، سيدي، سيدي القاضي» و«بنات، بنات، بنات القرية». (س. ب).

وقلنا لأنفسنا: «أنتم ايها الانغال، سنلقنكم درساً حامياً بسبب فتياتكم اولاء». وكان هناك شاب يدعى «مبيستر جيك» له قبضة كبيرة كـ«الجبل الأبيض» وتطوع هذا فوراً للرقص واخذ فتاة من واحد من اولئك الانغال القذرين في منتصف الرقصة. كانت الفتيات «شفقاً نظيفة» جداً بالفعل، كما تعرف، وكانت ربيلات سيقانهن ريانة ومؤخراتهن لحيمة وافخاذهن رائعة وعيونهن جميلة. ومن تلك الطريقة التي كان اولئك الانغال الهنغار يعصرون بها اولئك الفتيات كنت ترى ان لهن صدوراً ممتلئة وقاسية ككرات المطاط، وان الرجال كانوا في حالة كبيرة من النشوة ويدركون قيمة ما بين اذرعهم. ثم قفز صاحبنا «مبيستر جيك» الى حلبة الرقص وكان سيخطف واحدة من أنظف «الشفق» من احد جنود «الهنوفيد»، ولكن هذا بدأ يهمهم بشيء ما إلا ان «مبيستر جيك» لكمه على الفك فسقط ذلك النغل ارضاً، وفجأة امسكنا جميعاً بأحزمتنا ولففناها على أيدينا حتى لا تنزلق الحراب وقفزنا الى منتصف الحشد. صرخت: «أبرياء كانوا أم مذنبين، اقضوا عليهم واحداً إثر الآخر!» وما ان قلت ذلك حتى اصبحت الحانة كالبيت المحترق. فقد بدأوا يقفزون من النوافذ، ولكننا أمسكنا بهم من سيقانهم وجررناهم الى الداخل مرة أخرى. وكل من لم يكن واحداً منا لم يستطع الخروج. وقد حاول مختارهم ودركهم ان يتدخلوا، ولكنهم اصابوا في أفقيتهم. كما أكل صاحب الحانة «علقة» لانه بدأ يشتم بالالمانية واتهمنا بإفساد الرقص. وفيما بعد دخلنا القرية وجمعنا كل من كان يحاول اخفاءهم عنا، كرقيب الفصيلة ذاك الذي وجدناه وقد دفن نفسه في القش في علة احدى المزارع الواقعة تحت القرية مباشرة. وقد وشت به صديقه لأنه ذهب ورقص مع فتاة أخرى. كانت قد اعجبت بمبيستر جيك وذهب معه لاحقاً حتى كيراليهيديا تحت الغابة حيث اكوام القش. وقد جرته الى احدى تلك الأكوام وطلبت منه خمسة كراونات لاحقاً، ولكنه ضربها على فكها بدلاً من ذلك. وفيما بعد لحق بنا عند القمة وقبل المعسكر مباشرة

وقال لنا انه كان يظن دائماً ان الهنغاريات ناريات، الا ان تلك البقرة كانت باردة كزند الحطب، ولم تكن تفعل طوال الوقت اي شيء سوى الهذر بشيء ما.

ثم استأنف قائلاً:

- باختصار، الهنغار قطع من الأنغال القذرين.

فقال شفيك:

- كثيرون منهم لا يملكون ان يتخلوا عن كونهم هنغاراً.

قال فوديتشكا بغضب:

- ولماذا؟ طبعاً يمكنهم ذلك. هذا غباء. لكم اود ان اراك تقع بين مخالبيهم كما حدث لي حين جئت للاشتراك في الدورة في اليوم الأول. ففي عصر ذلك اليوم نفسه قادونا الى مدرسة كقطع من الماشية وبدأ احد الحمقى اللعين يرسم مخططات معينة ويشرح ما هو واء الخنادق، وكيف تضع الأساسات، وكيف تأخذ المقاييس. ثم قال انه اذا لم يقم أحدنا بإنجاز الرسمة حتى صباح اليوم التالي وكما شرحها هو فسوف يسجن ويقيد بالسلاسل. فكرت في نفسي قائلاً: «يا للجهيم، هل تطوعت في الجبهة لتدرب في هذه الدورة وذلك حتى لا اخدم في الجبهة؟ أم هل فعلت ذلك لرسم مخططات تافهة لعينة كل مساء في كتاب تمارين غبي لعين بقلم رصاص تافه لعين كصبي مدرسة تافه لعين؟» غضبت غضباً شديداً وفقدت صبري، لم أكن أستطيع حتى النظر الى ذلك الأحمق اللعين الذي كان يشرح الدرس لنا. لقد اردت ان أحطم كل ما حولي، كنت شديد الجنون. ولم استطع الانتظار حتى وقت توزيع القهوة بل انطلقت من المسكن الذي أظن فيه الى كيراليهدا وفي رأسي فكرة واحدة لا غير، وذلك من شدة الغضب، ألا وهي فكرة ان اجد حانة صغيرة هادئة فأشرب حتى الثمالة واثير شجاراً واضرب احدهم على فكه ثم اعود الى المعسكر وأنا مرتاح

وراض. الإنسان ينوي والرب يقدر. عند النهر بين بعض الحدائق وجدت مكاناً كهذا بالضبط، هادئاً كأنه معبد، مصنوعاً خصيصاً لإثارة شجار. وكان في المكان زبونان فقط يجلسان هناك ويتحدثان بالهنغارية التي جعلتني اشد جنوناً، وزيادة على ذلك اصبحت فجأة ثملاً جداً دون ان ادرك مدى ذلك. وهكذا حدث اني لم ألاحظ - بسبب سكري - ان الباب التالي كان عبارة عن مكان جديد دخل منه ثمانية من سلاح الفرسان الهنغاري بينما كنت ابذل قصاري جهدي. وحين ضربت الزبونين الأولين انقض عليّ اولئك الثمانية. لقد ضربني اولئك الثمانية «علقة» ويا لها من «علقة»، وطار دوني عبر الحدائق بحيث لم أستطع الوصول الى المعسكر قبل صباح اليوم التالي، واضطرت الى الذهاب فوراً الى قسم الاسعاف، حيث قلت اني سقطت في حفرة لصنع الآجرا وقد لفوني اسبوعاً كاملاً بشرشف رطب حتى لا يلتهب ظهري. يا الهي، اياك ان تعلق بين أيدي انغال كأولئك فهم ليسوا بشراً انهم حيوانات.

قال شفيك:

- من يلجأ الى السيف يمت بالسيف. لذا ليس عليك ان تدهش من انهم قد غضبوا اذ اضطروا الى ترك كل ذلك التبيذ على المائدة ليطاردوك عبر كل تلك الحدائق في الظلام. كان من المفروض فيهم ان يضربوك ضرباً مبرحاً علي الفور في الحانة نفسها ثم يرموا بك خارجاً. كان ذلك افضل لهم ولك أيضاً لو انتهوا من أمرك وانت جالس الى المائدة فوراً وعلى نحو نهائي. كنت اعرف شاباً يسمى «باروبيك» كان يملك حانة في «لييني». ومرة سكر سمكري في حانته من شرب الياوفكوكوفا⁽¹⁾ وبدأ يشتم ويقول ان تلك الياوفكوكوفا خفيفة وان باروبيك اضاف إليها الماء. وانه لو كان يتجول وهو يعمل كسمكري مئة عام ولو اشترى من كل ما كسبه الياوفكوكوفا فحسب، وشرب كل تلك الكمية دفعة واحدة، لكان سيستطيع على اية حال

(1) شراب ثقيل مصنوع من توت العرعر. (س. ب).

ان يمشي فوق جبل مشدود وهو يحمل باروبيك بين ذراعيه. وبعد ذلك قال لباروبيك انه عبارة عن «وغد» وانه وحش «شاشتشين»⁽¹⁾. ثم أمسك به العزيز باروبيك العجوز وضربه على رأسه بمصيدة الفئران والأسلاك، ورفسه الى خارج الحانة وهو يضربه طوال الطريق الى الانفاليدوفنا» بالعمود الذي يستعمله لا نزال مصارع الحانة، ثم طارده كالمجنون عبر «الانفاليدوفنا» الى «كارلين» وحتى «جيجكوف»، ومن هناك عبر «جيدو فسكه بيتسه»⁽²⁾ الى «ماليشيتسه» حيث كسر العصا عليه. وكان بمقدوره العودة الى «ليني». ولكنه نسي في سورة غضبه ان الزبائن كانوا لا يزالون في حانته وان اولئك السفاحين كانوا يشربون دون حساب. وحين عاد اخيراً رأى ان ذلك حدث فعلاً. كانت المصاريع نصف مغلقة وكان شرطيان يقفان هناك وكان هذان قد سكرا أيضاً خلال محاولتهما وضع حدّ للفوضى في الحانة. كان نصف المخزون قد استهلك وفي الشارع رأى برميلاً فارغاً من «الروم»، وتحت منضدة الحساب وجد باروبيك نغلين ثملين تماماً. كانا قد تفاديا انتباه الشرطيين، وحين جرّهما خارجاً أرادا ان يدفعا له كرويتزين قائلين انهما لم يشربا من «الشنابس» اكثر من ذلك. هذا هو جزاء الغضب. وفي الحرب الأمر مشابه لذلك. في البداية نهزم العدو ثم نظارده ونظارده حتى لا يعود بإمكاننا في النهاية ان نسير بالسرعة الكافية للهرب منه.

قال فوديتشكا:

- لم أنس اولئك الانغال. لو مرّ واحد منهم في طريقي لانتقمتم منه. نحن جنود سلاح الهندسة زبائن قبيحون حين نغضب. نحن نختلف عن «الذباب الحديدي»⁽³⁾ حين كنا في الجبهة عند «برزيميسل» كان معنا نقيب

(1) يبدو أن شفيك كان مشوش الذهن هنا ولكن ربما كان يشير الى «اليزابيت باتوري» من «تساخيتشه» التي كانت تذبح الفتيات الصغار وتستحم بدمائهن حتى تجمل نفسها. (س. ب.).

(2) تعني حرفياً (الافران اليهودية) وهي من ضواحي براغ. (س. ب.).

(3) الاسم الذي كان يطلق على جنود اللاندفير. (س. ب.).

يدعى «بيتسباخر». وهو خنزير لا مثيل له تحت الشمس. وقد نجح هذا في التمر علينا الى حد ان رجلا يدعى «بيترليخ» من سريتنا، وهو رجل ألماني، ولكنه رجل طيب جدا، قام بإطلاق النار على نفسه بسبب ذلك النقيب وهكذا قلنا لأنفسنا انه حين تبدأ القذائف بالصغير من الجانب الروسي سيتقرر مصير ذلك النقيب تيتسباخر. وما ان بدأ الروس بإطلاق النار علينا حتى اطلقنا عليه خمس طلقات خلال تبادل اطلاق النار. كان الوحش لا يزال حياً بعد ذلك كالقطة ذات الأرواح التسعة، واضطررنا الى اطلاق رصاصتين اخريين للقضاء عليه تماماً، وحتى لا تنجم اية مشاكل عن ذلك. لقد دمدم فحسب وبأسلوب كوميدي نوعاً ما، ولذا كان الامر مضحكاً بالأحرى.

ضحك فوديتشكا ثم تابع فقال:

- يحدث هذا كل يوم في الجبهة، فقد حكى لي احد اصدقائي - وهو ضمن سريتنا الآن - انه حين كان جندي مشاة في بلغراد قتلت سريته ملازمها الأول في خضم احدى المعارك. كان جرذا من النوع نفسه أيضاً وقد سبق له وقتل اثنين من الجنود خلال المسير نحو الجبهة لأنه لم يكن في وسعهما الاستمرار. وحين كان على وشك لفظ أنفاسه راح ينفخ في صفارته معطياً اشارة التراجع. وقد ضحك كل من كان حوله جيداً.

خلال هذا الحوار الشيق المنور وجد شفيك وفوديتشكا أخيراً عنوان دكان بائع الحديد والأدوات المعدنية السيد كاكونيني في رقم (16) شارع سوبرون.

قال شفيك لفوديتشكا عند مدخل البناء:

- اعتقد انه من الأفضل لك الانتظار هنا. سأصعد بسرعة الى الطابق الاول واسلم الرسالة. ثم انتظر الجواب واعود في لحظة.

قال فوديتشكا مندهشاً:

- وهل تصوّر حقاً اني سأتخلى عنك؟ أنت لا تعرف اولئك الهنغار، صدقتي علينا ان نحذر منهم. سأضربه ضربة واحدة.
قال شفيك بجديّة:

- اسمع يا فوديتشكا. في مثل هذه الحالة الأمر لا يتعلق بشخص هنغاري بل بزوجته. لقد حكيت لك كل شيء حين جلسنا معاً مع تلك النادلة التشيكية، أليس كذلك؟ احمل رسالة للسيدة من ملازمي الاول ومن الضروري جداً ان يبقى الأمر سراً. لقد اوصاني ملازمي الاول ألا ادع شخصاً يدري بالموضوع، ومع ذلك فإن نادلتك تلك قالت هي نفسها ان ذلك أمر صحيح وان المسألة حساسة جداً. يجب ألا يعرف اي شخص ان ملازمي الاول يرسل امرأة متزوجة. وقد وافقت أنت على الفكرة وأومات برأسك علامة الموافقة. لقد شرحت لك كما هو حق وملائم اني انفذ بكل امانة أمر ملازمي الاول وأنت تصر فجأة وبأي ثمن على الصعود معي الى الطابق الأول.

أجاب الجندي العجوز من سلاح الهندسة فوديتشكا بلهجة رزينة جداً أيضاً:

- أنت لا تعرفني. حين قلت لك مرة اني لن اتركك فعليك ان تعرف ان كلمتي هي ميثاقي. اثنان افضل من واحد.

- سأفتعك بالعدول عن هذا يا فوديتشكا. هل تعرف اين يقع شارع نكلانوف في فيشيهراد؟ هناك تقع ورشة بائع الاقفال «فوبورنيك» كان هذا رجلاً طيباً وشريفاً. وحين عاد مرة الى البيت من حفلة شراب صاخبة جلب معه احد المشاركين في الحفلة. وبعد ذلك نام في الفراش فترة طويلة وكانت زوجته تقول له كل يوم وهي تغيّر اربطة الجراح التي أصيب بها في رأسه: «اترى يا تونيتشيك؟ لو لم يكن هناك اثنان منكما لكنت ساكتفي بتويخك وما كنت لأرمي بالميزان فوق رأسك». وحين استعاد لاحقاً

القدرة على النطق قال: «أنت على حق يا ماما، في المرة التالية حين اذهب الى مكان ما لن أعود بأحد معي».

قال فوديتشكا وقد بدأ الغضب ينتابه:

- حسناً، لو حاول ذلك النغل الهنغاري ان يرمي بشيء ما فوق رأسينا ستكون تلك هي النهاية فعلاً. سأمسكه من خناقه وأرميه من الطابق الأول الى اسفل الدرج، حتى يطير كشطية. ليس عليك ان تخاطر مع هؤلاء الانغال الهنغاريين. المهاودة لا تجدي.

- يا فوديتشكا أنت لم تشرب الكثير على اية حال. لقد شربت ربعي لتر زيادة عليك. ارجو ان تنتبه الى أننا لا نريد اثاره فضيحة. أنا المسؤول عن هذا الموضوع. وزيادة عليه، فإنها مسألة تتعلق بسيدة.

- سأضرب تلك السيدة أيضاً يا شفيك. لا فرق عندي. لا زلت لا تعرف فوديتشكا العجوز. مرة في «زابيلهيتسه» في «جزيرة الازهار» رفضت احدى العاهرات الرقص معي لأن فكّي كان متورماً كما قالت. صحيح ان فكّي كان متورماً لأنني كنت قد وصلت الى هناك للتو من حفلة رقص في «هوستيفارج»، ولكن تصوّر فحسب صعوبة تلقي مثل تلك الالهانة من مومس. قلت لها: «إليك واحدة مثلها ايها السيدة النبيلة حتى لا تتذمري». وبعد أن ضربتها رمت بالمائدة التي كانت تجلس إليها مع أبيها وأمها وأخويها الصغيرين بكل ما عليها من كؤوس. ولكني لم اكن خائفاً من كل من كان في «جزيرة الزهور»، فقد كان لي اصدقاء هناك من فوشوفيتسه وقد ساعدوني. وقد لقنا خمس عائلات درساً لا ينسى بمن فيهم الاطفال أيضاً. لا بد وان تلك المشاجرة قد سمعت حتى «ميخله». وبعد ذلك نشرت الصحف أخباراً عن حفلة الحديقة تلك والتي اقامتها جمعية خيرية لمواطني احدى المدن. وهكذا، وكما يساعدني الناس الآخرون فإنني اساعد اي صديق لي دائماً في حال حدوث مكروه. لن اتخلي عنك وليساعدني الله

على ذلك، لن أفعل. أنت لا تعرف هؤلاء الأنغال الهنغاريين... لا يمكنك طبعا ان تطردني الآن ونحن لم نر واحدا الآخر منذ سنوات كثيرة والظروف على ما هي عليه أيضاً في هذه الأيام».

قال شفيك:

- حسناً اذاً، تعال معي، ولكن ارجو التصرف بحذر حتى لا نفع في ورطة.

قال فوديتشكا بهدوء حين اقترب من الدرج:

- سأضربه...

ثم اضاف بلهجة أكثر هدوءاً:

- ستري، هذا النغل الهنغاري لن يزعجنا أبداً.

ولو كان في بوابة البناء من يفهم التشيكية لكان قد سمع على الدرج شعار فوديتشكا بصوت عال: «أنت لا تعرف هؤلاء الأنغال الهنغاريين...» وهو شعار وصل إليه فوديتشكا في الحانة الهادئة فوق نهر لايتا بين حدائق كيراليهيدا الشهيرة المحاطة بالجبال. وسيتذكر الجنود دائماً تلك الجبال بالشتائم وهم يستذكرون تلك «التدريبات» قبل الحرب العالمية وخلال الحرب العالمية والتي تلقوا فيها دروساً نظرية في القتل والذبح النظريين.

ها هما شفيك وفوديتشكا امام باب شقة السيد كاكوني. وقبل الضغط على الجرس.

قال شفيك:

- يا فوديتشكا، هل سبق لك وسمعت أن الحذر هو الجانب الأفضل من الشجاعة؟

اجاب فوديتشكا:

- لست منزعجاً، ولكن لا يجب ان نسمح له بوقت يكفي حتى لفتح فمه..

- ليست لديّ مشكلة مع اي شخص هنا يا فوديتشكا.

قرع شفيك وقال فوديتشكا بصوت عال: «آين، تسفاي»⁽¹⁾ ويكون قد اصبح في اسفل الدرج».

فتح الباب وأطلت خادم وسألت بالهنغارية عما يريدان.

قال فوديتشكا باحتقار:

- «نم تودوم»⁽²⁾: تعلمي التشيكية يا فتاتي الصغيرة.

سألها شفيك بألمانية «مكسرة»

- هل تفهمين الالمانية؟

اجابت الفتاة بألمانية «مكسرة» أيضاً:

- قليلاً.

- إذا قلتي للسيدة إنني اريد التحدث إليها. قلتي لها ان هناك رسالة من سيّد يقف في الممر.

قال فوديتشكا وهو يلحق بشفيك الى داخل البهو:

- يدهشني انك تضيّع وقتك في الحديث مع عاهرة صغيرة كهذه.

وقفنا في البهو وأغلقتا الباب المؤدي الى الممر واقتصر شفيك على القول:

- انهم في احسن حال هنا، ولديهم مظللتان حتى على مشجب

المعاطف. وتلك الصورة ليسوع المسيح ليست سيئة الى هذا الحد.

ومن إحدى الغرف، التي كان يمكن منها سماع صوت رنين الملاعق

وصلصلة الاطباق، ظهرت الخادمة مرة اخرى وقالت لشفيك:

(1) واحد، اثنان بالالمانية (المترجم).

(2) لا اتكلم بها (بالهنغارية). (س. ب.)

- ليس لدى سيدتي وقت لاستقبالك. ان كان هناك اي شيء فأعطه لي
وقل لي ما تريد.

قال شفيك برزانه:

- حسناً. رسالة للسيدة، وأرجو التكرم.

ثم اخرج رسالة الملازم الأول لوكاش.

قال وهو يشير الى نفسه:

- أنا انتظر الجواب في البهو هنا.

قال له فوديتشكا الذي سبق له وجلس على كرسي قرب الجدار:

- لم لا تجلس؟ هناك كرسي لك. ليس عليك ان تقف كشحاد. لا تحط
من قدر نفسك امام الهنغاري. سترى، لا شك انه سيزعجننا، ولكني سأضربه.

ثم قال بعد دقيقة من الزمن:

- اسمع، اين تعلمت الالمانية؟

اجاب شفيك:

- علّمت نفسي بنفسي.

ثم ساد الصمت لبرهة من جديد. ثم سمعا فجأة من الغرفة التي دخلتها
الخادمة صراخاً وصخباً هائلين. ثم ألقى شخص ما شيئاً ثقيلاً على الأرض،
ثم كان بالإمكان سماع صوت الكؤوس وهي تتطاير والأطباق وهي تتناثر
مختلطة بشتائم بالهنغارية شديدة البذاءة وتبدأ بالأم ولا تنتهي حتى تشمل
الكون كله.

فتح الباب واندفع نحو البهو رجل كهل وضع فوطة حول عنقه وهو
يلوح بيديه بالرسالة التي تم تسليمها قبل لحظة.

كان جندي سلاح الهندسة فوديتشكا العجوز يجلس قرب الباب، ولذا
خاطبه بالتالي السيد الغاضب أولاً:

- ما الذي يعنيه هذا؟ اين هو ذلك الخنزير الذي جلب الرسالة؟

قال فوديتشكا وهو ينهض:

- تحدث بلطف. لا تصرخ ما لم تكن تريد ان تطرد خارجاً. وان كنت ترغب في معرفة من جلب الرسالة فاسأل صديقي هذا ولكن تحدث إليه بأدب، وإلا واحد اثنان ثلاثة وتكون خارج الباب.

والآن كان على شفيك ان يدرك الفصاحة الرائعة التي كان يتميز بها السيد ذو القوطة المحيطة بعنقه والذي كان شديد الغضب وقال انهما كانا يتناولان غداءهما للتو.

قال شفيك موافقاً بالألمانية مكسرة:

- سمعنا انكما تتناولان الغداء.

ثم اضاف بالتشيكية:

- كان يمكن ان يخطر لنا أيضاً أننا ربما كنا نبعثك دون ضرورة عن تناول وجبتك.

قال فوديتشكا:



- لا تحط من قدر نفسك!

قال الرجل الغاضب الذي كانت فوطته بسبب ايماءاته الحيوية قد بقيت معلقة من زاوية واحدة، بأنه ظن الرسالة تحوي في البداية شيئاً عن ايواء جندي في البيت الذي هو ملك لزوجته.

قال شفيك:

- يمكن لكثير من الجنود ان يدخلوا الى هنا، ولكن الرسالة لم تكن بخصوص هذا الموضوع، كما يمكنك ان ترى بنفسك.

رفع السيد يديه الى رأسه وتلفظ بسلسلة كاملة من التوبيخات قائلاً انه أيضاً ملازم أول في الاحتياط وانه يود لو كان في الخدمة الآن ولكنه مصاب بمرض في الكلية. في أيامه لم يكن الضباط مهتكين الى هذا الحد بحيث يقلقون راحة العائلات. وعلى كل حال سيرسل الرسالة الى قائد الفوج ووزارة الحربية وسينشرها في الصحف.

قال شفيك باحترام:

- سيدي، أنا الذي كتبت هذه الرسالة. لقد كتبتها. لا يوجد أي ملازم أول. التوقيع والاسم مزيفان. أحب زوجتك كثيراً. «ايش ليه ايره فراو»⁽¹⁾ أنا غارق حتى اذني في حب زوجتك، كما اعتاد «فرخليتسكي»⁽²⁾ ان يقول. انها امرأة ممتازة.

أراد السيد الغاضب ان يرمي بنفسه على شفيك الذي وقف بهدوء وسعادة أمامه، ولكن فوديتشكا جندي سلاح الهندسة العجوز الذي كان يلاحق كل حركة من حركاته امسك به ودفعه أرضاً وانتزع الرسالة من يده وكان هذا يلوح بها باستمرار، ثم حشرها في جيبيه. ثم حين حاول السيد كاكونبي النهوض مرة اخرى امسك به فوديتشكا وحمله

(1) أحب زوجتك (بالألمانية) (المترجم).

(2) شاعر تشيكي شهير. (س. ب.).

الى الباب وفتحته بيد واحدة. ثم سُمع شيء ما يتدحرج على الدرج. وقد حدث ذلك كله بسرعة كما في الحكايات الخرافية، وذلك حين يأتي الشيطان ليأخذ شخصاً ما.

كان الاثر الوحيد المتبقي من السيد الغاضب هو فوطته التي التقطها شفيك وطرق باحترام على باب الغرفة التي خرج منها قبل خمس دقائق السيد كاكونبي وحيث كان بالامكان سماع صوت امرأة تبكي.

قال شفيك بلطف للسيدة التي تبكي وهي جالسة على الأريكة:

- لقد أحضرت تلك الفوطة. قد يدوس شخص ما عليها. تحياتي يا سيدتي.

ثم طقطع بكعبيه وأدى التحية وخرج الى الممر. على الدرج لم تكن هناك اية آثار للعراك وكما تنبأ فوديتشكا فقد مر كل شيء على ما يرام.

ولكن شفيك وجد بعد ذلك عند بوابة البناء قبة ممزقة. لا بد وان الفصل الأخير من هذه التراجيديا قد تم تمثيله هنا حين حاول السيد كاكونبي بائساً التمسك ببوابة البناء حتى لا يجر الى الشارع.



كان المنظر مترعاً بالحياة في الشارع على اية حال. فقد كان السيد كاكونني قد تم جره حتى بوابة البناء المقابل حيث صُب الماء عليه، وفي منتصف الشارع كان جندي الهندسة العجوز فوديتشكا يقاتل كالأسد ضد مجموعة من جنود الهونفيد وفرسان الهونفيد الذين هرعوا النجدة مواطنيهم. وقد دافع هذا عن نفسه بأسلوب يدل على الاستاذية فقد جعل حربته تتدلى من حزامه الذي راح يستعمله كأنه مدرس حنطة يدوي. ولم يكن وحيداً. فقد قاتل الى جانبه عدد من التشيكيين من مختلف الأفواج كانوا يمرون صدفة في الشارع.

لم يعرف شفيك، كما أفاد لاحقاً، كيف وجد نفسه متورطاً في ذلك كله، ولا كيف اختطف عصا احد المارة الذي كان الرعب قد صعقه، حيث لم يكن شفيك يحمل حربته.

وقد استمر ذلك فترة طويلة، الا ان كل الامور الجيدة سرعان ما تنتهي. فها هي الشرطة العسكرية قد وصلت واعتقلتهم جميعاً.

حمل شفيك معه العصا التي اعلن قائد الشرطة العسكرية أنها «جسم الجريمة» او «الواقعة المادية لإثبات حصول الجريمة» وسار جنباً الى جنب مع فوديتشكا.

كان يسير بسعادة حاملاً العصا على كتفه كأنها بندقية.

صمت جندي الهندسة العسكرية العجوز فوديتشكا على نحو عنيد خلال الرحلة كلها. ولم ينطق إلا عندما وصلوا الى محرس الشرطة العسكرية فقال بلهجة كئيبة لشفيك:

- أو لم أقل لك إنك لا تعرف هؤلاء الأنغال الهنغارين؟

اللام جديدة

راقب العقيد شرودر بكل رضا الوجه الشاحب للملازم الأول لوكاش الذي كانت تحيط بعينيه هالتان كبيرتان، والذي راح يتجاهل، بسبب ارتبائه، تحديق العقيد فيه.

وكانما كان يدرس شيئاً ما خلسة، راح لوكاش ينظر الى خطة تنظيم الرجال في المعسكر، التي كانت هي أيضاً الزينة الوحيدة في كل ارجاء المكتب.

على المكتب امام العقيد شرودر كانت بعض الصحف التي تحوي مقالات معلمة بالقلم الأزرق. وقد ألقى نظرة عجلية عليها مرة اخرى وقال وهو ينظر الى الملازم الأول لوكاش:

- إذا فأنت تعرف مسبقاً ان وصيفك شفيك قيد الاعتقال وربما سيمثل امام محكمة ميدانية؟

- نعم يا سيدي.

قال العقيد بشدداً وهو يمتع عينيه بالنظر الى وجه الملازم الأول لوكاش:

- ولكن هذه ليس نهاية القضية. لقد اصيب المجتمع المحلي هنا

بالصدمة طبعاً بسبب قضية وصيفك شفيك ذلك، كما أن اسمك قد ذكر ضمن سياق القضية أيضاً أيها الملازم. لقد سبق لرئاسة أركان الفوج أن أرسلت إلينا بعض المواد. لدينا هنا بعض الصحف التي تحدثت عن هذه القضية. يمكنك ان تقرأها لي بصوت عالٍ.

ثم سلم الى الملازم الأول لوكاش الصحف وعليها المقالات مؤشراً عليها بعلامة وبدأ الملازم الأول بتلاوتها بصوت رتيب وكأنه يقرز من كتاب تعليم الصف الأول الابتدائي: «العسل اكثر تغذية واسهل على الهضم من السكر».

(أين ضمانه مستقبلنا؟)

سأل العقيد:

- هل تلك صحيفة «بستر لويدي».

أجاب الملازم الأول لوكاش:

- أجل يا سيدي.

ثم استأنف التلاوة:

«ان شن الحرب يتطلب تعاون طبقات سكان المملكة الهنغارية - النمساوية كافة. وإذا كنا مصممين على ضمان أمن الدولة، فإن على كل القوميات ان تقدم لبعضها البعض الدعم المشترك، وانه بالاحترام الفطري الذي تشعر به قومية ما تجاه الأخرى يتم ضمان مستقبل دولتنا. ان اكبر التضحيات التي يقوم بها مقاتلونا البواسل في الجبهات الذين يتقدمون الى الامام دون ابطاء، لن تكون ممكنة ان كانت القاعدة - ألا وهي النبض الاضافي والسياسي لجيوشنا المجيدة - دون توحيد، ان كانت هناك عناصر خلف ظهر قواتنا تحاول تحطيم وحدة الدولة وتحاول بدعايتها الحاقدة تخريب سلطة الدولة كوحدة متكاملة، وتبذر الشقاق في مجتمع قوميات امبراطوريتنا. في هذه الساعة التاريخية لا يمكننا ان نسكت عن حفنة من



الناس يحاولون من خلال دوافع شوفينية اقليمية ان يدمروا الجهود التوحيدية وكفاح قوميات امبراطوريتنا كافة في سبيل ايقاع العقوبة العادلة بالمجرمين الذين هاجموا حدود امبراطوريتنا دون مبرر او سبب بهدف حرمانها من كل إرثها الثقافي والحضاري. لا يمكننا تجاهل هذه المظاهر المثيرة للاشمئزاز من مظاهر هيجان عقلية مريضة لا هدف لها سوى تخريب الاجماع الذي يسود قلوب شعوبنا. لقد سبق لنا مراراً واغتنمنا الفرصة ولفتنا الانتباه في صحيفتنا الى ضرورة ان تتدخل سلطاتنا العسكرية بأشد ما يكون من القسوة ضد اولئك الأفراد في الأفواج التشيكية، الذين اذ يتجاهلون تقاليد أفواجهم المجيدة يحاولون بسلوكهم الفارغ الفاضح ان يثيروا الحقد في مدننا الهنغارية ضد الأمة التشيكية بأسرها، وهي ككل بريئة تماماً وقد وقفت باستمرار مع مصالح هذه الامبراطورية. وقد تم تأكيد ذلك بواسطة تلك السلسلة الكاملة من الشخصيات التشيكية العسكرية البارزة، والذين نستذكر منهم اشخاصا مجيدين كالمارشال رادتسكي ومدافعين آخرين عن الملكية الهنغارية - النمساوية. وبالتباين مع هذه الامثلة المضينة هناك قلة من الاوغاد التشيكيين من الرعاع الفاسقين ممن انصاعوا لأحط الغرائز واستغلوا فرصة الحرب العالمية للتطوع في الخدمة العسكرية وزرع بذور الفوضى في تضامن قوميات الملكية. لقد سبق لنا ولفتنا الانتباه الى السلوك الشائن لأفراد الفوج رقم... في «دبريتسين». والذين كانت تجاوزاتهم الشائنة موضوع البحث والادانة من قبل صحيفة «بودابست دايت» والذين «صودر» يبرق فوجهم لاحقاً على الجبهة. من الذي يتحمل وزر هذه الخطيئة الشنيعة؟ «صودر». من الذي قاد الجنود التشيكيين الى «صودر» تلك؟ ان السلوك الوقح لهذه الطفيليات الغربية في وطننا الهنغاري يمكن ان يتوضح كأفضل ما يكون في قضية كير اليهيدا تلك. وهي القاعدة الهنغارية الامامية على نهر «لايتا». ما كانت قومية اولئك الجنود من المعسكر المجاور في «بروك أن دير لايتا» الذين هاجموا وعذبوا التاجر

المحلي السيد غيولا كاكوني؟ من الواضح انه يتوجب على السلطات تحري هذه الجريمة وان تطلب المعلومات من القيادة العسكرية التي تهتم الآن بهذه المسألة دون شك. ونحن نطلب معرفة الدور الحقيقي الذي لعبه الملازم الأول لو كاش فيما يخص هذا التحريض الذي لم يسبق له مثيل ضد مواطني مملكة هنغاريا. ان اسم هذا الضابط قد ذكر في البلدة فيما يتعلق بحوادث الايام الماضية، كما أفاد مراسلنا المحلي، الذي سبق له وجمع مادة ضخمة حول هذه القضية كلها. وهي فضيحة مدوية في أيامنا الصعبة هذه. هذا وسيتابع قراء «بسترلويد» وباهتمام تطور تحري هذه القضية ونرغب في ان نؤكد لكم اننا سنوافيكم بالتفصيل بكل اخبار هذه القضية ذات الأهمية البارزة. وعلى اية حال، لا زلنا نتوقع أخباراً رسمية عن الجريمة التي حصلت في كيراليهيدا. والتي ارتكبت ضد السكان الهنغارين. ومن الواضح ان صحيفة «بودابست دايت» ستعالج هذه المسألة حتى يتم التأكد نهائياً من أن الجنود التشيكيين المارين عبر مملكة هنغاريا في طريقهم الى الجبهة لن يسمح لهم بالتفكير بأنهم يمتلكون أراضي تاج «القديس ستيفن» امتلاكاً كاملاً. وإذا كان اي افراد من هذه القومية قد مثلوا في كيراليهيدا على نحو رائع شراكة كل القوميات في هذه الدولة. فإن كان هؤلاء الافراد لا زالوا غير قادرين على فهم الوضع، فعليهم المحافظة على الصمت المطبق. حيث انه في زمن الحرب سيتعلم الناس من هذا النوع بالرصاص والمشائق والسجون والحراب ان يكونوا طيعين وان يكيفوا سلوكهم وفق المصالح العليا لوطننا المشترك».

- من كتب هذه المقالة يا ملازم أول؟

- بيلا باباراس، المحرر والنائب في البرلمان يا سيدي.

- انه خنزير سيء السمعة أيها الملازم الأول، ولكن قبل أن تجد المقالة طريقها الى «بسترلويد» كان قد سبق لها ونشرت في صحيفة «بستي هيرلاب». والآن أرجو ان تقرأ لي الترجمة الرسمية عن الهنغارية للمقالة

المنشورة في صحيفة «سوبروني نابلو» الصادرة في «سوبرون».

وهكذا تلا الملازم الأول لو كاش المقالة الذي بذل فيها المحرر جهداً عظيماً حتى يبرز المزيج العجيب التالي من التعابير على أفضل نحو:

«متطلبات حكمة الدولة»، «القانون والنظام»، «الانحطاط البشري»، «الكرامة الإنسانية والمشاعر الإنسانية المداسة بالأقدام»، «فسوق آكلي لحوم البشر»، «مذبحة المجتمع الإنساني»، «زمرة من المماليك»، «وراء الكواليس تستطيع تمييزهم»، وغيره وغيره، وكان الهنغارين كانوا أكثر العناصر اضهاداً على أرضهم بالذات، ولكأن الجنود التشيكيين قد جاؤوا وضربوا المحرر وداسوا على بطنه بأحذيتهم العسكرية، بينما راح هو يصرخ من الألم وقام شخص ما بتدوين ذلك كله بلغة الاختزال.

كانت صيحة العويل التي اطلقتها صحيفة «سوبروني نابلو» وهي الصحيفة اليومية التي تصدر في سوبرون كما يلي:

«هناك صمت خطير يحيط ببعض المسائل الهامة ولم ينشر عنها اي شيء. كلنا يعرف ما هو الجندي التشيكي في هنغاريا وفي الجبهة، وكلنا يعرف ما هي الاشياء التي يرتكبها التشيكيون، وما الذي يحدث هنا، وما هي الأوضاع مع التشيكيين ومن هو الذي يقف خلف ذلك كله. ان يقظة السلطات موجهة تجاه امور اخرى ذات اهمية لا يجب ان تعزل طبعاً عن السيطرة الشاملة على الحوادث بحيث لا يتكرر ما حدث في كيراليهدا في هذه الأيام الأخيرة مرة أخرى. ان مقالنا البارحة قد تمت مصادرتها في خمسة عشر مكانا. ولذلك لا نجد بديلاً عن القول انه حتى اليوم ما زلنا لا نملك من الناحية الفنية اسباباً كثيرة تجعلنا نعالج بالتفصيل الحوادث التي جرت في كيراليهدا. وقد أفاد الصحفي الذي أوفدناه ان السلطات تبدي اهتماماً حقيقياً في المسألة ككل وان التحريات في زالت تتقدم بأقصى ما يكون من السرعة. والأمر الغريب الوحيد هو ان بعض المشاركين في هذه

المذبحة لا زالوا طليقيين. وهذا هو الحال مع احد السادة الذي لا زال، كما تقول الاشاعة، بعيداً عن متناول العدالة، وهو موجود الآن في المعسكر وما زال يرتدي شارة «البيغاء»⁽¹⁾ الخاصة بفوجه، والذي نشر اسمه في يوم ما قبل أمس في صحيفتي «بسترلويد» و«بستي نابلو». ونقصد هنا الشوفيني التشيكي الشهير «لوكاش» الذي سيشكل سلوكه موضوع الاستجواب الذي سيطره نائبنا «غيزا سافانيو» ممثل منطقة كيراليهيدا في البرلمان، على وزير الحربية».

قال العقيد شرودر:

- لقد نشرت الصحف الأسبوعية الصادرة في «كيراليهيدا» و«بريسبورغ» مقالات عنك تحمل هذا الود نفسه تجاهك أيها الملازم الأول. ولكن ذلك لا يهملك كثيراً لأنه متماثل مع غيره. وهناك اسباب سياسية لهذا، فنحن النمساويين، ألماناً كنا أم تشيكيين، لا نزال على اية حال إذا ما قورنا بالهنغارين، اكثر... أنت تفهمني أيها الملازم الأول، أليس كذلك؟ هناك هدف ما من كل هذه المسألة. قد تكون اكثر اهتماماً على الأرجح بمقالة نشرت في «أخبار مساء كومارنو»، حيث يؤكدون انك حاولت اغتصاب السيدة كاكونبي امام غرفة طعامها مباشرة خلال وجبة الغداء، وفي حضور زوجها الذي هدته بسيفك واجبرته على ان يكمم فم زوجته بمنشفة حتى لا تصرخ. هذه هي آخر الأخبار أيها الملازم الأول. ابتمس العقيد ثم تابع قائلاً:

- لم تقم السلطات بواجبها. ان الرقابة الوقائية على الصحف هنا في يد الهنغارين أيضاً. انهم يفعلون ما يشاؤون بنا. لا يتمتع ضباطنا بأية حماية من شتائم محرر هنغاري مدني خنزير كهذا، ولولا تدخلنا السريع اي لولا البرقية المرسلة من المحكمة الميدانية التابعة لفرقتنا لما كان مكتب المدعي العام في بودابست قد اتخذ الخطوات الضرورية لتنفيذ اجراءات الاعتقال

(1) كان اعضاء الفوج الواحد والتسعين يرتدون شعار بيغاء أخضر على بزاتهم. (س. ب).

بحق محرري الصحف المذكورة كافة. أما الشخص الذي سيدوق الأمرين فهو محرر «أخبار مساء كوما رنو»، حيث انه سيتذكر «أخبار مسائه» هذه حتى يوم مماته. لقد فوضتني المحكمة الميدانية التابعة لفرقتنا بوصفي ضابطك الأمر بأن اسمع وجهة نظرك في القضية. كما ارسلت لي في الوقت نفسه كافة الوثائق المتعلقة بأعمال التحري في هذا الموضوع. كان كل شيء سيسير على ما يرام لولا شفيكك ذاك التعيس الحظ، فقد كان معه جندي من سلاح الهندسة العسكرية اسمه فوديتشكا. وحين اخذوا هذا الجندي الي المحرس بعد المشاجرة وجدوا معه رسالة قمت أنت بكتابتها الى السيدة كاكونبي. وقد ادعى شفيكك ذاك امام المحققين انها لم تكن رسالتك بل انه هو الذي كتبها بنفسه. وعلى اية حال حين تم اعطاؤها له وطلب منه أن يكتب نسخة عنها لمقارنة خط يده مع الخط الذي كتبت به الرسالة قام بابتلاع الرسالة. ومن ديوان الفوج تم ارسال تقاريرك لاحقاً الى المحكمة الميدانية الخاصة بالفرقة حتى تتم مقارنة خطك مع خط شفيك وهذه هي النتيجة.

وهنا قلب العقيد في صفحات الوثائق ولفت انتباه الملازم الأول الى الفقرة التالية:

«لقد رفض المتهم، شفيك، أن يكتب الجمل التي أمليت عليه، مدعياً انه قد نسي خلال الليل كيف تتم الكتابة».

- أنا لا اعير اية اهمية لكل ما يقوله شفيكك ذاك او جندي الهندسة امام المحكمة الميدانية الخاصة بالفرقة أيها الملازم الأول. فقد ادعى هذان ان المسألة عبارة عن نكتة صغيرة أسيء فهمها وانه جرى الاعتداء عليهما بالذات من قبل اشخاص مدنيين فدافعا عن نفسيهما لحماية شرفهما العسكري. وخلال اجراءات التحقيق تبين ان شفيكك ذاك وغد رائع حقاً. فقد أجاب مثلاً حين سئل عن السبب في عدم اعترافه بما يلي، كما ورد في التقرير: «أنا في الموقف نفسه الذي وجد فيه خادم الاكاديمية الرسام السيد

بانوشكا نفسه مرة فيما يخص بعض صور مريم العذراء. كان السؤال متعلقاً ببعض الصور التي اتهم باختلاسها فلم يجب سوى بما يلي: «هل تريدون مني ان أبصق الدم؟» وطبعاً وباسم قيادة الفوج فقد ارتأيت، وذلك باسم المحكمة الميدانية الخاصة بالفرقة، ان تنشر كل الصحف تصحيحاً لكل المقالات السخيفة التي نشرت في الصحف المحلية هنا. واليوم سترسل هذه التصحيحات. وآمل أن أكون قد فعلت كل شيء لإصلاح ما حدث نتيجة للسلوك الشائن لأولئك الأنغال الصحفيين من الهنغارين المدنيين. واعتقد اني صفتها جيداً:

«ينص أمر المحكمة الميدانية الخاصة بالفرقة رقم (ن) وأمر قيادة الفوج رقم (ن) على ان المقالة المنشورة في الصحف المحلية حول الاعمال المتطرفة التي ارتكبتها جنود الفرقة (ن) ليس لها اساس في الواقع وهي ملفقة من أولها الى آخرها، وان الاجراءات المتخذة ضد هذه الصحف سينجم عنها عقوبات شديدة ضد المذنبين».

ثم استأنف العقيد قائلاً:

- في تقريرها الى قيادة فوجنا افادت المحكمة الميدانية الخاصة بالفرقة انها وصلت الى نتيجة مفادها ان خلف ذلك كله يكمن التحريض المتعمد ضد الوحدات العسكرية القادمة من «تسيسلايتانيا» الى «ترانسلايتانيا». قارنوا فحسب كم ذهب الجنود الى الجبهة من ذلك الجزء من بلدنا وكم ذهب منهم. اقول لكم ان اي جندي تشيكي افضل عندي من زمرة من الأنغال الهنغارين. يكفيني ان اتذكر كيف قام الهنغاريون في بلغراد بإطلاق النار على كتيبتنا الثانية المتجهة الى الجبهة التي لم يعرف جنودها ان الهنغارين هم الذين كانوا يطلقون النار عليهم فبدأوا يطلقون النار على قوات «الدويتشما يستر» التي كانت على الجناح الأيمن. ثم اصيبت قوات الدويتشما يستر أيضاً بالاضطراب وفتحت النار على الفوج «البوسني» الذي كان الى القرب منهم. وكان ذلك موقفاً جميلاً في تلك اللحظة

بالذات كنت اتناول طعام الغداء في مقر رئاسة اركان اللواء. في اليوم السابق كنا قد قنعنا بتناول فخذ الخنزير المقدد والحساء المعلب، ولكننا حصلنا ذلك اليوم على حساء دجاج حقيقي «وفيليه» مع الأرز وبعض الكعك المحلي المقلي بالدهن مع كوكتيل البيض. في المساء السابق على ذلك كنا قد شققنا تاجر خمور صربيا في البلدة ووجد طباخونا في قبوه نبيذاً عمره ثلاثون عاماً. يمكنك ان تتصور اللفتة التي كنا ننتظر بها وجبة الغداء. كنا قد تناولنا الحساء وبدأنا نفتك بالفروج حين حدث اشتباك فجأة وسمعنا صلية نيران، ثم بدأت مدفيعتنا. التي لم تكن لديها اية فكرة ان وحدتنا هي التي كانت تشتبك مع بعضها، بدأت تطلق النار على صفوفنا وسقطت احدى القذائف قريباً من مقر رئاسة أركان لوائنا. لقد ظن الصربيون ربما أن تمرداً قد حدث على جانبنا وهكذا بدأوا يطلقون النار علينا من كل الجوانب ويعبرون النهر باتجاهنا. استدعي قائد اللواء الى الهاتف واقام قائد الفرقة الدنيا وأقعداها بسبب المجزرة التي حصلت في قطاع اللواء. قال انه قد وصلته أوامر من اركان الجيش بالبدء بالهجوم على مواقع الصربيين الساعة 2,35 صباحاً على الجناح الأيسر. كنا نحن الاحتياط وعلينا ان نتوقف فوراً عن إطلاق النار. ولكن في مثل ذلك الوضع كيف يمكنك ان تتوقف اطلاق النار؟ افاد مقسم هاتف اللواء انه لم يستطع ان يتصل بأية جهة ولكن اركان الفوج الخامس والسبعين كانوا يفيدون باستلامهم من الفرقة المجاورة الأمر بالثبات، وانه غير ممكن الاتصال بفرقتنا وان الصربيين قد احتلوا المواقع 212 و326 و327، وانه مطلوب من كتيبتنا ان تعمل ككتيبة اتصال وتوفر الاتصال الهاتفي مع فرقتنا. وقد حولنا هذه المكالمة الى الفرقة ولكن الاتصال كان مقطوعاً، لأن الصربيين كانوا في هذه الاثناء قد اصبحوا خلفنا على كلا الجناحين وقطعوا وسطنا على شكل مثلث. وداخل ذلك المثلث بقي كل شيء: الافواج والمدفعية وقفل الرتل مع

طابور كامل من السيارات والمستودعات والمستشفى الميداني. بقيت يومين كاملين راكباً جواً. هذا وقد أسر قائد الفرقة مع قائد لوائنا، وكان ذلك كله بسبب الهنغاريين الذين اطلقوا النار على كتيبتنا المتقدمة. بالطبع، وكما يمكنك ان تتصور، فقد وضعوا اللوم كله على فوجنا.

بصق العقيد ثم استأنف قائلاً:

- تستطيع ان ترى بنفسك أيها الملازم الأول كيف استغلوا مغامرتك الصغيرة في كيرالهيديا ذلك الاستغلال الرائع.

سئل الملازم الأول لوكاش محرراً.

قال له العقيد بلهجة حميمة:

- أيها الملازم الأول، قل لي بصراحة، كم مرة نمت مع السيدة كاكوني؟

كان العقيد شرودر في مزاج جيد اليوم.

- لا تقل لي ايها الملازم الأول انك كنت قد بدأت للتو بالتراسل معها.

حين كنت في مثل سنك امضيت ثلاثة اسابيع في «إرلاو» لحضور دورة في الهندسة ويمكنك ان ترى أنني لم أفعل شيئاً خلال تلك الأسابيع الثلاثة عدا النوم مع النساء الهنغاريات كل يوم مع واحدة مختلفة: شابات وعازبات وكهلات ومتزوجات، اية واحدة تأتي في طريقي.

لقد كويتهم جيداً بمكواتي والى حد اني حين عدت الى فوجي لم اكن أستطيع تحريك ساقي الا بالكاد. وكانت زوجة احد المحامين هي التي استهلكنتي اكثر من غيرها. لقد أرنتني ما تستطيعه النساء الهنغاريات. لقد عضتني من أنفي خلال ممارستي الحب معها ولم تترك لي المجال لأغمض جفني ولو لحظة واحدة طوال الليل.

ثم قال له العقيد وهو يربت بحميمية على كتفه:

- إذا أنت بدأت تراسلها للتو... نحن نعرف ذلك. لا حاجة الى ان تقول

اي شيء.. لي رأيي الخاص في القضية كلها. لقد تورطت معها، ثم جاء زوجها وشفيكك الغبي ذاك... ولكنك تعرف ايها الملازم الأول ان شفيكك ذاك يتمتع بشخصية متميزة رغم كل شيء، وخاصة حين فعل ما فعله برسالتك تلك. لا شك ان المرء يشعر بالعطف على مثل ذلك الرجل. أقول إنها قضية تربية بيتية. هذا ما أحبه في ذلك النغل. لا شك انه سيتم وضع حد للإجراءات المتعلقة بهذا الموضوع. ايها الملازم لقد تم تلطix سمعتك في الصحف. ان وجودك هنا أمر غير ضروري اطلاقاً. خلال اسبوع واحد هناك كتيبة متقدمة سترسل الى الجبهة الروسية. أنت أعلى ضابط في السرية الحادية عشرة وسنرسلك معها كقائد لها. لقد تم ترتيب كل الامور في قيادة اللواء. قل لرقيب أول الإمدادات ان يجد لك وصيفاً آخر غير شفيك.

نظر الملازم الأول لوكاش بامتنان الى العقيد الذي استأنف قائلاً:

- أعين لك شفيك كجندي ارتباط للسرية.

شحب وجه الملازم الأول ونهض العقيد ومد له يده قائلاً:

- حسناً، كل شيء قد سوي الآن. اتمنى ذلك حظاً سعيداً وأن تبلى بلاء

حسناً على الجبهة الشرقية. وإذا ما حدث والتقينا مرة اخرى فتعال وشاركنا

في جلساتنا. لا تتجنب رفقتنا كما فعلت في بوديوفيتسه..

كرّر الملازم الأول لوكاش في نفسه وهو في طريقه الى البيت:

- قائد السرية، جندي ارتباط السرية.

وكانت صورة شفيك تلوح بحيوية امام عينيه.

قال رقيب أول الامدادات حين أمره الملازم الأول بان يجد له وصيفاً

جديداً بدلاً عن شفيك:

- كنت أظن يا سيدي أنك راض عن شفيك.

وحين علم أن العقيد عيّن شفيك كجندي ارتباط للسرية الحادية عشرة
صاح:

- فليكن الله في عوننا جميعاً!

* * *

في محكمة الفرقة وضمن مبنى ركبت له القضبان وحول الى سجن،
أفاق المتهمون في السابعة صباحاً وفقاً للأنظمة، ورتبوا حشيات القش التي
كانت مرمية على الأرض في الغبار. لم تكن هناك أسرة. وفي حجيرة ضمن
البهو الطويل كانوا يطوون البطانيات ويضعونها بأناقة على حشيات القش
وفقاً للأنظمة. كان الرجال الذين أنهوا عملهم جالسين على مقاعد على
امتداد الجدار وينظرون إما الى القمل (وهؤلاء هم القادمون من الجبهة)، او
يسلون أنفسهم يسرد مختلف المغامرات.

جلس شفيك مع جندي الهندسة العجوز فوديتشكا على مقعد قرب
الباب مع مجموعة من الجنود ينتمون الى مختلف الأفواج والوحدات
العسكرية.

قال فوديتشكا:

- انظروا الى ذلك الشخص الهنغاري قرب النافذة. انظروا كيف يصلي
ذلك النغل للرب حتى تسير أموره جيداً. الا تحبون ان تشقوا له حنكه من
الأذن الى الأذن؟

قال شفيك:

- ولكنه رجل محترم. انه هنا لأنه رفض الالتحاق بالخدمة لا غير.. هو
ضد الحرب وينتمي الى طائفة دينية معينة، وقد سجنوه لأنه يرفض أن يقتل
احداً، فهو يطيع وصية الرب، ولكنهم سيذيقونه الويل بتلك الوصية. قبل
الحرب عرفت شخصاً اسمه «نمرافا» كان يعيش في مورافيا ويرفض حتى

ان يحمل بندقية على كتفه. وحين استدعي الى الخدمة قال ان حمل البندقية يتنافى مع مبادئه. وبسبب ذلك حشر في السجن حتى ازرق وجهه ثم احضر ثانية ليؤدي القسم. ولكنه قال لي انه لن يؤديه اذ ان ذلك يتنافى مع مبادئه وظل مثابراً على ذلك حتى اعفي من الخدمة.

قال جندي الهندسة العجوز فوديتشكا:

- لاشك وانه احمق. كان يمكنه ان يؤدي القسم ثم يبرز على كل شيء، وعلى القسم أيضاً.

قال أحد جنود المشاة:

- لقد سبق لي وأديت القسم ثلاث مرات، وهذه هي المرة الثالثة التي أحبس فيها بسبب الفرار من الخدمة، ولو لم احصل على شهادة طبية تفيد بأنني ضربت عمتي حتى الموت قبل خمسة عشر عاماً في نوبة من نوبات الجنون لأعدموني رماً بالرصاص ثلاث مرات في الجبهة. ولكن عمتي المرحومة المأسوف عليها كانت تساعدني دائماً على الخروج من الورطة وفي النهاية ربما خرجت من هذه الحرب سليماً معافى.

سأل شفيك:

- ولماذا قتلت عمته العجوز؟

أجاب الرجل اللطيف:

- لماذا يقتل الناس بعضهم البعض؟ يمكنك ان تخمن ذلك بنفسك. كان ذلك بسبب المال طبعاً. كان لديها خمسة دفاتر توفير في المصرف تلك المرأة العجوز رثة الملابس، وكانوا قد أرسلوا إليها للتو مبلغ الفائدة المترتبة حين ذهبت لزيارتها، وكنت وقتها «على الحديد» تماماً. لم يكن لدي في عالم الرب كله اي قريب آخر سواها. وهكذا ذهبت لأطلب منها ان تضعني تحت رعايتها. ثم قالت لي تلك الكلبة العجوز إنني شاب وقوي وصحيح الجسم وان عليّ ان اذهب واكسب قوتي من عرق جبينني. حسناً، لقد

تشاجرنا - والكلمة تجر الكلمة كما تعرفون - ولم أضربها سوى بضع ضربات على رأسها بقضيب اذكاء النار في المدفأة، ولكن وجهها تشوّه الى حد اني لم اعد اعرف أهي عمتي ام لا. وهكذا جلست الى القرب منها على الأرض ورحت اقول لنفسي: «هل هذه عمتي ام انها ليست عمتي؟» وقد وجدني الجيران على هذه الحال في اليوم التالي: جالسا الى القرب منها. وكان ان وضعت في مستشفى المجانين في «ناسلوبى» حتى ما قبل الحرب حين ارسلونا الى لجنة في «بوهنيتسه» لتقوم بفحصنا، وقد افادت هذه اللجنة بأني تعافيت وان عليّ الذهاب الى الجيش لأخدم فيه واعوّض عن السنوات التي فاتتني.

مرّ جندي نحيل مهزول ذو مظهر مضني بالهموم حاملاً مكنسة.

قال جندي من كتيبة الرماة كان يجلس الى القرب من شفيك:

- هذا معلم مدرسة من آخر كتيبة متقدمة اتجهت الى الجبهة. والآن ترونه وهو يدور في انحاء المكان ويكنس الأرض. انه رجل محترم جداً. وقد سجنوه هنا لأنه كتب قصيدة سخيفة.

ثم نادى على رجل المكنسة:

- مرحباً يا استاذ، تعال الى هنا.

اقرب هذا من المقعد وعلى وجهه تعبير رزين، فقال له جندي كتيبة الرماة:

- الق علينا قصيدتك تلك التي نظمتها حول القمل.

تنحى الرجل صاحب المكنسة وبدأ بالإلقاء فقال:

«الجيش كله مقمل، انهم يحكون هناك في الجبهة.

وعلى ظهورنا تزحف قملة هائلة الحجم.

حتى الجنرال نفسه اضطر الى الانضمام الى حملة المطاردة.

لقد جعله القمل يتقلب في الفراش وأفسد عليه نومه.
 كما ان القمل يؤدي عمله جيداً في أكواخ الجنود
 بل انه اصبح حتى معتاداً على ضباط الصف الخشنيين.
 كما ويستطيع ذكر القمل⁽¹⁾ النغل النمساوي اذا كان لا يزال يملك
 الشجاعة الكافية

ان يضاجع انثى القمل البروسية، على ما اعتقد».

ثم جلس الجندي معلم المدرسة المهزول على المقعد وتنهّد قائلاً:
 - هذا كل ما في الأمر. وبسبب تلك القصيدة استجوبني ممثل النيابة
 العامة أربع مرات حتى الآن.
 قال شفيك بلا مبالاة:

- إنها لا تستحق اي اهتمام فعلاً. ولكن السؤال هو: من سيكون ذكر
 القمل النمساوي النغل في رأي المحكمة؟ لقد أحسنت اذ أوردت قضية
 المضاجعة تلك، فهذه ستربكهم تماماً وستجعلهم يفقدون عقولهم. كل ما
 عليك هو ان تشرح لهم ان ذكر القمل النغل هو ذكر هذا النوع من
 الحشرات وان انثى القمل لا يمكن ان يركبها سوى ذكر القمل. وإلا فلن
 تنجو بجلدك. هذا واضح تماماً. كل ما عليك هو ان تقول لممثل النيابة
 العامة انك نظمتها من أجل التسلية وانه كما ان ذكر الحية يسمى
 «الأخلف»، فإن ذكر القمل يسمى بـ«النغل».

تنهد المعلم وقال:

- ولكن المشكلة هي ان تشيكية ممثل النيابة ليست جيدة الى هذا الحد.
 لقد بذلت قصارى جهدي لأشرح له القصيدة بذلك المعنى، ولكنه كان
 يثور عليّ ويصيح بأن ذكر القمل يسمى Fesak

(1) باللغة التشيكية Vsivak تعني: (أ) شخص مقمل. (ب) نغل. والاشارة هنا بالطبع الى
 الامبراطور فرانتس يوسف ولكنها مبطنة. (س. ب.).

بالتشيكية. قال: «يا لك من تلميذ لعين أحمر، المونث هو tenfes والمذكر tafesak»⁽¹⁾. اذهب وعلم جدتك كيف تسرق البيض.
قال شفيك:

- إذا أردنا الإيجاز لقلنا انك واقع في ورطة، ولكن ليس عليك أن تفقد الأمل. يمكن ان تحسن الامور نحو الأفضل كما قال العجري «يانيتشيك» في «بيلسن» حين وضعوا جبل المشنقة حول عنقه عام (1879) وذلك لأنه ارتكب سرقة مزدوجة مع القتل. وقد كان ظنه صحيحاً، لأنه حدث في اللحظة الأخيرة ان أبعده عن المشنقة. لانهم لم يستطيعوا شنقه في يوم عيد ميلاد صاحب الجلالة الامبراطورية الذي صادف ذلك اليوم الذي يتوجب شنقه فيه. وهكذا شنقه في اليوم التالي بعد يوم ميلاد الامبراطور. ولكن تصوّر كم كان ذلك النغل محظوظاً، فقد حصل على عفو في اليوم الثالث وكان لا بد من اعادة النظر في قضيته مرة أخرى، حيث تبين من كل الوقائع ان «يانيتشيك» آخر هو الذي ارتكب الجريمة. وهكذا اضطروا الى اخراج جثته من مقبرة المحكومين واعادة الاعتبار إليه في المقبرة الكاثوليكية في «بيلسن» ولكن تبين لاحقاً أنه من اتباع المذهب البروتستانتى وهكذا نقلوا جثته الى المقبرة البروتستانتية. وبعد ذلك...

قال جندي الهندسة العجوز فوديتشكا:

- وبعد ذلك تحتاج الى ضربة على حنكك. انظروا الى هذه الاشياء التي يفكر فيها هذا النغل! هذا الرجل لديه مشاكل مع المحكمة الميدانية الخاصة بالفرقة، وحين أخذونا البارحة للاستجواب راح هذا الأحمر اللعين يشرح لي ماهية «ورد أريحا».
قال شفيك وهو يدافع عن نفسه:

(1) بما أن ممثل النيابة العام ألماني الاصل، فإنه يفهم المعاني والتذكير والتأنيث في اللغة التشيكية على نحو خاطئ، حيث انه يخلط بين Vsivak (ذكر القمل والنغل) وبين Fesak (شخص شديد التأنت). وفي المادة يطلق التشيكيون على ذكر وأنتى القمل كلمة Ves وهي كلمة مؤنثة. (س. ب).

- ولكنني لست من شرح لك ذلك. القصة رواها «ماتي» خادم الرسام «بانوشكا» الذي افاد ان امرأة عجوزاً سألته كيف يبدو «ورد أريحا» فأجابها: «تأخذين روث بقر جاف وتضعينه فوق طبق وتصبين عليه الماء فيصبح أخضر اللون وجميلاً: هذا هو ورد أريحا». لم أكن أنا من اخترع هذا الهراء، وعلى اية حال، فقد كان علينا ان نتحدث عن امر ما خلال ذهابنا الى الاستجواب. لقد اردت ان ارفع من معنوياتك يا فوديتشكا..
بصق فوديتشكا باحتقار وقال:

- اردت ان ترفع من معنوياتي؟! يكون واحدنا مشغول الفكر لا يعرف كيف يخرج من الورطة التي هو فيها او كيف ينجو من هذا المكان حتى يذهب ويسدد دينه لأولئك الأنغال الهنغارين الملاعين، ويأتي هذا الأحمق اللعين هنا ويريد ان يرفع من معنوياتي بروث البقر! كيف استطيع ان أرد اصاع صاعين لأولئك الأنغال الهنغارين اذا بقيت محبوساً هنا؟ واذا ما اضطررت في النهاية الى التظاهر امام ممثل النيابة العامة بأني لا اشعر بأي حقد على اولئك الهنغارين؟ هذه حياة اشبه بحياة الكلاب يا ربي، انها حقاً كذلك، ولكن حين سيتاح لي ان اضع يدي على احد اولئك الأنغال الهنغارين سأخنقه كأنه جرو صغير. سأعلمهم نشيدهم الوطني «بارك الله بالهنغارين». سأخذ بثأري كاملاً. لن أسمح لهم بأن ينسوا فوديتشكا العجوز.

قال شفيك:

- لا يقلقن اي واحد منّا، فكل شيء سيسير على ما يرام. الشيء الأساسي هو ان تقول دائماً في المحكمة ما هو غير صحيح. كل من يسمح لنفسه بأن يخدع فيعترف هو شخص محكوم عليه بالهلاك. لن يكون هناك اي خير في مثل هذا. مرة حين كنت اعمل في «مورافستا اوسترافا» حدثت الحكاية التالية: ضرب احد عمال المناجم مهندساً بينما كان على انفراد فلم يكن

هناك اي شهود على ما حدث. وقد أصر المحامي الذي كانني دافع عنه على انه اذا انكر فعلته فلن يناله اي ضرر. ولكن رئيس القضاة ظل يطلب منه ان يعترف حيث ان الاعتراف سيؤدي الى تخفيف الحكم عليه. ولكن عامل المنجم استمر في التأكيد على انه لا يستطيع الاعتراف وتمت تبرئة ساحته حيث انه استطاع اثبات «دفع بالغبية» (اي انه لم يكن في مكان الجريمة وقت حدوثها). وفي ذلك اليوم نفسه في «برنو».

صاح فوديتشكا نائراً:

- يا للمسيح ومريم! لا استطيع الاحتمال اكثر من ذلك. لماذا يروي كل هذا الهراء اللعين؟ هذا ما لا افهمه. البارحة خلال الاستجواب كان معنا شخص من هذا النوع. وحين سأله ممثل النيابة العامة عما كان يفعله في الحياة المدنية قال: «انفخ عند الصلبان»، وقد استغرق شرحه لممثل النيابة العامة بأنه يعمل كنافخ كبير لدى حداد من آل «صلبان» مدة نصف ساعة، وحين سأله لاحقاً: «إذاً ففي الحياة المدنية أنت عامل غير ماهر»، اجاب «ليس اسمي هو «ماهر» انه ذاك الذي يعمل على القطار».

من الممر كان مكنأ سماع صوت خطوات وصراخ الحارس، فقال شفيك بسعادة:

- دفعة جديدة. سكيون هناك المزيد منّا. ربما سيكون هؤلاء قد احتفظوا ببعض أعقاب السيجار.

فتح الباب وظهر المتطوع الذي كان موقوفاً مع شفيك في بوديوفيتسه، وكان من المفروض ان يعين الآن في مطبخ السرية المتقدمة. ثم دفع به الى الداخل.

قال وهو يدخل:

- المجد للرب يسوع المسيح.

فأجابه شفيك باسم جميع الحضور:

- الى أبد الآبدين، آمين!

نظر المتطوع بسعادة الى شفيك ووضع البطانية التي كان قد جلبها معه على الأرض وجلس على المقعد الى القرب من المستعمرة الشفيكية. ثم فك اربطة ساقيه واخرج لفافات التبغ التي كان قد خبأها بدهاء بين الطيات ووزعها. ثم اخرج من حذائيه الجزء الذي تشعل به أعواد الكبريت من علبة الكبريت وعوداً او عودين جرى شقهما من الأعلى الى الأسفل بمنتهى البراعة.

اشعل عوداً ثم اشعل لفافة بكل عناية واشعل للباقي جميعاً لفافاتهم وقال بلا مبالاة:

- أنا متهم بالتمرد.

قال شفيك بلهجة المواساة:

- هذا لا شيء. انه مجرد نكتة.

وافق المتطوع فقال:

- طبعاً هو كذلك. ولكنني لا اعرف بالفعل ان كانت هذه هي الطريقة



التي سنكسب بها الحرب مع كل تلك المحاكم الميدانية. إذا ما اصرروا على المحاكمة بأي ثمن فليحاكموني، فإن محكمة واحدة عموماً لن تغيّر من الوضع أبداً.

سأله جندي الهندسة فوديتشكا وهو ينظر الى المتطوع بإشفاق:

- وكيف تمردت؟

قال المتطوع:

- لقد رفضت تنظيف المراحيض المحرس، وهكذا أخذوني الى العقيد. وقد كان العقيد خنزيراً حقيقياً. لقد بدأ يصرخ فيّ بأني مسجون بناء على قرار لجنة تأديب واني محكوم عادي، وانه كان مندهشاً تماماً لأن الأرض لا زالت تحملني وانها لم تتوقف عن الدوران بسبب الحجل من ان في الجيش رجلاً له حقوق المتطوع ويحق له المطالبة برتبة ضابط، ولكنه لا يستطيع بسلوكه سوى ان يثير اشمزاز واحتقار رؤسائه كافة. وقد أجبته بأن دوران الأرض لا يمكن ان يقطع بسبب ظهور متطوع مثلي عليها، وان قوانين الطبيعة اقوى من الرتب التي يضعها المتطوعون على اكتافهم واني أود ان اعرف من هو الذي يستطيع ان يجبرني على تنظيف المراحيض إن لم اكن قد برزت فيها بنفسي، رغم اني مخوّل بالبرز فيها بعد ذلك الطعام الذي يقدمه الفوج وبعد كل ذلك الملفوف العفن ولحم الخروف المنقوع المملح الذي يعطوننا اياه لناكله. وزيادة على ذلك قلت للعقيد ان وجهة نظره فيما يخص مسألة ان الأرض لا زالت تحملني وجهة نظر عجيبة نوعاً ما، حيث انه لن يحدث زلزال بسببي بكل تأكيد. هذا ولم يفعل العقيد اي شيء خلال فترة كلامي كلها سوى انه كان يصير بأسنانه كالمهر الذي يشعر ببرودة اللفت المتجمد على لسانه، ثم زمجر قائلاً:

- حسناً إذاً، هل ستنظف المراحيض أم لا؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لن انظف اية مراحيض.

- ستذهب وتنظفها أيها المتطوع!

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لن افعل.

- يا للرحيم! ستنظف ليس مرحاضاً واحداً فحسب بل مئة مرحاض!

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لن انظف لا مئة مرحاض ولا مرحاضاً

واحداً.

واستمر الحوار على هذا المنوال «هل ستنظفها؟» لا، لن انظفها». كانت المراحيض تتطاير في ارجاء المكان وكأنها قصيدة في دار لحضانة الاطفال ألفها الكاتب «بافلامودرا». كان العقيد يذرع المكتب جيئة وذهاباً بسرعة ثم جلس في النهاية وقال: «فكّر جيداً في المسألة. سأرسلك الى محكمة الفرقة بتهمة التمرد. لا تتخيل انك ستكون أول متطوع يعدم رمياً بالرصاص في الحرب. لقد شنقنا في الصرب اثنين من المتطوعين من عناصر السرية العاشرة وأعدمنا بالرصاص واحداً آخر من السرية التاسعة دون ان يرمش لنا جفن. ولماذا؟ كل ذلك بسبب عنادهم الأحمق. الاثنان اللذان شنقا ترددا في طعن زوجة وطفل احد «الكوميتادجي»⁽¹⁾ قرب «شاباك»، وقد اعدم ذلك المتطوع من السرية التاسعة رمياً بالرصاص لأنه رفض التقدم وكان عذره في ذلك ان ساقيه مصابتان بانتفاخ وان قدميه مفلطحتان. حسناً، والآن، هل ستنظف المراحيض ام لا؟» فأجبت: «أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني لن افعل ذلك». ثم نظر إليّ العقيد وقال: «اسمع، هل أنت من محبي السلاف؟» فأجبت: «أبلغكم بتواضع يا سيدي اني لست كذلك». وبعد ذلك اصطحبوني الى هنا وقالوا اني متهم بالتمرد.

قال له شفيك:

- أفضل ما يمكنك ان تفعله الآن هو ان تتظاهر بأنك مغفل. حين

(1) فدائي بلقاني. (س. ب.).

حجزت في سجن الحامية كان معنا شخص شديد الذكاء رفيع الثقافة يعمل استاذاً في مدرسة تجارية. كان هذا قد «هرب» من الجبهة وتم تحضير محاكمة جميلة اشبه بالاستعراض له، وذلك حتى تتم إدانته وشفقه كنوع من التحذير للآخرين. ولكنه نجح في التخلص من كل تلك الورطة وبأسلوب شديد البساطة. لقد بدأ يتظاهر بأنه مصاب بمرض خلقي منذ الولادة وحين فحصه طبيب الأركان قال انه لم «يهرب» ولكنه كان يحب السفر منذ نعومة أظفاره، وان لديه توقفاً شديداً للاختفاء في مكان بعيد منعزل من هذا العالم. لقد استيقظ مرة فوجد نفسه في هامبورغ وفي مرة اخرى في لندن، وهو لا يعرف كيف وصل الى هناك. كان والده سكيراً وقد انتحر من قبل ولادته، كما كانت أمه عاهرة اعتادت الشراب وماتت من مرض «البطاح الغولي»⁽¹⁾، كما أغرقت أخته الصغرى نفسها، اما الكبرى فرمت بنفسها تحت عجلات القطار. اما اخوه فقد قفز من على جسر للسكة الحديدية على «فيشيهراد»، كما أن جده كان قد قتل زوجته ثم صب الكاز على نفسه وأشعل النار. أما جدته الأخرى فقد كان من عاداتها ان تهيم مع الغجر. وقد سمّت نفسها في السجن بأعواد الكبريت، كما ان احد اولاد عمه قد أدين عدة مرات بسبب إشعاله الحرائق عمداً في المباني وقد قطع وريده الوداجي بشظية زجاج في سجن الدير الكارثوسيانى، كما ان احدى بنات عم أبيه رمت بنفسها من الطابق السادس لأحد ابنة فيينا. أما هو فقد اهمل الى حدّ مروّع في طفولته ولم يستطع النطق حتى بلغ العاشرة، لأنه حدث حين كان في الشهر السادس من عمره انهم كانوا يغيّرون له حفاظاته فتركوه وحيداً على الطاولة. ثم جاءت قطة وجرته من على الطاولة حتى سقط على الأرض، وقد أصيب رأسه في تلك السقطة. كما انه كان يصاب بنوبات صداع عنيفة بين الحين والآخر ولم يكن يعرف ما الذي كان يفعله خلال تلك النوبات. وفي حالته كذلك ذهب مرة من الجبهة الى براغ ولم يعد الى

(1) هذيان ارتعاشى ناشئ عن الإسراف في تناول المسكرات. (المترجم).

وعيه حتى جاءت الشرطة العسكرية وألقت القبض عليه وهو في حانة «أوفليكو». يا الهي، عليك ان ترى كم كان سعيداً حين أطلقوا سراحه وأعفوه من الخدمة العسكرية. وقد قام خمسة من العسكريين ممن كانوا معه في الزنزانة نفسها واستعداداً لكل الاحتمالات بكتابة الملاحظات التالية على قطعة من الورق:

- الأب كحولي. الأم عاهرة.

- الأخت الأولى (غرقت).

- الأخت الثانية (بالقطار).

- الأخ (من الجسر).

- الجد قتل الزوجة. الكاز. الحرق.

- الجدة الثانية (الفجر، الكبريت) الخ...

هذا وحين بدأ احدهم يقص الحكاية نفسها على طبيب اركان لم يصل إلا الى ابن العم، حيث قال الطبيب الذي كان قد سبق له وسمع الحكاية مرتين من قبل: «أيها البنغل اللعين، ان ابنة عمك قد رمت بنفسها من الطابق السادس لبناء في فيينا. كانت طفولتك مهملة الى حد مروع، وأنت في حاجة الى معالجة «خاصة» وهكذا اخذوه الى الجناح «الخاص» وقيدوه هناك فكان ان اختفت طفولته المهملة الى حد مروع وأبوه الكحولي وأمه العاهرة وكل البقية الباقية، وتطوع للذهاب الى الجبهة.

قال المتطوع:

- في الجيش في هذه الايام لم يعد هناك من يؤمن بالسماوات الوراثية، لأنهم لو فعلوا ذلك لكان يتوجب الحجر على كل ضباط الأركان العامة في المصححات العقلية، كل واحد منهم.

قعقع المفتاح في الباب الحديدي المدعم ودخل السجن وهو يقول:

- على جندي المشاة شفيك وجندي الهندسة العسكرية فوديتشكا المثل امام ممثل النيابة العامة.

نهضا فقال فوديتشكا لشفيك:

- اترى الى هؤلاء الانغال كيف يتصرفون؟ في كل يوم استجواب ولا نتيجة أبداً، يا رب السماء، لو انهم يصدرون حكمهم علينا لكان افضل من هذا الشقاء و«الجرجرة». ها نحن نتمدد هنا طوال اليوم وها هم الملايين من اولئك الأنغال الهنغارين يستمرون في التجوال بحرية...

وفي طريقهم الى الاستجواب في محكمة ديوان الفرقة التي وضعت في مبنى آخر على الجانب الآخر من المعسكر، تساءل فوديتشكا وشفيك عن موعد مثولهما امام محكمة صحيحة.

قال فوديتشكا وهو يثير نفسه الى درجة الغضب:

- لا شيء سوى الاستجواب. لو ان هناك نتيجة فحسب من ذلك كله في النهاية! انهم يبددون اكواماً من الورق، كما ان الواحد منا لا يستطيع حتى ان يرى هيئة المحكمة، بل يتركونه يلى وراء القضبان. قل لي بصدق هل الحساء قابل للأكل؟ وذلك الملفوف مع البطاطا المجمدة؟ يا للجحيم! لم يسبق لي ان خضت حرباً بغیضة حمقاء كهذه! كنت اظن انها ستكون مختلفة.

قال شفيك: - أما بالنسبة إليّ، فأنا سعيد تماماً. حين كنت في الخدمة منذ سنوات خلت كجندي نظامي، اعتاد «سولبير» العجوز ان يقول ان كل شخص في الجيش يجب ان يكون مدرکاً لواجباته، وكان يضربك على حنكك ضربة لا تنساها أبداً في الوقت ذاته. او ذاك الملازم الأول المرحوم «كفايزر» الذي كان يحاضر فينا في كل مرة يأتي فيها لتفتيش البنادق، عن واجب كل جندي في اظهار اكبر مدى من الصرامة الأخلاقية لأن الجنود هم مجرد قطع تغلفه الدولة. فهي تعطيهم ما يشربونه وتجعلهم يسرفون في

شرب القهوة ويملؤون غلايينهم بالتبغ، وبالتالي فإن عليهم ان يطيعوا الأوامر ويكدوا كالثيران.

فكر فوديتشكا ثم قال:

- حين تمثل امام ممثل النيابة العامة يا شفيك، ابق واعياً ولا تنس ان تكرر ما قلته في الاستجواب الأخير حتى لا تقع في ورطة. الشيء الاساسي هو انك رأيت كيف هاجمني اولئك الهنغاريون. وعلى اية حال فقد كنا معاً في تلك المعركة.

قال شفيك مواسياً:

- لا تقلق يا فوديتشكا. خذ الامور بروية. ليس عليك ان تكون عصياً. ما الذي يهم لو مثلت امام محكمة كمحكمة الفرقة هذه؟ كان عليك ان ترى كيف كانت محكمة ميدانية كهذه تتصرف منذ سنوات خلت. عرفت معلم مدرسة اسمه «هيرال» كان يخدم معي في الجندية، ومرة بينما كنا نتمدد على أسرتنا حيث كان كل من في الغرفة محظوراً عليه الخروج من الثكنة، قال لنا انه في متحف براغ كتاب يحوي سجلات محكمة عسكرية كتلك التي تعود الى أيام الامبراطورة «ماريا تيريزا». في ذلك الحين كان لدى كل فوج جلاذ يعدم جنود الفوج لقاء «طالر»⁽¹⁾ واحد من فئة «ماريا تيريزا» للرأس الواحد. ووفقاً لتلك السجلات فإن الجلاذ كان يكسب احياناً خمسة «طالرات» في اليوم الواحد.

ثم اضاف شفيك متأملاً:

- في تلك الأيام كان هناك بالطبع أفواج كثيرة من الجنود حيث كانوا يملؤونها باستمرار من المجندين القادمين من الريف.

قال فوديتشكا:

- حين كنت في الصرب، تطوع بعض رجال لوائنا لشنق احد الفدائيين

(1) الطالر: نقد جرمانى فضى توالى اصداره من القرن (15) الى القرن (19). (المترجم).

البلقان لقاء يضع لفافات من التبغ، حيث كان الجندي الذي يشق احد هؤلاء الفدائيين ينال عشر لفافات، كما كان ينال خمس لفافات لقاء شق المرأة او الطفل. ولكن هيئة الامداد والتموين بدأت تمارس الاقتصاد واصبح الاعداد يتم بإطلاق النار جملة. كان يخدم معنا في السرية نفسها احد الغجر ولم نكن نعرف ولفترة طويلة العمل القذر الذي كان يمارسه. ولكننا لاحظنا فقط انهم كانوا يستدعونه في الليل للذهاب الى الديوان. في ذلك الحين كنا معسكرين على نهر «الدرينا». ومرة استدعوه في احدى الليالي فقرر احد الجنود ان يفتش حقيبة الظهر الخاصة بالغجري، وكان ان وجد فيها ثلاث علب كاملة من اللفافات في كل منها مئة لفافة. وحين عاد لاحقاً الى مستودع الحبوب الذي كنا ننام فيه، وكان الوقت صباحاً، جعلناه يعترف اعترافاً موجزاً. ثم رميناه الى الأرض وقام جندي اسمه «بييلون» بخنقه بحزامه. كانت للنغل تسعة أرواح كالقطة.

بصق جندي الهندسة العجوز فوديتشكا ثم استأنف قائلاً:

- لم نستطع ان نخنقه. لقد برز وجحظت عيناه وكان لا يزال حياً كديك قطعت نصف رقبته. وهكذا خلعه نصفين كالقطة، فقد امسك رجلان برأسه وثالث بساقيه وكسروا له عنقه ثم وضعوا حقيبة ظهره على كتفيه - واللفافات فيها - ورموه في نهر الدرينا. من كان يرغب في تدخين تلك اللفافات؟ وفي الصباح جرى البحث عنه.

قال شفيك بلا مبالاة:

- كان يتوجب أن تقولوا انه «هرب»، وإنه سبق له وقام بالتحضيرات اللازمة لذلك، وكان يقول كل يوم بأنه ينوي الهرب.

قال فوديتشكا:

- ولكن من كان سيفكر في ذلك؟ كنا قد فعلنا ما فعلناه ولم نكن نكثر بأي أمر آخر. ولقد تم الأمر بكل سهولة. ففي كل يوم كان يفقد شخص ما

ولم يكن هناك من يكثر حتى بإخراجهم من نهر الدرينا. كانت جثة احد الفدائيين البلقانيين المنتفخة تطفو بهدوء على نهر الدرينا الى نهر الدانوب جنباً الى جنب مع جثة احد جنودنا من اللانديفير الممزقة شرّ ممزق. هذا وقد أصيب بعض الرجال الذين كانوا يرون هذه المشاهد للمرة الأولى بالرجفة والحمى.

قال شفيك:

- كان عليك أن تعطيمهم بعض الكينا.

في تلك الاثناء كانوا يدخلون مكاتب محكمة الفرقة وقادتهما الدورية الى المكتب رقم (8) حيث كان يجلس ممثل النيابة العامة القاضي «رولر» خلف طاولة عليها أكوام من الوثائق.

كان أمامه كتاب مجموعة القوانين وكأس شاي ممتلئة حتى نصفها موضوعة فوق الكتاب. على يمين الطاولة وضع صليب مصنوع من العاج المقلد وعليه تمثال صغير صدى للمسيح الذي كان ينظر بيأس الى قاعدة صليبه التي كان فوقها رماد واعقاب لفافات.

كان ممثل النيابة العامة القاضي رولر في هذه اللحظة ينفذ الرماد عن لفافة أخرى على قاعدة الصليب مما كان يسبب اسفاً متجدداً لدى المسيح المصلوب، ويرفع باليد الأخرى كأس الشاي التي كانت قد التصقت بكتاب القوانين.

وبعد أن حرّر الكأس من عناق كتاب القوانين قلب صفحات الكتاب الذي كان قد استعاره من نادي الضباط.

كان كتاباً من تأليف «فرانتس س. كراوزه» وله عنوان واعد هو: «البحث في تاريخ تطور الأخلاق الجنسية».

كان يحرق في نسخ لرسوم ساذجة لأعضاء جنسية ذكرية واثوية ومعها قصائد ملائمة كان الباحث «فرانتس س. كراوزه» قد اكتشفها على جدران

المراحيض العامة في سكة حديد برلين الغربية، ولذا لم ينتبه الى دخول الرجلين.

هذا ولم ينتزع نفسه من دراسة الرسوم إلا بعد ان سعل فوديتشكا. سألهما وهو يقلب المزيد من الصفحات وينظر الى المزيد من الرسوم والاسكتشات والمخططات الساذجة والغبية:

- ما المسألة؟

أجاب شفيك:

- أود تبليغكم يا سيدي ان صديقي فوديتشكا قد أصيب بالزكام وها هو يسعل الآن.

كان كل ما فعله ممثل النيابة العامة القاضي رولر هو النظر الى شفيك وفوديتشكا، كما حاول ان يتظاهر بالصرامة.

قال وهو يفتش في كومة الأوراق فوق مكتبه:

- إذا فقد حضرتما أخيراً أيها النغلان. لقد استدعيتكما في التاسعة



والساعة الآن هي الحادية عشرة. ما الذي تعنيه بالوقوف هكذا أيها الثور الضخم اللعين؟

قال القاضي هذا وهو يقصد فوديتشكا الذي كان يقف في حاله استرخاء امام القاضي.

- حين أقول «استرح»، عندها فحسب تفعل ما تريد بحوافرك.

قال شفيك:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي انه مصاب بالروماتيزم.

قال القاضي رولر:

- الأفضل لك أن تغلق فمك فلا تتحدث إلا حين آذن لك بذلك. لقد جئت الى هناك ثلاث مرات سابقاً للاستجواب وكان الأمر اشبه بإخراج ماء من صخرة. حسناً سأجدها، أليس كذلك؟ لقد سببنا في جعلي امارس الكثير من العمل ايها النغلان اللعينان. ولكنكما ستدفعان ثمن ازعاج المحاكم دون سبب معقول!

ثم استأنف قائلاً وهو يخرج من كومة الوثائق ملفاً ضخماً كتب عليه بالألمانية: «شفيك وفوديتشكا»:

- والآن انظر أيها الخنزيران اللعينان، لا تظننا انكما بسبب ذلك الشجار السخيف ستسكعان في محكمة الفرقة وتهربان من الخدمة في الجبهة لبعض الوقت. بسببكما اضطررت الى ان اهتف الى محكمة الجيش أيها الأحمقان اللعينان.

ثم تنهد وقال:

- لا تبد جدياً الى هذا الحد يا شفيك. في الجبهة لن تبقى لك اية شهية لمقاتلة «الهونفيد»، فقد اسقطت الدعوى ضدكم وسيذهب كل واحد منكما للالتحاق بوحده حيث سيعاقب من قبل لجنة التأديب ثم يرسل الى سرية متقدمة متجهة الى الجبهة. واذا ما حدث ووقعتما في قبضتي مرة

اخرى، ايها القذران، فسوف أشوهكما بحيث لا تستطيعان ان تميزا نفسيكما. إليكما مذكرة إطلاق سراحكما، والآن اريدكما ان تتصرفا باحترام. خذوهما الى الرقم (2).

قال شفيك:

- ابلغكم بتواضع يا سيدي أننا كلينا نُجَلّ أقوالك ونشكرك كثيراً على لطفك. ولو كنا في الحياة المدنية لكنت تجرأت وقلت لك إنك رجل من ذهب. وفي الوقت نفسه نرجو منك ان تعذرنا لإزعاجك الى هذا الحد. نحن لا نستحق عطفك بالفعل.

صاح ممثل النيابة العامة بشفيك:

- حسناً والآن اخرجنا من هنا بحق الجحيم. لو لم يأخذكما العقيد شرودر على عاتقه لا اعرف ما كان سيؤول إليه مصيركما.

هذا ولم يعد فوديتشكا الى نفسه إلا بعد ان اصبحا في الممر وقادتهما الدورية الى الديوان رقم (2).

كان الجندي المرافق لهما يخشى من ان يكون قد فاته طعام الغداء فقال:
- هيا بنا، اسرعا، ما بكما تزحفان كالقمل؟

طلب منه فوديتشكا ألا يفتح فمه الى هذا الحد. لقد كان من حظه انه تشيكي. فلو كان هنغارياً لمزقه إرباً كما يفعلون بسمك الرنكة المملح.

وبما ان الكتبة العسكريين في الديوان كانوا قد ذهبوا الى المطعم، فإن الجندي المرافق لهما اضطر الى ان يعيدهما مؤقتاً الى سجن محكمة الفرقة. ولم يجز ذلك دون شتائم من قبله وجهها الى جنس الكتبة العسكريين الكريه.

أنّ بلهجة مأساوية وقال:

- لا شك ان الآخرين قد التهموا الآن كل الدهن الذي في الحساء، وبدلاً

عن اللحم سياتركون لي الأعصاب. البارحة أيضاً رافقت شخصين الى المعسكر، وبينما كنت أقوم بذلك أكل احدهم نصف رغيفي.

قال فوديتشكا الذي كان قد عاد الى طبعه الآن:

- يبدو وكأنكم في محكمة الفرقة لا تهتمون سوى بملء بطونكم.

حين حكيا للمتطوع ما جرى لهما صاح:

- إذا فأنتما ستلتحقان بالسرية المتقدمة الى الجبهة أيها الصديقان! هذا

اشبه بما ورد في المجلة الخاصة بالسياح التشيكيين المسماة «الريح الطيبة»! التحضيرات الأولية للرحلة قد سبق لها واكتملت، وكل شيء قد تم ترتيبه وتجهيزه من قبل الإدارة العسكرية المجيدة. وأنتما أيضاً قد تم اختياركما للانضمام الى الحملة المتجهة الى غاليسيا. انطلقا الى رحلتكما بذهن مرتاح وقلب خفيف مرح. أحبا على نحو خاص المناطق التي سيتم تعريفكما بها على الخنادق. المكان هناك جميل وممتع. ستشعران انكما في بيتكما في تلك الأراضي الأجنبية البعيدة، وكأنكما في بقاع مألوفة، اجل، كأنكما في وطنكم العزيز الأم. وبمشاعر سامية ستبدآن رحلة الحج الى تلك الأراضي التي قال عنها حتى «هامبولت» الطيب العجوز: «في العالم كله لم أر اي شيء اعظم من غاليسيا الحمقاء اللعينة». ان التجارب العديدة الثمينة التي اكتسبها جيشنا المجيد خلال تراجعه من غاليسيا اثناء الحملة الاولى ستكون بالتأكيد خطوط ارشاد مفيدة حين نعد برنامجنا للحملة الثانية. اتبع أنفك الى روسيا ثم اطلق كل رصاصاتك بمرح في الهواء.

بعد الغداء، وقبل ان يغادر شفيك وفوديتشكا الى الديوان اقترب منهما معلم المدرسة بائس الحظ الذي نظم القصيدة حول القمل. وقد اخذهما جانباً وقال لهما بلهجة يشوبها الغموض: «لا تنسيا حين تكونا على الجانب الروسي ان تقولوا للروس فوراً وبالروسية: «مرحباً ايها

الإخوة الروس، نحن اخوتكم التشيكيون، ولسنا نمساويين». وحين خرجا من المبنى داس فوديتشكا الذي أراد ان يبرهن على كرهه للهنغارين وتبيان ان سجنه لم يهز قناعاته، على قدم جندي هنغاري رفض ان يخدم في الجبهة وزمجر فيه: «البس حذاءك ايها النغل!»
همهم جندي الهندسة فوديتشكا لاحقاً:

- كان يتوجب عليه ان يقول لي شيئاً ما. كان عليه ان يرد وكنت سامزق له خطمه الهنغاري من الأذن الى الأذن. ولكن النغل الأحق بقي صامتاً وتركني أدوس على حذائه. يا للرب يا شيفك، أنا غاضب لانهم لم يحاكموني. عجباً، يبدو لي الأمر وكأنهم كانوا يضحكون علينا فحسب، ولكأن ما فعلناه بالهنغارين لم يكن يساوي لعنة واحدة. ومع ذلك فقد قاتلناهم كالأسود. الذنب ذنبك انهم لم يحكموا علينا وبرؤوا ساحتنا وكأننا لم نعرف كيف نقاتل على النحو الصحيح. من يظنوننا؟ عجباً، كان ذلك شجاراً محترماً.
قال شفيك بود:

- يا صديقي العزيز القديم لا تستطيع ان افهم السبب في انك لست سعيداً لأن محكمة فرقتنا قد أقرت رسمياً بأننا شخصان محترمان تماماً وانه ليس لديهم ضدنا اية تهمة. صحيح اني قدمت خلال الاستجواب كل انواع الأعذار، ولكن هذا ما يتوجب على المرء فعله. من واجبك ان تكذب كما قال المحامي «باس» لزيائته. حين سألتني ممثل النيابة العامة عن سبب اقتحامنا لشقة السيد كاكونبي قلت له: «ظننت ان افضل طريقة للتعرف على السيد كاكونبي هو ان نذهب ونقابله». وبعد ذلك لم يسألني ممثل النيابة العامة اية اسئلة أخرى واكتفى بذلك الجواب.
ثم قال شفيك وهو يفكر ملياً:

- تذكر انه في المحكمة الميدانية لا يتوجب على المرء ان يعترف بأي شيء.. حين كنت قيد الاعتقال في سجن الحامية كان معنا جندي في

الزنزانة المجاورة قام بالاعتراف وحين عرف الآخرون بذلك عالجه بعلاج البطانية وأمروه بسحب اعترافه.

قال فوديتشكا:

- لو كنت قد ارتكبت أمراً مشيناً لما كنت قد اعترفت طبعاً، ولكن حين سألني ممثل النيابة العامة النغل مباشرة: «هل تقاتلت؟» قلت: «نعم، لقد فعلت». «هل عاملت أحداً بخشونة؟» «بكل تأكيد يا سيدي» «هل جرحت أحداً؟» «طبعاً يا سيدي...» كان يتوجب عليه ان يعرف مع من يتعامل. والعار الحقيقي هو انهم برؤوا ساحتنا! كأنما لم يرد ان يصدق أنني ضربت اولئك الأنغال الهنغارين بحزامي بعد ان ثبت الحربة فيه. واني طبخت حساء البازلاء منهم وحولتهم الى أورام وكدمات. كنت هناك، أليس كذلك، في تلك اللحظة ذاتها التي كان فيها ثلاثة من اولئك الأنغال الهنغارين فوقي ولم تستطع ان تعرف كيف سقطوا جميعاً على الأرض خلال لحظة واحدة ورحت أنا أدوس عليهم. وبعد ذلك كله يقوم ممثل النيابة العامة الخنزير ذاك بطي القضية، لكانه كان يقول لي: «أنت تقاتلت؟ ومن تظن انك تكون؟» حين تنتهي الحرب وأعود الى الحياة المدنية سأجد ذلك الخنزير في مكان ما وسأريه إن كنت اعرف كيف



اقاتل ام لا. ثم سأعود الى هنا الى كير اليهيدا وأثير شجاراً لم يعرف له العالم مثيلاً. وسيذهب الناس ليختبئوا في اقبيتهم حين يعلمون اني عدت لأنتقم من اولئك الأنغال في كير اليهيدا، تلك الجرذان، تلك الخنازير التنتة.

* * *

في الديوان تم اجراء كافة الشكليات بمنتهى السرعة. وقد قام رقيب اول لا زال فمه ملوثاً بالدهن من وجبة الغداء بإعطاء شفيك وفوديتشكا وثائقهما مع تعبير رزين مخيف على وجهه ولم يترك الفرصة تقوته دون ان يخطب فيهما ويناشد فيهما روحهما العسكرية. وبما انه من سكان سيليسيا الجنوبية والغربية الذين يتكلمون بمزيج من البولندية والالمانية، فقد كان يخلط بين تعابير مختلفة حين يتكلم بالتشيكية.

وحين ودع شفيك فوديتشكا اذ كان كل واحد منهما سيققاد الى وحدته، قال شفيك:

- حين تنتهي الحرب تعال لثرائي. ستجدني كل مساء من السادسة فصاعداً في حانة «كأس القربان» في «نابويشتي».

أجاب فوديتشكا:

- طبعاً سأفعل. هل السهرات ممتعة هناك؟

وعده شفيك قائلاً:

- كل يوم ينتهي هناك بشجار، وإذا ما حدث وكانت الحانة هادئة يمكننا أن نثير شجاراً.

وهكذا افترقا، وحين أصبحا على بعد خطوات عديدة صاح فوديتشكا منادياً شفيك:

- حسناً إذاً، ولكن رتب الامور بحيث تكون السهرة ممتعة حين اجيء

لزيارتك!



فرد عليه شفيك:

- ولكن حاول ان تأتي حالما تنتهي الحرب.

وبعد ذلك ابتعدا لمسافة اكبر الواحد عن الآخر وكان من الممكن سماع صوت فوديتشكا لاحقاً من زاوية الصف الآخر من المباني وهو ينادي:

- يا شفيك، ما هو نوع الجعة التي يقدمونها في «كأس القربان»؟

وجاء جواب شفيك كالصدى:

- فيلكو بوبوفيتسكي⁽¹⁾

فناداه جندي الهندسة فوديتشكا عن بعد:

- ظننت انهم يقدمون سميخوفسكي⁽²⁾:

صاح شفيك:

(1) و(2) صنفان شهيران من اصناف الجعة التشيكية. (س. ب.).

- وهناك فتيات أيضاً!

صاح فوديتشكا من الأسفل:

- حسناً إذاً، في السادسة مساءً حين تنتهي الحرب!
فأجاب شفيك:

- الأفضل ان تأتي في السادسة والنصف في حال تأخرت قليلاً في عمل

ما.

ثم كان ممكناً سماع صوت فوديتشكا ثانية هذه المرة ومن مسافة كبيرة:

- ألا يمكنك ان تأتي في السادسة؟

- حسناً إذاً سأجيء في السادسة.

هذا ما سمعه فوديتشكا من صديقه المبتعد.

وبهذا الأسلوب افترق الجندي الطيب شفيك وجندي الهندسة العجوز

فوديتشكا. وكما يقول المثل الألماني: «حين يفترق الناس يقولون: الى اللقاء!».

* * *

من بروك أن ديرلايتا الى سوكال

ذرع الملازم الأول لوكاش ديوان السرية الحادية عشرة المتقدمة جيئة وذهاباً. وكان ذلك عبارة عن جحر معتم في مبنى السرية. مفصول عن الممر بألواح خشبية، يحوي طاولة وكرسيين وتنكة كاز وسريراً خشبياً. وقد وقف امامه رقيب أول الامدادات الذي كان مسؤولاً عن رواتب الجنود وحسابات المطبخ، اي وزير مالية السرية بأكملها، والذي كان ينفق معظم يومه المبارك في الديوان وينام فيه أيضاً.

عند الباب وقف رجل مشاة بدين له لحية هائلة كلحية «كراكونوش»⁽¹⁾. كان هذا هو «بالون» الوصيف الجديد للملازم الاول، وكان يعمل في الحياة المدنية كطحان في مقاطعة «تشييسكي كروملوف».

قال الملازم الأول لوكاش لرقيب أول الامدادات:

- لا شك انك اخترت لي وصيفاً رائعاً، اشكرك جزيل الشكر على هذه المفاجأة المدهشة. ففي أول مرة ارسله فيها لإحضار وجبة غدائي من مطعم الضباط قام بالتهام نصفها على الطريق.

قال المارد البدين:

(1) وهو مارد ورد ذكره في الحكايات الشعبية الخرافية التشيكية. (س. ب).

- لقد ارقتها على الأرض فحسب من فضلك يا سيدي.

- حسناً لقد أرقتها. ولكن كان يمكنك ان تدلق الحساء او المرق وليس الشواء مع «محشي الفرانكفورتر». عجباً، لقد جلبت لي منها ذرة صغيرة تكاد تكفي لحشرها خلف الظفر، وما الذي فعلته بفطيرة التفاح؟
- يا سيدي، لقد...

- والآن لا تُنكر، لقد التهمت تلك أيضاً.

تلفظ الملازم الأول لو كاش الكلمات الأخيرة بجدية وقسوة جعلنا «بالون» يتراجع لا إرادياً خطوتين الى الخلف.

- لقد سألت في المطبخ عن وجبة اليوم وقالوا ان هنالك حساء مع شيشبرك الكبد. ما الذي فعلته بهما؟ لقد سرقتهما على الطريق، هذا اكيد. ثم كان هناك لحم عجل مع مخلل الخيار. ما الذي فعلته بهما؟ لقد ابتلعتهما أيضاً. ثم كان هناك شريحتا الشواء مع «محشي الفرانكفورتر» ولم تجلب لي سوى نصف شريحة، أليس كذلك؟ وقطعتان من فطيرة التفاح؟ ما الذي فعلته بهما؟ لقد ملأت بطنك بهما أيضاً أيها الخنزير البائس المقرف! انطق! ما الذي فعلته بفطيرة التفاح؟ ما الذي تقوله؟ لقد سقطت في الطين، أليس



كذلك؟ ايها الحقير الطفيلي! هل لك ان تريني المكان الذي سقطت فيه في الطين؟ ما رأيك؟ لقد جاء كلب على نحو فجائي، أليس كذلك؟ كنتما على موعد، على ما اظن. أليس كذلك؟ وقد التقطها وحملها بعيداً؟ يا ليسوع المسيح! سأضربك على فكك ضربة تجعل من رأسك حوض غسيل، ولا يزال الخنزير ينكر ذلك كله! هل تعرف من رآك؟ انه رقيب أول الامدادات فانيك هذا. لقد جاء إليّ وقال: «أبلغكم بتواضع يا سيدي ان خنزيركم بالون يلتهم وجبة غدائكم. لقد نظرت من النافذة ورأيتهم يلتهمها وكأنه لم يذق الطعام منذ اسبوع كامل». اسمع ايها الرقيب الأول، اما استطعت ان تختار لي حيواناً آخر غير هذا النغل الممتاز؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي ان «بالون» هذا بدا انه اكثر الرجال امانة في كل سريتنا. انه احمق الى درجة انه لا يستطيع ان يتذكر أياً من اوضاع الرمي بالبندقية. اذا وضعت بندقية بين يديه فلا شك من حصول حادث ما. في التمارين الأخيرة التي قمنا بها مستعملين الطلقات الخلية كاد يقلع عين جاره ولذا ظننت انه قد يستطيع ان يقوم بمثل هذا العمل.

قال لوكاش:

- وسيقوم بالتهم نصف غداء سيده في كل مرة. وكان جزءاً واحداً منها لا يكفيه. ربما لا تزال جائعاً. أليس كذلك؟

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني جائع طوال الوقت. وحين يتوفر لدى أي شخص خبز اضافي اشترته منه لقاء لفافات التبغ، ومع ذلك فأنا لا اكنفي. أنا هكذا بالفطرة. اظن دائماً اني شبعت ولكن ذلك ليس صحيحاً، ففي لحظة واحدة - وكان ذلك يسبق موعد وجبة من الوجبات - تبدأ معدتي تترقرق وكأنها وحش. احيانا اظن اني اكنفيت، وانه ما عاد ممكناً ادخال اي شيء آخر الى معدتي، ولكن ذلك لا يكون صحيحاً. لو رأيت شخصاً يأكل او لو شممت رائحة الطعام لشعرت فوراً وكأنني قد هضمت الطعام تماما. وهكذا

تبدأ معدتي بالمطالبة بحقوقها واستطيع آنذاك ان آكل حتى اظافري. ابلغكم بتواضع يا سيدي انه سبق لي وسألت ان كان يسمح لي بحصتين من حصص الطعام. وقد ذهبت لأجل ذلك الى طيبب الفوج في بوديوفيتسه وقد اعطاني بدلاً عن ذلك ثلاثة ايام في جناح المرضى ووصف لي فجاناً صغيراً من الحساء الخالص فقط ولليوم بطوله. قال: «سأعلمك كيف تجوع ايتها الحشرة الطفيلية. عد الى هنا ثانية وسترى كيف ستغادرنا مجدداً. ستكون نحيلاً كزانة القفز!» ليس ضرورياً ان انظر الى طعام فاخر يا سيدي، يكفي ان انظر الى طعام عادي فيتحلّب فمي فوراً. ابلغكم بتواضع يا سيدي اني ارجوكم ان تسمحوا لي بحصة مزدوجة. ان لم يكن هناك لحم، الا يمكنني على الأقل الحصول على بعض ما يتّبل به الطعام او البطاطا او الشيشبرك او قليل من المرق. هناك الكثير من هذه الأشياء التي تبقى...

أجاب الملازم الأول شفيك:

- حسناً، لقد استمعت الى حماقاتك هذه يا بالون. هل سبق لك وسمعت يا رقيب أول الامدادات بجندي يتميز فوق كل شيء، آخر بوقاحة هذا النغل هنا؟ لقد التهم وجبة غدائي ولا زال يجرؤ على ان يطلب مني ان اعطيه حصة مزدوجة. ولكنني سأعلمك يا بالون معنى الجوع.

وهنا التفت الى فانبيك واستأنف قائلاً:

- يا رقيب اول الامدادات خذه الى العريف فايدنهوفر وقل له ان يوثقه في الساحة قرب المطبخ مدة ساعتين حين يوزعون الغولاش في المطبخ، حتى يتحلّب فمه كجرو جائع وهو يتشمم دكاناً لبيع الاطعمة المعلبة. وقل للطباخ ان يوزع حصة هذا النغل على بقية الجنود.

- حسناً يا سيدي. تعال يا بالون.

وبينما كانا يغادران اوقفهما الملازم الأول عند الباب وصاح بانتصار في وجه بالون المصاب الفزع:

- لقد أحسنت التصرف يا بالون. أتمنى لك شهية طيبة. وإذا ما حاولت ثانية مثل هذا الأمر معي، فسوف اقدمك إلى المحكمة الميدانية دون شفقة أو رحمة.

· وحين عاد فانبيك وأفاد بأن بالون قد اوثق في الخارج قال لو كاش:

- أنت تعرفني جيداً يا فانبيك وتعرف اني لا احب عمل مثل هذه الأشياء، ولكنني لا استطيع شيئاً حيال ذلك. اولاً عليك ان تعترف بأنك اذا اخذت عظمة من كلب فإنه يهر. لا اريد شخصاً دنيئاً الى القرب مني، وثانياً فإن حقيقة ان بالون موثق الآن ستكون لها وقع كبير على الجنود وضباط الصف. حين يكون هؤلاء الأنغال في السراي المتقدمة الى الجبهة ويعلمون انهم سيذهبون الى الجبهة خلال يوم او يومين فإنهم ينزعون الى التصرف بهذه الطريقة.

كان يبدو على الملازم الأول الهم الشديد وأستأنف بلهجة هادئة:

- في يوم ما قبل البارحة، كانت لدينا عمليات ليلية: فقد قمنا بمناورات ضد مدرسة المتطوعين خلف معمل السكر. كانت الجماعة الاولى والحرس المتقدم قد سارا بهدوء تام على امتداد الشارع لأنني قدتهم بنفسي، ولكن الجماعة الثانية التي كان من المفترض فيها ان تتجه نحو اليسار ثم ترسل دوريات متقدمة الي ما بعد معمل السكر، فقد تضرف أفرادها كأنهم ذاهبون في نزهة. كانوا يغنون ويضربون الأرض بأقدامهم الى درجة انه كان ممكناً سماعهم حتى المعسكر. وبعد ذلك كانت الجماعة الثالثة على الجناح الأيمن قد ذهبت لتستطلع الأرض تحت الغابة. كان هؤلاء يبعدون عنا مسيرة عشر دقائق منا، ولكننا كنا نستطيع حتى من تلك المسافة ان نرى كيف كان اولئك الأنغال يدخنون، كانوا عبارة عن نقاط نارية في الظلام. اما الجماعة الرابعة فاضطرت الى تشكيل حرس المؤخرة والله وحده يعلم كيف تم ذلك ولكنهم ظهروا فجأة امام حرسنا المتقدم فحسبهم هؤلاء

اعداء، واضطرت الى التراجع امام حرس مؤخرتي الذي تقدم ضدي. هذه هي السرية الحادية عشرة المتقدمة التي ورثتها! ما الذي استطع ان افعله بها؟ كيف سيتصرف جنودها يا ترى في المعركة الحقيقية؟

شيك الملازم الأول لو كاش يديه واتخذ مظهر الشهيد، بينما ارنبة أنفه تبدو وكأنها تتناول.

قال رقيب أول الامدادات وهو يحاول مواساته:

- لا تقلق كثيراً يا سيدي. لا تترك ذاك يوجع لك رأسك. لقد سبق لي وخدمت في ثلاث سرايا متقدمة وكانت كل واحدة منها مفتتة كما هي الكتيبة كلها، وكنا نضطر الى تشكيل كل سرية مرة اخرى في كل مرة. وكانت كل سرية متقدمة مثل الأخرى تماما، ولم تكن هناك واحدة منها تختلف عن سريتك هذه يا سيدي ولا بقيد شعرة. وكانت أسوأها اطلاقاً السرية التاسعة. وقد حملت هذه السرية معها الى الأسر كل ضباط صفها وقائد السرية أيضاً. ولكنني نجوت لأني كنت قد ذهبت الى قافلة امداد الفوج لأجلب الروم والنبيد للسرية، وبذلك فعلوا فعلتهم بدوني. كما انك



لا تعرف يا سيدي انه خلال عملية الليلة الماضية التي كنت تتحدث عنها يا سيدي، فإن مدرسة المتطوعين التي كان من المفروض ان تحيط بسريرتنا قد ابتعدت حتى وصلت الى «نويزيدلرزي»؟ لقد ظلوا يسيرون حتى الصباح التالي كما ان مواقعهم المتقدمة وصلت الى المستنقعات. كان النقيب «ساغتر» هو قائدهم. وكانوا سيصلون الى «سوبرون» لو لم يطلع عليهم الصباح.

هذا ما قاله رقيب أول الامدادات بصوت غامض. كان يتلذذ بمثل تلك الحوادث ويسجلها لديه.

ثم قال وهو يغمز بثقة:

- وهل تعرف يا سيدي ان النقيب ساغتر سيصبح قائداً لكتيبتنا المتقدمة؟ منذ فترة ظن الجميع كما قال المساعد «هغتر» انك ستعين قائداً للكتيبة، لانك أعلى ضابط في الكتيبة، ولكن جاء الأمر لاحقاً - كما يقولون - من الفرقة الى اللواء بأنه تم تعيين النقيب ساغتر.

عض الملازم الأول لو كاش على شفته ثم اشعل لفافة تبغ. كان يعرف كل ذلك وكان على قناعة ان الظلم قد حاق به. لقد قفز النقيب ساغتر فوقه مرتين في الترفيع، ولكنه لم يقل شيئاً عدا:

- بالطبع، النقيب ساغتر..

قال رقيب أول الامدادات بثقة:

- لا استطيع ان اقول اني سررت كثيراً بذلك، فقد قال المساعد هغتر ان النقيب ساغتر أراد في بداية الحرب في الصرب ان ييز نفسه في مكان ما من جبال «مونتينغرو» فقاد احدى سرايا كتيبته الواحدة بعد الأخرى ضد المدافع الرشاشة للمواقع الصربية، رغم ان ذلك لم يكن ضرورياً على الإطلاق، ولم يكن للمشاة هناك اي جدوى اطلاقاً، لأن المدفعية فقط هي التي كان بإمكانها ان تزيح الصربيين من تلك الجروف الصخرية. ولم ينج

من الكتيبة كلها سوى ثمانين رجلاً. كما أصيب النقيب ساغر نفسه في اليد وفي المستشفى التقط عدوى الزحار. ثم ظهر مرة أخرى في بوديوفيتسه في الفوج ويقال انه كان يحكي في نادي الضباط في الليلة الماضية عن شوقه للعودة الى الجبهة، وانه سيرهن على جدارته وينال وسام الشرف حتى لو اضطر الى خسارة كل كتيبته هناك. لقد تم توبيخه بسبب ما حدث في صربيا، ولكنه مصمم الآن على السقوط مع كل كتيبة او تعيينه برتبة مقدم، ولكن سيكون على كل الكتيبة ان تكون مستعدة للانطلاق غرباً. اعتقد يا سيدي أننا نواجه هذا الخطر أيضاً. لقد قال المساعد هغر انك لست على علاقة طيبة مع النقيب ساغر منذ فترة طويلة وانه سيرسل سرينتا الحادية عشرة لتكون رأس حربة الهجوم وسيضعها في اخطر المواقع.

ثم تنهد رقيب اول الامدادات واستأنف قائلاً:

- اعتقد انه في حرب كهذه حيث هناك الكثير من الجيوش وجبهة طويلة كتلك، فإنك قد تكسب المزيد عن طريق المناورة الصحيحة وليس الهجوم اليائس. لقد رأيت ذلك في «دوكلا» حين كنت في الكتيبة العاشرة المتقدمة. عندها كانت الأمور كلها تسير علي افضل نحو، وقد صدر أمر يقول: «اوقف النار» فأوقف الجميع إطلاق النار بلا استثناء، وانتظرنا جميعنا حتى اقترب الروس منا. كان يمكننا أسرهم دون إطلاق طلقة واحدة، ولكن كان الى جناحنا الأيسر في ذلك الحين «الذباب الحديدي». وكان اولئك اللاندفير الحمقى شديدي الخوف من اقتراب الروس منا فبدأوا يهبطون المنحدرات الجبلية في الثلج وكأنهم يركبون الزحافات. وقد وصلنا الأمر بأن الروس قد تغلغلوا في الجناح الأيسر وان علينا ان نحاول الوصول الى موقع اللواء. كنت عند موقع اللواء في ذلك الحين فقد كنت أدقق حسابات اطعام السرية لأنني لم استطع ان اجد قافلة تموين الفوج. في ذلك الوقت بالضبط بدأ جنود السرية العاشرة المتقدمة بالوصول الى موقع اللواء. وما ان حل المساء حتى كان (120) رجلاً منهم قد وصلوا الى هناك، اما الآخرون

فيبدو انهم ضلوا طريقهم خلال التراجع وانزلقوا على الثلج الى داخل المواقع الروسية. كان الأمر مخيفاً بالفعل يا سيدي. كان للروس مواقع في الجبال الكارباتية في الأعلى وفي الأسفل. وعلى كل حال يا سيدي فإن النقيب ساغتر...

قال الملازم الأول لوكاش:

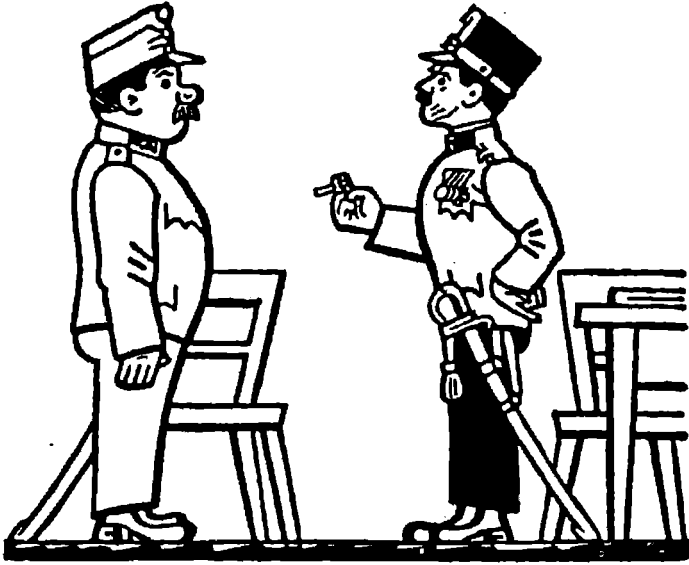
- ناشدتك بالله ان تتوقف عن الحديث عن النقيب ساغتر. اعرف ذلك كله. وبالمناسبة إياك ان تضع في رأسك انه ستتاح لك الفرصة مرة اخرى ان تكون عند قافلة تموين الفوج لجلب الروم والنيذ حين سيجري هجوم او قتال. لقد سبق لي وسمعت انك سكتير من الدرجة الاولى، وكل من ينظر الى أنفك الأحمر يستطيع ان يلاحظ فوراً نوع الرجل الذي يتعامل معه.

- ذلك كله بسبب الجبال الكارباتية يا سيدي. فقد كنا مضطرين هناك الى ان نشرب. لقد حدث ذلك فعلاً. وكانت تعيينات الطعام لا تصل إلينا هناك في قمم الجبال إلا وهي باردة. وكانت خنادقنا مليئة بالثلج. لم يكن مسموحاً لنا اشعال النار ولذا كان الروم هو الشيء الوحيد الذي يقينا على قيد الحياة. ولولاى لحصل في سريتنا ما حصل في السرايا الأخرى حيث لم يكن الروم متوفراً لدى الجنود فماتوا متجمدين من شدة البرد. لذلك اكتسبنا جميعاً هذه الأنوف الحمراء من كثرة شرب الروم. ولكن كان لذلك مساوئه أيضاً لأنه وصل أمر من قيادة الكتيبة يقول ان الرجال ذوي الأنوف الحمراء هم الوحيدون الذين يتوجب ارسالهم للقيام بالدوريات.

قال الملازم الأول بجدية:

- الشتاء قد انقضى الآن.

- اقول لك يا سيدي ان الروم شيء لا يمكن الاستغناء عنه في الجبهة في اي فصل من فصول السنة، والنيذ كذلك. انهما يعدلان المزاج كما يقال. والجنود مستعدون لمحاربة اية جهة مقابل نصف صفيحة من الروم وربع



ليتر من النبيذ... من هو ذلك البغل الذي يطرق على الباب مرة اخرى؟ ألا تستطيع ان تقرأ ما كتب عليه: «لا تطرق على الباب... ادخل؟».

التفت الملازم الأول لوكاش وهو لا يزال جالساً بعد على كرسيه نحو الباب، ولاحظ كيف فتح ببطء ورقة. وبكل بطء ورقة أيضاً دخل الجندي الطيب شفيك ديوان السرية الحادية عشرة المتقدمة. كان يحيي وهو في المدخل وربما كان يحيي وهو يطرق الباب وينظر الى الكتابة التي تقول: «لا تطرق على الباب».

كانت تحيته هي المرافق الحقيقي لوجهه الذي يحمل أبداً تعبير الرضا والابتهاج.

اغلق الملازم الأول لوكاش عينيه لبرهة لدى رؤيته للجندي الطيب شفيك الذي عانقه وربت عليه بنظراته.

وربما كان الابن. المسرف الضال⁽¹⁾ والذي وجد للتو، قد نظر الى ابيه بهذه الطريقة حين راح ذاك يشوي خروفاً على السفود على شرفه.

(1) حكاية رمزية رواها السيد المسيح تصور الترحيب الذي يلقيه الآثم النائب في الجنة. (المترجم).

قال شفيك بكل اخلاص ولا مبالاة:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني قد عدت.

وكان من شأن هذه اللهجة المخلصة ان تعيد الى الملازم الأول لو كاش صوابه. فمنذ ذلك الوقت الذي أعلمه فيه العقيد شرودر بأنه سيرسل إليك شفيك مرة اخرى ليطوّق به عنقه، كان الملازم الأول لو كاش يحاول كل يوم ان يؤجل ذلك اللقاء في ذهنه. فكان يقول كل صباح لنفسه: «لن يأتي ذلك اليوم. ربما تورط في مشكلة اخرى ولا يزال مسجوناً».

ولكن شفيك بابتسامته العذبة ودخوله البريء قد صحح كل هذه الحسابات.

نظر شفيك الآن الى رقيب أول الامدادات والتفت إليه بابتسامة لطيفة مسلماً اياه بعض الوثائق التي اخرجها من جيب معطفه وقال:

- أيها الرقيب الأول، عليّ ان اعطيك هذه الأوراق التي سلمني اياها ديوان الفوج. وهي تتعلق براتبي واطعامي.

تحرك شفيك بكل حرية وبروح اجتماعية في مكتب السرية الحادية عشرة المتقدمة وكأنه كان صديق فانيك الحميم، وقد كان رد فعل رقيب أول الامدادات بسيطاً، حيث اجاب:

- ضعها على الطاولة.

قال الملازم الأول لو كاش وهو يطلق تنهيدة حرّى:

- سيكون من الأفضل لو تتركني وحيداً مع شفيك الآن.

خرج فانيك ولكنه بقي واقفاً خارج الباب ليسمع ما سيدور بينهما.

في البداية لم يسمع شيئاً، لأن شفيك والملازم الأول كانا صامتين، فقد راح كل منهما يراقب الآخر فترة طويلة. حدق لو كاش في شفيك وكأنه كان يريد تنويمه مغناطيسياً او كأنه ديك يقف امام دحاجة وينتظر حتى يقفز عليها.



ونظر شفيك كالعادة الى الملازم الأول لو كاش بعينين حانيتين مخضلتين بالدمع وكأنه يريد ان يقول: «ها نحن قد اتحدنا مرة اخرى يا فؤادي! ولن يفرقنا شيء بعد اليوم يا حبيبي المدلل».

وحين بقي الملازم الأول صامتاً لفترة طويلة نطقت عينا شفيك برقة حزينة: «تكلم يا حبيبي، قل ما يعتلج في فكري».

حطم الملازم الأول صمته المرحج بالكلمات التي حاول ان يحقن فيها جرعة كبيرة من السخرية:

- مرحباً بك من كل قلبي يا شفيك. شكراً على زيارتك. حسناً، يا له من ضيف عزيز حل بيننا!

ثم لم يستطع ان يسيطر على نفسه على أية حال، وانفجر غضب الأيام الماضية المكبوت على شكل ضربة هائلة على الطاولة بقبضته، مما سبب في ان تقفز دواة الحبر فينتثر الحبر على لائحة الرواتب كلها.

وفي الوقت نفسه قفز الملازم الأول من كرسيه ووقف امام شفيك مباشرة وصاح فيه:
- أيها الحيوان!

ثم بدأ يذرع الفراغ المحدود الذي كان متوفراً في المكتب وهو يصق كلما اقترب من شفيك.

قال شفيك حين استمر الملازم الأول في ذرع المكان جيئة وذهاباً وهو يرمي في الزاوية كرات مجعدة من الورق ثم يعود مرة اخرى الى الطاولة ليأخذ أوراقاً غيرها:

- أبلغكم بتواضع يا سيدي اني سلمت الرسالة كما طلبت مني. وقد كنت محظوظاً بما فيه الكفاية اذ وجدت السيدة كاكونيني واستطيع ان اقول انها امرأة جميلة جداً رغم اني لم أرها إلا وهي تبكي...

جلس الملازم الأول لوكاش فوق سرير رقيب أول الامدادات وصاح بصوت مبحوح:

- متى سينتهي هذا كله يا شفيك؟

اجاب شفيك وكأنه لم يسمع:

- ثم حدث شيء كرهه لي، ولكنني ألوم نفسي على ذلك. لم يصدقوا اني كاتب الرسالة الى السيدة ولذلك فقد ظننت انه من الأفضل ان ابتلع الرسالة حتى يبقوا دون دليل. ثم حدث بالصدفة المحضة - ولا استطيع ان افسر الأمر على غير هذا المنوال - ان وجدت نفسي متورطاً في شجار صغير تافه. ولكنني هربت بجلدي من هذه المسألة أيضاً، وقد تمت تبرئة ساحتي وأرسلت الى لجنة تأديب الفرقة ثم ألغيت كل الاجراءات في محكمة الفرقة. كنت قد امضيت دقائق قليلة قط في ديوان الفرقة حين دخل العقيد. وقد شتمني قليلاً ثم قال ان عليّ الالتحاق بك فوراً يا سيدي كجندي ارتباط. وقد أمرني ان اقول لك انه يريد منك الحضور ليناقد معك مسائل تتعلق بالسرية المتقدمة. وقد انقضى اكثر من نصف ساعة على ذلك ولكن العقيد لم يكن يعرف أنهم سيجروني لاحقاً الى ديوان الفوج واني سأضطر الى الجلوس هنا ريع ساعة اخرى. كما ترى فإني طوال الوقت الذي كنت فيه قيد الاعتقال كان راتبي يدفع لي من قبل الفوج وليس السرية لأنني كنت معتقلاً لدى الفوج. على اية حال فإنهم في حالة من التشويش الكامل والى حد يدفعونك معه الى الجنون...

حين سمع الملازم الأول لوكاش انه كان يتوجب عليه قبل نصف ساعة ان يكون لدى العقيد شرودر ارتدى ملابسه بسرعة وقال:

- لقد قدمت لي خدمة رائعة مرة اخرى يا شفيك.

وقد قال هذه العبارات بلهجة يائسة مترعة بالقنوط مما دفع بشفيك الى محاولة التخفيف عنه بكلمة لطيفة، فقال والملازم الأول يندفع خارجاً من الباب:

- لا تقلق. سينتظر العقيد. ليس لديه ما يفعله على اية حال.

وبعد ان غادر الملازم الأول دخل رقيب أول الامدادات فانيك الى المكتب.

كان شفيك جالساً على كرسي هو يلقم المدفأة الحديدية الصغيرة بقطع صغيرة من الفحم عبر بابها المفتوح. كانت المدفأة تدخن وتخرج روائح غير طيبة، ولكن شفيك كان مستمراً بتسليته نفسه دون ان يأبه بفانيك الذي راح يراقبه لبرهة ثم رفس بقدمه باب المدفأة فأغلقه وأمر شفيك بأن يغادر الغرفة.

قال شفيك برزانة:

- أيها الرقيب الأول اسمح لي ان افيدك بأنه حتى لو كانت نيتك في منتهى الطيبة فلا تستطيع تنفيذ أمرك بمغادرة الغرفة او المعسكر كله، حيث اني اطيع أوامر من هم أعلى منك.

ثم اضاف بفخر:

- كما اني جندي الارتباط هنا. لقد عيني العقيد شرودر في سرية الملازم الأول لوكاش الذي كنت وصيفاً له سابقاً. وبسبب ذكائي الفطري رقيت



الى جندي ارتباط السرية. الملازم الأول وأنا صديقان قديمان. وما هي مهنتك في الحياة المدنية يا رقيب أول؟

دهش رقيب أول الامدادات كثيراً بسبب اللهجة الحميمة المألوفة للجندي الطيب شفيك بحيث نسي رزاقته التي كان مولعاً بإظهارها امام جنود السرية واجاب وكأنه ادنى رتبة من شفيك:

- أنا فانيك من «كرالوي» وأعمل صيدلياً.

قال شفيك:

- وأنا تدرت أيضاً في صيدلية وذلك لدى السيد «كوكوشكا» في «نابرتيني» في براغ. كان شخصاً غريب الاطوار جداً، وقد حدث مرة ان اضمرت النار في برمبل من النفط في القبو فاحترق البناء وطردت من العمل. وبعد ذلك رفضت النقابة ان امارس العمل في اي مكان وهكذا، وبسبب برمبل النفط ذاك، حرمت من اكمال تدريبي. هل تصنعون الأعشاب الطبية للبقر أيضاً؟

هز فانيك رأسه:

- لقد اعتدنا ان نصنع الأعشاب الطبية للأبقار مع الصور المقدسة أيضاً، فقد كان السيد كوكوشكا رئيسنا شخصاً شديد التدين وقرأ في مكان ما مرة ان القديس «بيلغرينوس» يقدم يد المساعدة حين تصاب المواشي بتبطل البطن، وهكذا فقد طبع في احدى مطابع «سميخوف» صوراً للقديس بيلغرينوس وقدسها في «ايموس» لقاء متي غيلدر. ثم وضعناها في علب الاعشاب الطبية الخاصة بالبقر. كان يفترض ان يتم حل الاعشاب بالماء الدافئ ثم تعطى الى البقر ليشربها من الحوض، وفي الوقت نفسه كانت تتلى صلاة خاصة للقديس بيلغرينوس من قبل مساعد الصيدلي السيد «تاوخن» ويتلوها امام البقرة وهي من تأليفه. وكما ترى فإنه حين طبعت صور القديس بيلغرينوس كان لا بد من طباعة صلاة صغيرة على الجانب

الآخر من الصورة. وهكذا حدث ان قام السيد كوكوشكا في المساء باستدعاء السيد تاوخن وابلاغه بوجود تأليف صلاة لطبعها على الصورة وتقديمها مع الأعشاب الطبية. كان يتوجب ان تكون الصلاة جاهزة وذلك حين يصل الى الصيدلية في العاشرة حتى يتم ارسالها الى المطبعة حيث ان البقر كان قد سبق له وراح ينتظر الصلاة. كانت المسألة بالنسبة للسيد تاوخن مسألة «اما.. او». فلو انجز عمله جيداً كان سيعطى غيلدرأ واحداً نقداً وعداً، واذا فشل كان سيعطى انذاراً بالفصل خلال أسبوعين. كان السيد تاوخن قد انهك نفسه الليل بطوله فلم يغمض له جفن. وفي الصباح وصل ليفتح الصيدلية دون ان يكون قد أَلَّف شيئاً، بل كان قد نسي حتى اسم القديس الخاص بتلك الاعشاب الطبية الخاصة بالأبقار. وهكذا ساعده البواب فرديناند على الخروج من تلك الورطة. كان بإمكانه ان يفعل اي شيء، فبينما كنا نجفف البابونج في العلية كان يصعد الى هناك ويخلع حذاءه ويرينا كيف نعالج تعرّق الأقدام. كان يمسك بالحمام في العلية ويعرف كيف يفتح درج النقود في نضد الحساب ويعلمنا حياً صغيرة نمارسها على البضاعة. في ذلك الحين كنت يافعاً لا ازال، وكانت لدي في البيت مجموعة صيدلي احضرتها معي الى المنزل من الصيدلية، لم يكن حتى لدى «مستشفى الاخوة»⁽¹⁾ مثل تلك المجموعة. وقد ساعد فرديناند السيد تاوخن كما يلي: قال له: «اعطني اياها ودعني انظر إليها».

وقد ارسلني السيد تاوخن لأحضر له كأساً من الجعة فوراً. وما ان جلبت الجعة كان فرديناند قد انتهى نصف الصلاة وكان يتلوها:

اجيء من المملكة العلوية،

وأجلب رسالة حب.

البقرة والعجل والثور

(1) مستشفى يقع ضمن دير في براغ. (س. ب).

تحتاج كلها الى اعشاب طبية
مزيج كوكوشكا مرة في اليوم
يعد عنك البيطري».

وبعد ان شرب الجعة وتناول جرعة كبيرة من صباغ «سالف العروس»
عاد لينهي الصلاة في لمح البصر:
«قدم الى بيليغرينوس نذكرك
وسياتي ليشفي بقراتك.
سبح بحمد القديس بيليغرينوس
الذي بارك هذه العلبة لقاء غيلدرين
اعبده بالفكر وبالكلمة
واطلب مباركته لقطيعك».

ثم وصل السيد كوكوشكا ودخل معه السيد تاوخن الى المكتب، وحين
خرج أرانا غيلدرين اثنين، وليس واحداً فقط حسب الوعد، ثم أراد أن يقسم
المبلغ مناصفة بينه وبين فرديناند، ولكن فرديناند ما أن رأى الغيلدرين حتى
استسلم لاغواء شيطان الطمع، وقال: «لا، إنا ان احصل عليهما كليهما او
لا شيء اطلاقاً». وهكذا امتنع السيد تاوخن عن اعطائه اي شيء وأبقى
الغيلدرين لنفسه. ثم اصطحبني الى المستودع في اليوم التالي ولكمني على
اذني وقال لي اني سأحصل على مئة لكمة أخرى اذا تجرأت وقلت انه لم
يوئلف الصلاة، وانه اذا حصل واشتكى فرديناند للعجوز فعليّ ان اقول انه
كذاب. وقد اضطرني الى ان اقسام امام نوع من الأواني يحتوي على خل
الطبخون. وقد حدث ان بدأ البواب ينتقم من تلك الاعشاب الطبية الخاصة
بالأبقار. فقد كنا نخرجها في صناديق كبيرة في العلبة، وكلما اتيح لفرديناند
ان يكس بعض روث الفئران كان يضعه مع الأعشاب ويمزجه بها. ثم بدأ
يجمع روث الجياد من الشوارع ويجففه في البيت ويدقه بالهاون ثم ينثره

فوق الأعشاب الطبية التي يحمل معها صورة القديس بيليغرينوس. ولكن الحكاية لم تنته هنا، فقد كان بيول في تلك الصناديق ويبرز فيها ثم يخلط المحتويات معاً حتى تبدو وكأنها جريش النخالة.

وهنارن جرس الهاتف. قفز الرقيب اول الامدادات نحو السماعه ورمى بها بعيداً في غضب قائلاً:

- يتوجب عليّ الذهاب الى ديوان الفوج. هكذا دون مقدمات! لا احب ذلك إطلاقاً.

أصبح شفيك وحيداً مرة اخرى.

وبعد لحظة رن جرس الهاتف مرة اخرى.

بدأ شفيك يتحدث لي السماعه: «فانيك؟ لقد ذهب للتو الى ديوان الفوج. من المتكلم؟ أنا جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة. من المتكلم؟ جندي ارتباط السرية الثانية عشرة المتقدمة؟ مرحباً يا زميل.

ما هو اسمي؟ انه شفيك. واسمك؟ براون. هل أنت من اقرباء بائع القبعات براون في شارع «بوبر جيچني» في «كارلين»؟ لست كذلك؟ الا تعرفه وأنا لا اعرفه أيضاً. لكنني مررت من امام دكانه وأنا في الحافلة منذ زمن وقد لفت انتباهي اسم الشركة. ما هي الأخبار؟ لا اعرف ماذا؟ متى سنرحل؟ لم اتحدث مع اي شخص بعد حول الرحيل. الى اين سنذهب؟

- مع السرية المتقدمة الى الجبهة ايها المغفل.

- لم يسبق لي ان سمعت اي شيء حول هذا الموضوع.

- إذأ فأنت جندي ارتباط جيد. لا تعرف ان كان ملازمك...

- إنه ملازم أول.

- حسناً لا فرق. وهكذا فإن ملازمك الأول قد ذهب الى العقيد لحضور

الاجتماع، أليس كذلك؟

- لقد استدعاه العقيد.

- حسناً، هذه هي القضية إذاً! لقد استدعى ملازمنا الأول نحن أيضاً وكذلك ملازم السرية الثالثة عشرة. لقد تحدثت للتو الى جندي الارتباط على الهاتف. لا احب هذا الهراء. وهل تعرف ان كانت الفرقة الموسيقية قد حزمت حوائجها أيضاً؟
- لا اعرف شيئاً.

- لا تتصرف كالاحمق اللعين. لقد سبق لرقيب اول امداداتكم ان ابليج بشأن عربات النقل، أليس كذلك؟ كم لديكم من رجال هناك؟
- لا اعرف.

- ايها الاحمق اللعين، هل تعتقد اني سألتهمك؟ (كان بالامكان سماع صوت الرجل الذي يتكلم على الهاتف يخاطب شخصاً آخر قائلاً: «يا فرانتا، خذ السماعة الأخرى حتى تستطيع ان تسمع كم هو احمق جندي الارتباط ذاك الذي لدى السرية الحادية عشرة»).

- هالو، هل انت نائم هناك ام ماذا؟ حسناً إذاً، اجب حين يسألك زميلك! اذا فأنت لا تعرف شيئاً بعد؟ والآن هيا وقل بصراحة: ألم يقل لك رقيب اول الامدادات اي شيء حول الذهاب لإحضار الصفائح؟ ألم تتحدث إليه عن اي شيء مشابه؟ أيها الساذج اللعين. ليس ذاك من شأنك!. (كان هناك ضحك مسموع). لا بد وان احد «براغيك فلتان» حين تسمع اي شيء اهتف لنا في السرية الثانية عشرة يا بني، يا جحشي الممتاز! من اين أنت؟
- من براغ.

- حسناً، كان من المفروض ان تكون اذكي من ذلك... وهناك شيء آخر: متى استدعي رقيب اول الامدادات الى ديوان الفوج؟
- منذ دقيقة فحسب.

- يا الهي، ألم تستطع ان تقول لي ذلك من قبل؟ لقد ذهب رقيبنا الاول

منذ دقيقة أيضاً. هناك شيء ما في الجو. ألم تتحدث مع قافلة التموين؟
- لا.

- يا للمسيح يسوع، وتقول إنك من براغ؟ ألا تكثر بأي شيء؟ واين
كنت تتكاسل طوال هذا الوقت؟

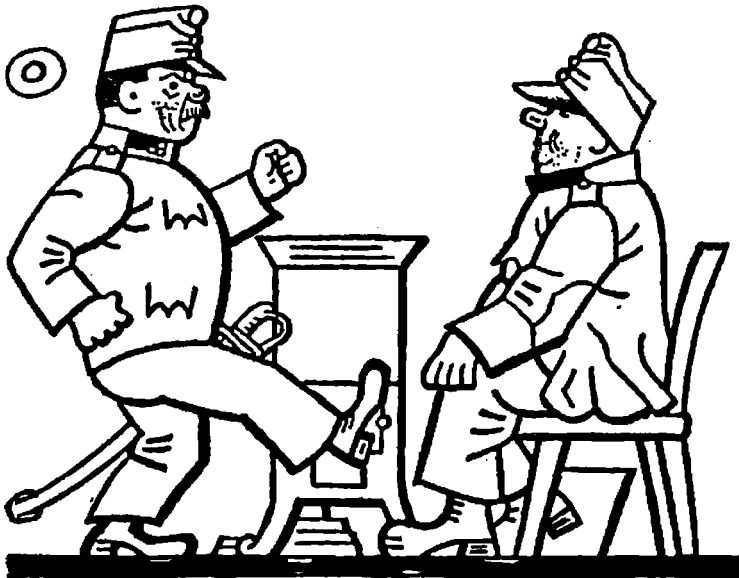
- لقد وصلت من محكمة الفوج منذ ساعة واحدة فقط.

- حسناً، هذه قصة اخرى ايها العجوز، إذا يجب ان آتي هذا اليوم
وأراك. رن الهاتف مرتين.

كان شفيك على وشك ان يشعل غليونه حين رن جرس الهاتف مرة
اخرى.

فكر شفيك في نفسه: «الى الجحيم برنينك! لماذا اضيع وقتي عليك؟».
ظل جرس الهاتف يرن دون توقف حين فقد شفيك صبره فأخذ السماعه
وصرخ في الهاتف:

- هالو، من المتكلم؟ هنا جندي الارتباط شفيك من السرية الحادية



عشرة. وكان الصوت الذي اجاب هو صوت الملازم الأول لوكاش، وقد ميّزه شفيك.

- ما الذي تفعله هناك؟ اين فانيك؟ استدعه فوراً الى الهاتف.

- ابلغكم بتواضع يا سيدي ان الهاتف رن منذ دقيقة.

- اسمع يا شفيك، ليس لدي وقت اضيعه معك. ان المحادثات الهاتفية زمن الحرب ليست للثرثرة كما يحدث حين تدعو شخصاً ما للحضور لتناول الغداء. يجب ان تكون واضحاً وموجزاً. حسناً، يا شفيك، أنا اسألك هل فانيك معك هناك؟ دعه يحضر الى الهاتف ويتكلم معي فوراً!

- ابلغكم بتواضع يا سيدي انه ليس معي هنا. فقد استدعي منذ وقت قصير الى ديوان الفوج. من حوالي ربيع ساعة تقريباً.

- حين أعود سأعرف كيف اتعامل معك يا شفيك. الا تستطيع التعبير بإيجاز؟ والآن اصغ باهتمام لما سأقوله: هل تستطيع ان تفهم بوضوح حتى لا تجد لنفسك العذر لاحقاً فنقول بأنه كان هناك تشويش في الهاتف؟ حالما ترجع السماعه الى مكانها..

حدث توقف ثم استؤنف الرنين. رفع شفيك السماعه وغرق تحت كرمه من الشتائم: أيها الحيوان، أيها الزقاعي، أيها الوغد. ما الذي تفعله بحق الجحيم؟ لماذا قطعت الاتصال؟

- أرجوك يا سيدي ولكنك قلت لي ان اعيد السماعه الى مكانها.

- سأعود خلال ساعة يا شفيك، وعندها ستري... والآن انطلق فوراً واذهب الى المبنى وابحث عن رقيب فصيلة، ولنقل الرقيب فوخس، وقل له فوراً ان يأخذ عشرة رجال الى المستودعات ليستلم معلبات الطعام. والآن كرر ما عليه ان يفعله.

- عليه الذهاب مع عشرة رجال إلى المستودعات ليستلم معلبات الطعام لأجل السرية.



ها انت أخيراً قد توقفت عن الهذر ولمرة واحدة على الأقل. والآن سأهتف الى فانبيك في هذه الأثناء، اي الى ديوان الفوج واقول له ان عليه أن يذهب الى المستودعات ويشرف على الموضوع. اذا ما حدث وجاء الى مقرنا في هذه الاثناء فقل له ان يترك كل شيء ويندفع بأقصى سرعة الى المستودعات. والآن تستطيع اعادة السماعه الى مكانها.

ولفترة طويلة راح شفبيك يبحث عبثاً، ليس عن رقيب الفصيلا فوخس، بل عن ضباط الصف الآخرين أيضاً. وقد كانوا في المطبخ ينهشون اللحم عن العظام ويتمتعون بمشاهدة بالون المكبل بالقيود الذي كان واقفاً وقدماه ثابتتان في الارض فقد كانوا يرثون لحاله، ولكنه ظل مع ذلك يمنحهم مشهداً رائعاً للفرجة. كان احد الطباخين قد جلب له اللحم من ضلع ودفعه في فمه وراح بالون الملتحي والمقيد الذي لا يستطيع تحريك ذراعيه يدفع بالعظمة بعناية في فمه ويوازنها بواسطة اسنانه ولثته، وخلال ذلك يقوم بنهش اللحم وعلى وجهه تعبير سكان الأدغال.

سأل شفيك حين وصل أخيراً.

- من هو منكم رقيب الفصيلة فوخس؟

اعتبر الرقيب فوخس انه لا يليق به ان يجيب حين لاحظ ان الذي يسأل عنه هو مجرد جندي مشاة عادي.

قال شفيك:

- هاي، كم سأقف هنا وأنا اسأل؟ أين رقيب الفصيلة فوخس بحق الجحيم؟

تقدم فوخس خطوة نحو الامام بكل وقار وراح يقذف سيلاً من الشتائم من كل الأنواع قائلاً انه ليس مجرد «رقيب فصيلة»، وانه يجب ان يخاطب بكلمة «سيدي»، وانه لا يتوجب على شفيك ان يقول: «أين رقيب الفصيلة بحق الجحيم؟» بل يتوجب عليه ان يقول: «أبلغكم بتواضع يا سيدي اين هو رقيب الفصيلة يا سيدي؟» ففي فصيلته يتلقى كل جندي لا يقول: «أبلغكم بتواضع يا سيدي» لكمة على الفك مباشرة.

قال شفيك بتأن:

- لا تحاول هذه الحيل معي. اسرع فوراً واذهب الى الكوخ وخذ عشرة رجال واذهب بهم بأقصى سرعة الى المستودع. عليك ان تستلم مبيعات الطعام من هناك.

دهش رقيب الفصيلة فوخس الى حد انه لم يستطع ان يعرف كيف يتصرف فقال:

- ماذا؟

اجاب شفيك:

- لا اسمح بأي «ماذا» من اي نوع. أنا جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة ومنذ دقيقة واحدة كنت اتحدث في الهاتف مع الملازم

الأول لوكاش وقال لي: «بأقصى سرعة مع عشرة رجال الى المستودعات». واذا لم تذهب يا رقيب الفصيلة سأعود الى الهاتف فوراً. ان الملازم الأول لوكاش يريدك ان تذهب وهذا واضح. لا حاجة الى الحديث. يقول الملازم الأول لوكاش «المحادثة الهاتفية يجب ان تكون موجزة وواضحة. اذا امر رقيب الفصيلة فوخس بالذهاب فعليه ان يذهب. ان امرأ من هذا النوع ليس مجرد ثرثرة على الهاتف كما يحدث حين تتم دعوة شخص ما الى الغداء. في الجيش وفي زمن الحرب خاصة، التأخير يعتبر جريمة. واذا لم يذهب رقيب الفصيلة فوراً حين تخبره، اهتف لي فوراً وسأعرف كيف اتعامل معه بنفسني. لن يتبقى شيء من رقيب الفصيلة فوخس. يا الهي، انت لا تعرف الملازم الأول لوكاش.

نظر شفيك بانتصار الى ضباط الصف الذين اصيبوا بالدهشة والاحباط من جراء سلوكه.

همهم رقيب الفصيلة فوخس بشيء غير مفهوم ثم خرج بأقصى سرعة. ناداه شفيك «هل يمكنني ان اهتف للملازم الأول بأن كل شيء تم على ما يرام؟».

قال رقيب الفصيلة فوخس من الكوخ: «سأكون في المستودع مع عشرة رجال فوراً».

وانطلق شفيك دون كلمة اخرى خارجاً وقد خلف وراءه مجموعة ضباط الصف وهم في حالة من الدهشة مشابهة لحالة رقيب الفصيلة فوخس.

- قال العريف «بلاجيك» الضئيل الحجم:

- لقد بدأت. سيكون علينا ان نحزم امتعتنا.

حين عاد شفيك الى ديوان السرية الحادية عشرة المتقدمة لم يكن لديه من الوقت ما يكفي لإشعال غليونه، فقد رن جرس الهاتف مرة اخرى. ومن جديد ها هو الملازم الأول لوكاش يتكلم:

- اين كنت يا شفيك؟ هذه هي المرة الثالثة التي أهتف فلا اجد احداً.
- لقد تم ترتيب الأمر يا سيدي.
- هل ذهبوا؟
- يمكنك ان تراهن على ذلك ولكنني لا اعرف ان كانوا قد وصلوا ام لا.
هل اسرع فأرى مرة اخرى؟
- هل وجدت رقيب الفصيلة فوخس؟
- نعم يا سيدي. في البداية قال لي: «ماذا؟». وحين شرحت له ان المحادثات الهاتفية يجب ان تكون موجزة وواضحة...
- لا تضعي وقتي يا شفيك... ألم يعد فاننيك بعد؟
- لا يا سيدي.
- لا تزمجر في الهاتف. الا تعرف اين يمكن ان يذهب فاننيك اللعين؟
- لا يا سيدي. لا اعرف اين يمكن ان يذهب فاننيك اللعين ذاك.
- لقد كان في ديوان الفوج ثم ذهب الى مكان آخر. اعتقد انه على الأرجح في المطعم، اذهب وابحث عنه يا شفيك وقل له ان عليه ان يذهب فوراً الى المستودعات. وهناك شيء آخر: جد الرقيب بلاجيك وقل له ان يفك قيود بالون فوراً ويرسله إليّ. يمكنك ان تعيد السماعه الى مكانها الآن.
وقد استطاع شفيك ان ينشط الأمور، فحين وجد العريف بلاجيك ونقل إليه امر الملازم الأول حول فك قيود بالون، زمجر العريف بلاجيك: «حين تبدأ الامور تسخن يصابون بالعصبية».
ذهب شفيك ليشهد إطلاق سراح بالون وليرافقه في الطريق المؤدية الى المطعم حيث عليه ان يسأل عن فاننيك عله يجده.
نظر بالون الى شفيك على انه منقذه ووعده بأن يتقاسم معه كل طرد يأتيه من البيت.



قال بالون بصوت كتيب:

- سيقومون ببعض الذبح في البيت. هل تحب مقاتل لحم الخنزير المقدد مع الدم ام بدونه؟ قل لي وأنا ساكتب الي البيت الليلة. لا بد وان خنزيري يزن حوالي (150) كلف. له رأس اشبه برأس كلب البولدوغ، وهذا افضل أنواع الخنازير. لا تجداية اجزاء عديمة النفع في خنازير كهذه. انه من سلالة جيدة جداً وهو شديد الاحتمال أيضاً. لا بد وان دهنه اصبح بمقدار ثمانية اصابع. حين كنت في البيت كنت اصنع «البيترنيتسه»⁽¹⁾ بنفسي، وأنا احشو بطني دائماً إلى أي حد اكاد انفجر معه. كان وزن خنزير العام الماضي (160) كغ.

ثم استأنف قائلاً بحماسة وهو يضغط على يد شفيك بقوة حين افترقا:

(1) نوع من المقاتل التشيكية الشعبية ويصنع من كبد الخنزير وأجزاء اخرى منه، ثم يهر جيداً ويربط طرفاه بعيدان خشبية صغيرة. (س. ب.).

- لقد كان ذلك خنزيراً رائعاً حقاً. كنت لا اطعمه سوى البطاطا وكنت استغرب كثيراً انه كان يزداد وزناً كل يوم. ثم نعتت فخذيته في ماء مالح، واقول لك ان قطعة من لحم الخنزير المقلي، المأخوذة من منقوع الملح والتي تقدم مع الملفوف والبطاطا، والتي يرش عليها الخبز المحمص، هي ألد وجبة يمكن ان تأكلها. وبعدها تشرب الكثير من الجعة عندها يشعر المرء بالشبع الكامل. وقد حرمتنا الحرب من كل ذلك.

تهدد بالون الملتحى بعمق واستأنف طريقه نحو ديوان الفوج بينما كان شفيك يتجه نحو المطعم عبر طريق قديمة بين اشجار الزيزفون العالية. في هذه الأثناء كان فانيك يجلس بسعادة في المطعم ويحكى لأحد اصدقائه، وهو برتبة مساعد، كيف كان يصنع قبل الحرب طلاء المينا والاسمنت.

كان المساعد قد سبق له وأبحر في محيط النشوة، فقد كان قد وصل الى المعسكر صاحب املاك ثري من «باردوبيتسه» كان له ابن في المعسكر، وقد اعطى المساعد رشوة محترمة واصطحبه الى البلدة حيث قدّم له ضيافة ممتازة طوال فترة الصباح.

وها هو يجلس الآن يائساً حيث لم تعد له اية شهية، كما لم يكن مدركاً لموضوع حديث فانيك ولا يتذكر شيئاً عن طلاء المينا.

كانت الأفكار الخاصة تشغله وراح يهتمهم انه يتوجب ان يكون هناك خط سكة حديدية بين «ترجيوني» الى «بلهرجيموف» وبالعكس.

حين دخل شفيك كان فانيك يحاول مرة اخرى ان يشرح للمساعد بالأرقام كم من الأرباح يمكن كسبها من كيلو غرام واحد من طلاء الاسمنت الخاص بالابنية، فأجابه المساعد على سكة اخرى تماماً:

- وفي طريق العودة مات مخلفاً الرسائل وراءه فحسب.

وحين لاحظ وجود شفيك ظنه على ما يبدو شخصاً آخر لم يكن يوده

وبدا يشتمه وهو يقول انه شخص يتكلم من بطنه.

اقترب شفيك من فاننيك الذي كان في حالة من النشوة الكبيرة ولكن في مزاج جيد جداً.
قال شفيك:

- يا رقيب أول الامدادات عليك الذهاب فوراً الى المستودعات. لقد سبقك الى هناك رقيب الفصيلة فوخس مع عشرة رجال وهم في انتظارك. يتوجب استلام معلبات الطعام. عليك ان تسرع الى هناك فوراً فقد سبق للملازم الأول ان هتف مرتين.

انفجر فاننيك ضاحكاً:

- ساكون احمق لعيناً لو فعلت يا ولدي العزيز. سيكون علي ان اشم نفسي يا ملاكي. هناك متسع من الوقت لكل شيء يا بني، أليس كذلك؟ لا شيء يستدعي العجلة يا ولدي العزيز، أليس كذلك؟ حين يكون الملازم الأول لوكاش قد جهز من السرايا المتقدمة العدد نفسه الذي سبق لي وجهزته، عندها يمكنه ان يبدأ الكلام. لن يزعج شخصاً مثلي دون معنى اذا قال «اسرع فوراً!» في ديوان الفوج سبق لي وتلقيت امرأ بأننا سنذهب غداً وانما علينا ان نحزم اغراضنا وان نسرع في استلام التموين للرحلة. ما الذي فعلته؟ لقد جئت الى هنا لأشرب ربع لتر من النبيذ، وها أنذا اجلس هنا مرتاحاً واطرك الامور تنزلق من جرائ ذاتها. المعلبات هي المعلبات والتموين هو التموين. اعرف المستودعات افضل مما يعرفها الملازم الأول واعرف ما الذي يتحدثون عنه في تلك الاجتماعات التي تجري بين الضباط والعقيد. انها مخيلة العقيد فحسب هي التي تصور له وجود معلبات في المستودعات. ليس لدى مستودعات فوجنا اية معلبات ولكنها تحصل عليها بين الحين والآخر من اللواء او تستعيرها من افواج اخرى يحصل معها بعض الاحتكاك. نحن مدينون لفوج بنيشوف بثلاثمئة علبة. هاهه! فليقولوا

ما يريدون في اجتماعهم، ولكن بدون تصفيق من فضلكم! عجباً أذاً، امين المستودع نفسه سيقول لجماعتنا حين يذهبون الى هناك بأنهم مجانيين. لم يسبق لأية سرية متقدمة ان حصلت على اية معليات لأجل الرحلة.

ثم قال وهو يلتف الى المساعد:

- أليس الامر كذلك يا حبة البطاطا العجوز؟

ولكن هذا كان إما نائماً او انه كان يهذي لأنه اجاب:

- وبينما هي تمشي كانت تحمل مظلة مفتوحة.

قال فاننيك:

افضل ما يمكنك ان تفعله هو ان تترك كل شيء يسير على هواه. لو قالوا اليوم في ديوان الفوج اننا سنرحل غداً، فلن يصدقهم حتى طفل صغير. هل يمكننا ان نرحل دون عربات؟ خلال وجودي هناك هتفوا الى المحطة. وقد علموا انه لا توجد عربة واحدة احتياطية هناك. وهذا ينطبق أيضاً مع ما حدث في السرية المتقدمة الأخيرة. آنذاك بقينا في المحطة يومين كاملين وانتظرنا حتى يشفقوا علينا فيرسلوا لنا العربات. ثم اننا لم نكن نعرف اين نحن ذاهبون: ولا حتى العقيد كان يعرف. وبعد ذلك سافرنا عبر هنغاريا كلها ومع ذلك لم يكن هناك من يعرف ان كنا ذاهبين الى الصرب او الى روسيا. في كل محطة كنا نتحدث مباشرة مع اركان الفرقة. كنا مجرد ورق لملء الشقوق. واخيراً أرسلنا الى القرب من «دوكلا». وهناك مزقونا اشلأء وعدنا على الأقدام الى حيث اعيد تشكيلنا. لا تصفيق من فضلكم. كل شيء سيتم في الوقت المناسب ولا حاجة للاستعجال. أجل، هكذا هي الامور. ها نحن قد عدنا ثانية!

ثم استأنف فاننيك كلامه فقال: «لديهم اليوم نبذ جيد الى حد استثنائي». وقد كان غير آبه بالمساعد الذي كان يهمهم قائلاً بالألمانية:

«صدقوني، حتى الآن لم استمتع إلا بالقليل من حياتي. أنا مندهش من هذه القضية».

- لماذا أزعج نفسي دون ضرورة برحيل الكتيبة المتقدمة؟ عجباً، لقد كان كل شيء جاهزاً خلال ساعتين في السرية المتقدمة الأولى التي ذهبت معها. أما في السرايا المتقدمة الأخرى فكان الأمر يتطلب يومين كاملين للاستعداد. ولكن كان معنا كقائد للسرية الملازم الأول «برجينوسيل»، وهو «غندور» عظيم وقد قال لنا: «لا تسرعوا أيها الأولاد»، وجرت الأمور على نحو فوضوي. لقد بدأنا بحزم أغراضنا قبل ساعتين من انطلاق القافلة. لماذا لا تجلس أنت أيضاً؟...

قال الجندي الطيب شفيك بروح من التضحية الهائلة بالذات:

- لا أستطيع. عليّ أن أعود الى الديوان. ماذا سيحدث لو هتف شخص ما؟

- اذهب إذا يا ابني الصغير، ولكن تذكر طوال حياتك أن هذا التصرف غير لائق. ان على جندي الارتباط الحقيقي ألا يكون أبداً حيث هو مطلوب. لا يتوجب عليك أن تكون حماسياً الى هذا الحد من تنفيذ واجباتك. لا شيء أبشع، يا حبي، من جندي ارتباط أرعن يود التهام الحرب كلها. ولكن شفيك كان قد سبق له وخرج من الباب مسرعاً نحو مكتب سريره المتقدمة.

ترك فانيك في عزلة حيث لم يكن ممكناً لأحد ان يدعي ان المساعد كان موجوداً هناك إطلاقاً.

كان هذا الأخير يعيش في عالمه الخاص ويهذر بأكثر الأشياء تفاهة بالتشكيكية والألمانية دون أي رابط ويربت على ربع ليطره من النييد:

- لقد سرت عبر هذه القرية مرات كثيرة ولم تكن لديّ اية فكر انها موجودة اصلاً. وخلال نصف عام ساكون قد قدمت امتحاني الرسمي

ونلت الدكتوراه. لقد أصبحت مقعداً عجوزاً، شكرانيا «لوسي» انهم يظهرون في كتب منظمة جيدة... ربما هناك شخص بينكم يستطيع ان يتذكرها.

ومن شدة الملل قام رقيب أول الامدادات بنقر لحن عسكري (مارش) ولكنه لم يعد مضطراً الآن للشعور بالملل، حيث فتح الباب ودخل «يورaida»، وهو طبّاخ من مطعم الضباط، وجلس على أحد الكراسي. همهم قائلاً:

- اليوم وصلنا الأمر باستلام البراندي للرحلة، ولأنه لا توجد زجاجة روم واحدة مقششة فارغة اضطررنا الى تفرغ واحدة منها. وقد صرعتنا جميعاً لقد داخ الرجال في المطبخ. كان ينقصني قليل من الحصص في حساباتي، وقد وصل العقيد متأخراً ولم يكن قد تبقى له شيء. والآن ها هم يقلون له بعض العجة. وأستطيع أن اقول لكما إنه كان أمراً مسلياً فعلاً.

قال فاننيك الذي كان يحب دائماً الكلمات الجميلة وهو يشرب النبيذ: - إنها مغامرة رائعة:

بدأ الطباخ «يورaida» بالفلسف، وكان ذلك ممّا يتفق مع مهنته السابقة. فقد كان قبل الحرب محرراً لمجلة تبحث في أمور الإيمان بالقوى الخفية، كما كان مسؤولاً عن تحرير سلسلة من الكتب تدعى: «أسرار الحياة والموت». وحين بدأت الحرب تجنب أهوالها بالتسلسل الى مطبخ ضباط الفوج وغالباً ما كان يحرق قطع اللحم الكبيرة المجهزة للشواء وهو منهمك في قراءة ترجمة الحكم الهندية القديمة «براغنا - باراميتا» (او الحكمة الملهمة).

كان العقيد شرودر معجباً به كعينة نادرة في الفوج، فأبي مطبخ من مطابخ الأفواج كان يمكنه أن يفتخر بوجود عالم بالقوى الخفية كطباخ له؟ وبينما كان يسبر أسرار الحياة والموت، فقد ادهش الجميع بطبخه لخاصرة البقرة او لليخنة كثيرة التوابل والى حد ان الملازم الأول «دوفيك» كان

يصرخ باسم «يورايديا» حين أصيب بجرح قاتل الى القرب من «كوماروفو».

قال يورايديا فجأة حيث لم يكن يستطيع الجلوس على الكرسي إلا بالكاد كما كانت رائحة الروم تفوح منه مسافة ميل كامل:

- أجل، حين لم يعد هناك للكولونيل ما يأكله اليوم ولم ير سوى البطاطا المسلوقة التي يتصاعد منها البخار، أصيب بحالة من «الغاكي» هل تعرف ما هي «الغاكي»؟ انها حالة الأرواح الجائعة. وقد قلت له «يا سيدي هل لديك من القوة ما يكفي بحيث تلغي حكم القدر القاضي بعدم وجود لحم عجل محمص لك؟ لقد كتب في «كارما» يا سيدي انه ستقدم لك اليوم على الغداء عجة رائعة مع كبد عجل مقطوع ومطهي على نحو بطيء».

ثم قال بصوت خفيف لرقيب أول الامدادات بعد فترة وهو يحرك يده دون عمد فيوقع كل الكؤوس التي كانت على المنضدة: «يا ولدي العزيز»، ثم استأنف بكآبة بعد ما حدث:

- هنا توجد لا كينونة كل الظواهر والأشكال والأشياء. الشكل لا كينونة واللاكينونة هي الشكل. اللاكينونة لا تختلف عن الشكل والشكل لا يختلف عن اللاكينونة. وكل ما هو دون كينونة هو أيضاً شكل وكل ما هو شكل هو لا كينونة أيضاً.

لف الطباخ عالم القوى الخفية نفسه في حجاب من الصمت، وأمسك برأسه بين يديه ونظر الى المنضدة الرطبة المملطخة.

استمر المساعد بهمهم بأشياء لا معنى لها ولا منطق:

- لقد اختفت الذرة من الحقل، اختفت... بهذا المزاج تلقى دعوة وذهب ليلبيها... أعياد «الويتسون» تكون في الربيع.

استمر رقيب أول الامدادات فاننيك بالنقر على المنضدة وظل يشرب ويتذكر بين الحين والآخر أن عشرة رجال مع رقيب ينتظرونه في المستودعات.

وحين كانت ذاكرته تعود إليه كان يبتسم دائماً لنفسه ويلوح بيده طارداً الأمر بعيداً عنه:

وحين عاد متأخراً الى ديوان السرية الحادية عشرة وجد شفيك عند الهاتف:

قال بصعوبة:

- الشكل هو اللاكينونة واللاكينونة هي الشكل.

وكان ذلك وهو يأوي الى فراشه بكامل ملابسه وينام فوراً.

وقد استمر شفيك جالساً الى القرب من الهاتف، لأن الملازم الأول لوكاش اتصل به قبل ساعتين وأخبره انه لا زال في الاجتماع مع العقيد وانه قد نسي أن يقول له إن بإمكانه ان يتعد عن الهاتف:

بعد ذلك تحدث إليه الرقيب فوخس على الهاتف واخبره انه لم ينتظر هو ورجاله العشرة طوال الوقت عبثاً وصول رقيب أول الامدادات فحسب بل وجدوا أيضاً ان المستودعات مغلقة.

بعد ذلك ذهب في حال سبيله وعاد الرجال الى مقرهم.

بين الحين والآخر كان شفيك يسلي نفسه بالامسك بالسماعة والاستماع. كان الهاتف من طراز جديد تم استعماله في الجيش مؤخراً ومن مزاياه انك كنت تستطيع ان تسمع بكل وضوح وجلاء محادثات الناس الآخرين على الهاتف على امتداد الخط كله.

كانت القافلة تتبادل السباب مع ثكنة المدفعية وكان سلاح الهندسة يهدد البريد العسكري وكتيبة الرماة تشتم سلاح المدفعية الرشاشة. وظل شفيك جالساً عند الهاتف.

وقد استمر الاجتماع في مكتب العقيد وطال وطال...

كان العقيد شرودر يبسط آخر نظرياته حول الخدمة الميدانية ويؤكد

على نحو خاص على دور مدافع الهاون الخاصة بالحنادق.

لقد تحدث دون مغزى او منطلق حول صمود الجبهة قبل شهرين في الجنوب والشرق، وحول أهمية الاتصالات الدقيقة بين الوحدات الفردية، حول الغازات السامة وإسقاط الطائرات المعادية وإطعام الرجال في ميدان المعركة. ثم انتقل الى أحوال الجنود.

بعد ذلك تحدث عن العلاقة بين الضباط والجنود وبين الجنود وضباط الصف، والفرار للانضمام الى العدو في الجبهة، والحوادث السياسية وحقيقة ان خمسين بالمئة من الجنود التشيكيين «مشبهون سياسياً».

- أجل أيها السادة: كرامارج وشاينر وكلوفاتش⁽¹⁾.

كان معظم الضباط يتساءلون باستمرار متى سيتوقف العجز المرتجف عن الهذر، ولكن العقيد شرودر راح يثرثر عن المهمات الجديدة المفروضة على الكتائب المتقدمة، وعن الضباط الذين سقطوا في المعركة وعن «زيبيلين» و«الفرسان الاسبان» وقسم الجنود.

وحين وصل الى تلك النقطة تذكر لوكاش انه حين اقسمت الكتيبة بكاملها، لم يساهم الجندي الطيب شفيك في ذلك لأنه كان قيد الاعتقال في محكمة الفوج.

وفجأة لم يستطع ان يغالب الضحك. كان نوعاً من الضحك الهستيرى الذي أصاب بالعدوى بعض الضباط الآخرين ولاحظ العقيد ذلك، وكان في تلك اللحظة قد انتقل الى الحديث عن التجارب المكتسبة خلال تراجع القوات الألمانية في «الأردن». وقد تلبك تماماً وقال منهياً حديثه:

- أيها السادة، هذه ليست أموراً تدعو الى الضحك.

ثم ذهب الجميع الى نادي الضباط حيث استدعي العقيد شرودر بالهاتف الى أركان اللواء.

(1) ثلاثة من القادة التشيكيين السياسيين سجنوا خلال الحرب بتهمة الخيانة. (س. ب)

كان شفيك لا يزال نائماً عند الهاتف حين ايقظه رنينه فجأة.
سمع ما يلي:

- هالو. ديوان الفوج يتكلم.
- هالو. مكتب السرية الحادية عشرة المتقدمة يتكلم.
- لا تضيع وقتي. خذ قلماً واكتب. إليك هذه البرقية.
- السرية الحادية عشرة المتقدمة...

والآن تتابعتم جمل لا رابط بها أبداً لأنها كانت ممتزج بمحادثات السريتين الثانية عشرة والثالثة عشرة اللتين كانتا تجريان في الوقت نفسه، وقد ضاع مغزى البرقية تماماً خلال فوضى الأصوات. لم يستطع شفيك أن يفهم كلمة واحدة. وأخيراً هداً كل شيء وفهم شفيك: «هالو، هالو، والآن اقرأ ما كتبت ولا تضيع وقتي».

- وما الذي أقرؤه؟

- ما الذي عليك ان تقرأه ايها الأحقق اللعين؟ البرقية!
- أية برقية؟

- يا للجهيم اللعين هل أنت أصم؟ البرقية التي أملتتها عليك للتو.
- لم استطع سماع أي شيء. كان احدهم يتحدث طوال الوقت على الخط.

- أيها السعدان الأحقق. هل تعتقد أننا سنمضي اليوم كله معك؟ حسناً، هل ستستلم البرقية أم لا؟ هل لديك ورقة وقلم؟ ليس لديك ايها النغل، ولذا سأنتظرك حتى تجد ورقة وقلماً. يا لك من جندي وحسناً، هل ستستلم الرسالة أم لا؟ هل أنت جاهز؟ أخيراً استيقظت ايها النغل اللعين. لقد كنت تزين نفسك على ما افترض. والآن اسمع على قيادة الحادية عشرة كرر ذلك على قيادة السرية الحادية عشرة

- المتقدمة... هل سمعت... كرر.
- المتقدمة.
- الذهاب الى الاجتماع غداً... هل أنت مستعد... كرر.
- الذهاب إلى الاجتماع غداً...
- الساعة 9 صباحاً. توقيع. هل تعرف ما هو التوقيع أيها السعدان؟ إنه التوقيع. كرر ذلك.
- الساعة 9 صباحاً. توقيع. هل تعرف ما هو التوقيع أيها السعدان؟ انه «التوقيع».
- أيها الساذج المغفل. حسناً: إليك التوقيع: العقيد شرودر يا نغل. هل وصلك ذلك؟ كرر.
- العقيد شرودر يا نغل!
- حسناً أيها البغل اللعين. من الذي استلم البرقية؟
- أنا.
- يا رب السماء، من أنا؟
- شفيك. أي شيء آخر؟
- حمداً لك يا رب. ولكن كان يتوجب أن يكون اسمك «بقرة» ما هي الأخبار عندكم؟
- لا شيء. الأمور لا زالت كما هي.
- وأنت سعيد، أليس كذلك؟ لقد كان أحد جنودكم مقيداً اليوم كما يقال، أليس كذلك؟
- كان ذاك هو وصيف الملازم الأول، وقد التهم له وجبة غدائه. هل تعرف الى أين سندهب؟
- يا ولدي العزيز، يا له من سؤال! عجباً، حتى «العجوز» نفسه لا يعرف. ليلتك سعيدة. هل لديكم براغيث هناك؟

أعاد شفيك الساعو وبدأ يوقظ رقيب أول الامدادات فانيك الذي قاوم بعنف. وحين بدأ شفيك يهزه لكمه هذا على أنفه. ثم تمدد على بطنه وراح يرفس.

ومع ذلك نجح شفيك في ايقاظ فانيك الى حد ان ذاك فرك عينيه وانقلب على ظهره وسأله بصوت يدل على الانزعاج مما يحدث.

- لاشيء حتى الآن. ولكنني اريد اخذ مشورتك. لقد استلمنا برقية بأن على الملازم الأول لو كاش ان يذهب غدا الى اجتماع عند العقيد مرة أخرى. لا اعرف كيف سأصرف. هل اذهب واسلمه الرسالة ام انتظر حتى الصباح؟ لقد ترددت فترة طويلة قبل ايقاظك فقد كنت تشخر على نحو جميل جداً، ولكنني فكرت في ان عليّ ان استشيرك على اية حال...

إن فانيك قائلاً وهو يتشاءب على نحو هائل:

- كرمي لله، اذهب إليه في الصباح ولا توقظني.

ثم انقلب على جنبه وعاد الى النوم فوراً.

عاد شفيك الى الهاتف وجلس وبدأ رأسه يميل من النعاس على الطاولة. ولكن الجرس أيقظه.

- هالو، السرية الحادية عشرة المتقدمة؟ من هناك؟

- السرية الثالثة عشرة المتقدمة تتكلم. هالو. كم الساعة؟ لا اعرف اين هو بديلي. انتظر منذ ساعات طويلة وصول البديل.

- ساعتنا توقفت.

- إذا فأنت في ورطة مشابهة. هل تعرف متى سرحل؟ هل تحدثت الى ديوان الفوج؟

- انهم لا يعرفون هناك أكثر مما نعرف ولا حتى بمقدار قطعة واحدة من البراز.

- لا تكن سوقياً. هل سبق لكم واستلمتم الملعبات؟ لقد ذهبت جماعتنا الى المستودعات وعادت بخفي حنين. المستودعات مغلقة.
- وجماعتنا أيضاً.
- كل هذه الجعجعة ولا طحين. الى أين نظننا ذاهبين؟
- الى روسيا.

- اعتقد ان صربيا هي الاحتمال الأقوى. ستعرف حين نصل الى بودابست، فإذا اتجهنا يميناً فذلك يعني اننا سنذهب الى الصرب، وإذا اتجهنا يساراً فهذا يعني اننا سنذهب الى روسيا. هل سبق لكم وحصلتم على أكياس الخبز؟ يقولون ان الرواتب قد زيدت. هل تعرف كيف تلعب «فريش فيير»⁽¹⁾؟ هل تعرف؟ إذا تعال الى هنا في الغد. نحن نلعبها كل مساء. كم عددكم على الهاتف؟ أنت فحسب؟ إذا العن الهاتف واذهب الى الفراش، لا شك أن اجراءاتكم مضحكة هناك. ما الذي قلته؟ لقد حصلت على الوظيفة بضربة حظ؟ والان اتى بديلي اخيراً. اتمنى لك شخيراً جميلاً.

ثم نام شفيك بالفعل نوماً عذباً عند الهاتف وقد نسي أن يعيد السماعه الى مكانها، ولذا لم يقطع عليه نومه أحد، وراح عامل المقسم في ديوان الفوج يشتم حين لم يعد يتلقى أي جواب من السرية الحادية عشرة المتقدمة. كانت لديه برقية جديدة تفيد بأنه عند الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي سيتلقى ديوان الفوج رقم اولئك الذين تم تلقيحهم ضد التيفوس.

خلال ذلك كان الملازم الأول لو كاش لا يزال جالساً في نادي الضباط مع الطبيب العسكري «شانتسler» الذي كان يجلس على الكرسي منفرج الساقين. وهو ينقر على الأرض بانتظام بعصا البلياردو ويلفظ الجمل التالية متتابعة خلال ذلك:

- كان السلطان المسلم صلاح الدين أول من أقر بحيادية الوحدات

(1) لعبة ورق ألمانية. (س. ب.).

الطبية/ يجب الاعتناء بجرحى الطرفين/ الأدوية والعناية الطبية بأولئك الجرحى يجب ان تبذل لقاء تعويضات من الجانب الآخر/ يجب أن يسمح بإرسال الأطباء ومساعدتهم مع جوازات السفر الخاصة بالجنزالات/ يجب ان يعاد الأسرى المصابون بجروح الى بلدهم تحت حماية وضمانة الجنزالات او يتم استبدالهم. ولكنهم يستطيعون لاحقاً ان يعودوا الى الخدمة العسكرية/ لا يجب ان يتم أسر الجرحى من الجانبين او ان تتم تصفيتهم جسدياً بل يجب ان يرسلوا الى ملجأ في المستشفيات وان يسمح بوضع حرس تم اعادتهم- كالجرحى- الى بلادهم بجوازات سفر خاصة بالجنزالات. وهذا ينطبق على القساوسة والأطباء والجراحين والصيادلة والمرضى والمرضات والمساعدين والأشخاص الآخرين المعينين للاعتناء بالجرحى. لا يجب ان يؤسر هؤلاء بل يتوجب ان يعادوا الى بلدهم بالطريقة نفسها.

كان قد سبق للدكتور شانتسلر ان حطم عصاتي بلياردو ولم يكن قد انهى اطروحته حول الاهتمام بالجرحى في زمن الحرب بعد. وكان يقحم دائماً في الموضوع شيئاً ما حول جوازات سفر الجنزالات.



أنهى الملازم الأول لو كاش فنجان القهوة السوداء وعاد الى البيت حيث وجد المارد الملتحي بالون منشغلاً بقلي بعض السلامي في مقلاة وذلك على الصباح الكحولي الخاص بالملازم الأول لو كاش.

قال بالون متلعثماً:

- لقد سمحت لنفسي فاعذرني يا سيدي، أبلغكم بتواضع أي.. نظر لو كاش إليه، وفي تلك اللحظة بدا له بالون كطفل كبير، كمخلوق ساذج، وفجأة شعر بالأسف لأنه أمر بتقييده بسبب جوعه الهائل.

قال وهو يخلع سيفه:

- استمر في الطبخ. غداً سأصدر لك تفويضاً بحصة اضافية من الخبز.

جلس الملازم الأول لو كاش الى الطاولة وكان في مزاج مناسب لكتابة رسالة حزينة الى عمته:

«عمتي العزيزة:

لقد تلقيت للتو أوامر بالاستعداد للرحيل الى الجبهة مع سرיתי المتقدمة. ربما ستكون هذه آخر رسالة تلقينها مني لأن هنا قتلأً عنيفاً في كل مكان وخسائرنا هائلة. كذلك يصعب عليّ ان انهي هذه الرسالة بهذه الكلمات: «حتى نلتقي ثانية!» وسيكون من المناسب اكثر ان ارسل لك وداعاً نهائياً!»

فكر الملازم الأول في نفسه: «سأنهيها في الصباح»، ثم ذهب إلى فراشه. حين رأى بالون ان الملازم الأول كان غارقاً في النوم بدأ يفتش ويستطلع بفضول في انحاء الشقة كما الحنافس السوداء ليلاً. وقد فتح حقيبة الملازم وقضم قطعة من لوح من الشوكولاته وجده فيها. وحين استيقظ الملازم الأول فجأة من نومه خاف بالون وأسرع ووضع لوح الشوكولاته في الحقيبة بعد أن قضم نصفه وسكنت حركته.

ثم سار بهدوء ليرى ما كتبه الملازم الأول.

وقد قرأ الرسالة وتأثر على نحو خاص بعبارة «وداعاً نهائياً».

ثم تمدد على حشيته العسكرية قرب الباب وتذكر بيته وعمليات ذبح الحيوانات، ولم يستطع ان يحزر نفسه من الذكرى الحية. ذكرى قيامه بثقب مقائق لحم الخنزير المقدد حتى يخرج منها الهواء فلا تنفجر لدى طبخها. ومع ذكرى انفجار إحدى مقائق لحم الخنزير المقدد مرة في بيت جيرانه وكيف اندثرت أثراً بعد عين من جراء الانفجار، نام بالون نوماً مشوباً بالقلق.

وقد حلم انه قد استدعى جزاراً غير حاذق وانه بينما كان يحشو البيترنيتسه بدأت هذه بالانفجار. ثم حلم مرة أخرى ان الجزار قد نسي ان يصنع سجق الدم وان لحم الخنزير الطازج المسلوق قد اختفى ولم يتبق عدد كاف من العصي الصغيرة لربط البيترنيتسه. وبعد ذلك حلم بمحكمة الميدان العسكرية لأنهم أمسكوا به وهو يسرق قطعة لحم من المطبخ الميداني واخيراً رأى نفسه مشنوقاً على شجرة زيزفون في الجادة التي في وسط المعسكر الواقع في «بروك آن دير لايتا».

حين استيقظ شفيك مع الفجر الذي وصل حاملاً رائحة القهوة المعلبة من كل مطابخ السرايا، اعاد السماع الى مكانها آلياً وكأنه قد انتهى للتو مكالمة هاتفية ثم قام بمشوار صباحي صغير على الأقدام حول المكتب وهو يغني. وقد بدأ من منتصف الأغنية: جندي يرتدي ملابس فتاة ويذهب باحثاً عن حبيبته في طاحونة، حيث يضعه الطحان في فراش ابنته ولكنه ينادي قبل ذلك على زوجته قائلاً:

«يا ماما، هيا اطبخي بعض اللحم

حتى تأكل الفتاة الصغيرة.

تقدم زوجة الطحان بعض الطعام الى الوغد. ثم تتبع ذلك مأساة العائلة:

«استيقظ الطحان وزوجته في الثامنة

ووجدا الكلمات التالية على بايها:

ابنتكما «ن» «العدراء سابقاً».

لم تعد كذلك الآن يا أسفاه؟»

وقد رفع شفيك عقيرته حين غنى المقطع الأخير والى حد ان المكتب عاد الى الحياة: فقد استيقظ رقيب أول الامدادات فانيك وسأل كم الساعة.

- منذ لحظة واحدة ضرب بوق الاستيقاظ.

قال فانيك الذي كان يترث في كل موضوع:

- إذا سأنهض بعد ان اشرب بعض القهوة. على اية حال فإنهم سيسخرون منا ويورطوننا في احدى المسائل التافهة ويجعلوننا نعمل دون ضرورة كما حصل البارحة مع تلك المعلبات.

ثم تئاب فانيك وسأل إن كان قد تكلم طويلاً حين عاد في الليلة الماضية.

قال شفيك:

- كان كلامك بعيداً بعض الشيء فحسب عن المنطق، فقد واطبت على التفوه بشيء يتعلق ببعض الأشكال، وان الشكل ليس شكلاً وان ما هو ليس شكلاً هو شكل وان ذلك الشكل ليس شكلاً أيضاً. ولكنك تغلبت على ذلك بسرعة وبدأت تشخر كأنك آلة نشر.

صمت شفيك وسار الى الباب ثم عاد الى سرير رقيب أول الامداد وتوقف أمامه وقال:

- فيما يتعلق بي شخصياً ايها الرقيب الأول، فإني حين سمعتك تتحدث عن تلك الأشكال تذكرت شخصا بعينه اسمه «زاتكا» وكان يعمل في معمل للغاز في «ليتنا» وعمله هو إشعال المصابيح ثم إطفائها. كان رجلاً حادقاً وكان يذهب الى كل انواع الحانات في «ليتنا» لأنه كان عليه ان يضيّع وقته

في الانتظار ما بين اشعال المصاييح واطفائها. وفي الصباح حين كان يعود الى شركة الغاز اعتاد أن يتحدث بالطريقة نفسها التي كنت تتحدث بها البارحة باستثناء انه كان يقول: « المكعب هو الزاوية ولذا فإن المكعب زاوي». لقد سمعت ذلك بعيني هاتين⁽¹⁾ حين اصطحبني مرة شرطي سكران إلى شركة الغاز بدلاً عن مخفر الشرطة بعد ارتكابي لبعض الإزعاجات في الشارع. ثم استأنف شفيك بهدوء:

- وبعد ذلك عرف «زاتكا» ذاك نهاية حزينة. لقد انضم الى «طائفة مريم العذراء» وذهب مع تلك العنزات المنافقات ليستمع الى مواعظ الأب «يسيملكا»⁽²⁾ في كنيسة القديس اغناطيوس في ساحة تشارلز. ومرة حين كان المبشرون في كنيسة القديس اغناطيوس نسي ان يطفى مصاييح الغاز في منطقتة فكان ان ظلت الأنوار مضاءة في الشوارع ثلاثة أيام بلياليها. ثم استأنف شفيك يقول:

- من المؤسف ان يبدأ الرجل بالتورط في التفلسف فجأة. فلهذا رائحة «البطاح الغولي». منذ سنوات خلت نقل إلينا رائد اسمه «بلوهر» من الفوج الخامس والسبعين، وكان هذا يجعلنا مرة في كل شهر نصطف على شكل مربع، ثم يناقش معنا ماهية الضباط. كان لا يشرب سوى السيلفوفيتسه، وقد اعتاد ان يقول في ساحة الثكنة: «كل ضابط هو الكائن الكامل يا جنودي، ولديه عقل اكبر بمئات المرات من جميع عقولكم مجتمعة. لا يمكنكم ان تصوروا ما هو اكثر كمالاً من الضباط يا جنودي، حتى لو فكرتم في هذه المسألة طوال حياتكم. وكل ضابط عبارة عن كائن ضروري، بينما انتم يا جنودي كائنات عرضية. قد توجدون وقد لا توجدون. واذا ما حدث يا جنودي وشتت الحرب وكان عليكم أن تضحوا بحياتكم في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية. حسناً، لن يتغير أي شيء كثيراً. ولكن لو سقط قبل

(1) هكذا وردت في الأصل (الترجم)

(2) واعظ يعقوبي سيئ السمعة كان مشهوراً في براغ في تلك الأيام (س. ب)

ذلك ضابطكم فستدركون آنذاك كم تعتمدون عليه واية خسارة هو لكم. على الضابط ان يوجد، وفي الحقيقة، فإنكم تستمدون وجودكم ذاته حصراً من ضباطكم، بل انتم تبتشون منهم. لا يمكنكم حتى ان تضربوا دون ضباطكم. بالنسبة إليكم يا رجالي الضابط هو قانونكم الأخلاقي سواء فهمتم ذلك أم لم تفهموه، ولأن على كل قانون ان يكون له مشرعه يا رجالي. فإن عليكم ان تشعروا تجاه الضابط بالالتزام الكامل وعليكم ان تطيعوا كل أمر من أوامره دون شرط حتى لو فعلتم ذلك رغماً عنكم». وقد حدث مرة انه بعد ان أنهى خطابه تجول حول المربع وسأل الرجال واحداً واحداً: «كيف تشعر بعد ان تكون قد أفرطت في الشراب؟» وقد اجابوه بإجابات مشوشة فقال بعضهم انه لم يسبق له ان أفرط في الشراب او أنه يشعر بالدوخة بعد الشراب. وقال احدهم انه يشعر وكأنه سيتم حجزه في الثكنة فلا يسمح له بالخروج... الخ. ثم أمر الرائد بلوهر كل اولئك بأن يغادروا الصف قائلاً انه في فترة ما بعد الظهر سيكون عليهم أن يمارسوا التدريب غير المسلح في الساحة كعقوبة لهم لعدم قدرتهم على التعبير عما يشعرون به. وقبل ان يصل الدور إليّ تذكرت ما كان يناقشه معنا في المرة الأخيرة. وحين وصل إليّ قلت بكل هدوء: «ابلاغكم بتواضع يا سيدي انني حين أفرط في الشراب اشعر بنوع من العصبية في دخلي، بخوف وتأنيب ضمير. ولكن لو منحت اجازة مطولة وعدت إلى الثكنة في الوقت المناسب يعتريني شعور بالبركة. يكون لديّ سلام روحي كامل». وقد ضحك الجميع من حولي وصاح بي الرائد بلوهر: «من المحتمل اكثر ان تعترك الحكمة من البق الذي يزحف عليك ايها النغل، وذلك حين تشخر وأنت على سريرك. ايها الخنزير البائس، لديك الجرأة اللعينة على ان تحاول ان تكون مضحكاً». وقد وضعت في القيود الحديدية ولم يكن الأمر نصف مضحك حتى!

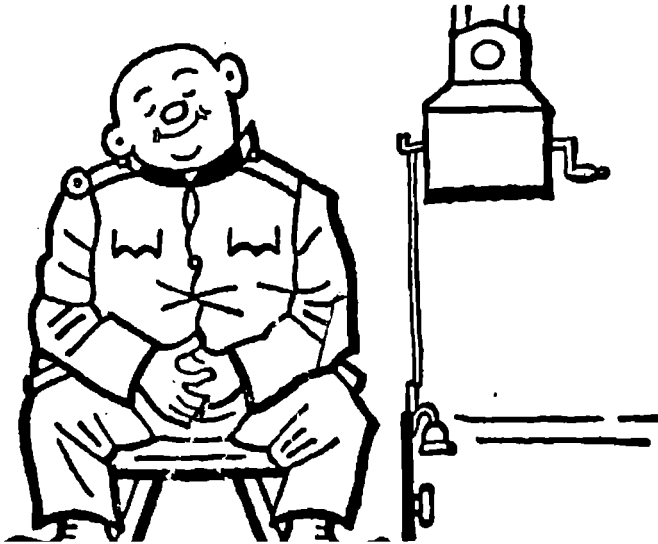
قال رقيب الامدادات وهو يتمطى بكسل على سريره:

- في الجيش لا بد وان تكون الأمور على هذه الحال. انه شيء مفروغ منه

انه مهما كان جوابك او فعلك فإن غيمة سوداء ستكون فوقك وسيبدأ الرعد بالقصف. ودون ذلك لا يمكن ان يكون هناك انضباط.

قال شفيك:

- ما تقوله صحيح تماماً. فأننا لن انسى أبداً حادثة حبس مجند اسمه «بيخ». كان ملازم الأول السرية شخصاً يدعى «موتس» وقد جمع المجندين وراح يسأل كل واحد منهم عن مكان سكنه. قال لهم: «أيها المجندون الأغرار، أيها الأنغال الملعونون من الله، عليكم ان تتعلموا كيف تجيبون بوضوح ودقة كما لو ان السوط يفرقع فوق رؤوسكم. والآن هيا نبداً. أين مسقط رأسك يا بيه؟» وكان بيه هذا رجلاً ذكياً فأجاب: «دولني بوسوف، او تترباواتزن، الدار رقم 267، حي السكان التشيكيين رقم 1936، منطقة بيتشين، اقليم سوبوتكا، ملكية سابقة من أملاك «كوست»، ابرشية كنيسة القديسة كاترينة من القرن الرابع عشر والتي رمها الكونت فاتسلاف فراتيسلاف نيتو ليتسكي، مدرسة، مركز بريد، تلغراف محطة السكة الحديدية التجارية التشيكية، معمل السكر، المنشرة مزرعة منعزلة تسمى «فالخا» وستة معارض



سنوية «وفي تلك اللحظة نفسها انقض الملائم الأول «موتس» عليه وراح يلكمه على حنكه المرة تلو الأخرى وهو يصرخ: «هذا سيلقنك درساً عن المعرض السنوي الأول، وها هو درس آخر للمعرض الثاني، وآخر للثالث والرابع والخامس والسادس». ورغم ان بيخ كان مجنناً إلا انه طلب المثول امام لجنة تأديب الكتيبة. وفي الديوان حدث ان وجدت في تلك الايام عصابة من الأنغال يتمتع أفرادها بحس النكته. وقد افادوا ان سبب لجوئه الى لجنة تأديب الكتيبة هو المعارض السنوية في «دولني بوسوف». كان قائد الكتيبة هو الرائد «روهل». وقد سأل هذا «بيخ» قائلاً: «حسناً، ما القضية؟» فقال ببيخ: «أبلغكم بتواضع يا سيدي ان في دولني بوسوف ستة معارض سنوية». ثم هدر الرائد روهل في وجهه وضرب بقدمه الأرض وأرسله فوراً الى الجناح العقلي في المستشفى العسكري. ومنذ ذلك الحين أصبح بيخ أسوأ جندي وقد راح ينتقل من عقوبة الى أخرى.

قال رقيب أول الامدادات فانيك وهو يتشاءب

- يصعب تثقيف الجنود والجندي الذي لا يعاقب في الجيش ليس جندياً. ربما كان صحيحاً في زمن السلم ان يعين الجندي الذي يكمل خدمته العسكرية دون اية عقوبة في السلك المدني لاحقاً، ولكن الأمور تختلف في هذه الأيام: إن أسوأ الجنود، اولئك الذين لم يخرجوا في وقت السلم من السجن، يصبحون في زمن الحرب افضل الجنود. اذكر جندي مشاة يسمى سيلفانوس في السرية الثامنة مشاة. قبل الحرب كان معتاداً ان ينال العقوبة إثر الأخرى. ويا لها من عقوبات! لم يكن يتورع عن سرقة آخر كوريتزر في جيوب رفاقه. وحين اشترك في المعركة كان أول من قطع الأسلاك الشائكة وأسر ثلاثة من جنود العدو وقتل احدهم على الطريق لأنه لم يستطع ان يثق به كما قال لنا. وقد منح «الوسام الفضي الأكبر» كما خاطوا له نجمتين ولو لم يشنقوه لاحقاً قرب «دوكلا» لكان قد اصبح رقيب فصيلة منذ زمن بعيد. ولكنهم اضطروا الى شنقه لأنه تطوع للذهاب ليستطلع بعد إحدى العمليات،

ولكن دورية من فوج آخر امسكت به وهو يسرق الجثث وقد وجدت معه ثماني ساعات والكثير من الخواتم. وهكذا شنقوه على سارية علم اللواء.
قال شفيك بحكمة:

- وهذا يعني ان على كل جندي ان يبذل قصارى جهده ليكسب مكانه على السلم.

رن جرس الهاتف. ذهب رقيب أول الامدادات الى الهاتف وكان ممكنا سماع صوت الملازم الأول وهو يسأل عما حدث بالنسبة للعمليات. وكان ممكناً سماع بعض التأنيبات بعد ذلك.

صاح فانيك في الهاتف:

- ولكن لا توجد اية معلبات يا سيدي. طبعاً لا يوجد يا سيدي.

كان ذلك مجرد شطحة خيال من قبل هيئة الإمداد والتموين. كان من العبث تماماً إرسال أولئك الرجال الى هناك. لقد اردت ان اهتف لك يا سيدي. ماذا؟ كنت في المطعم؟ من قال ذلك؟ ذلك الطباخ العالم بالقوى الخفية من مطعم الضباط؟ نعم، لقد سمحت لنفسي بالذهاب الى هناك. اتعرف يا سيدي كيف سمي ذلك العالم بالقوى الخفية عملية جلب المعلبات؟ لقد أسماها: «رعب الذي لم يولد بعد». لا يا سيدي. ليس كذلك اطلاقاً. أنا صاح مماماً. ما الذي يفعله شفيك؟ انه هنا. هل أناديه؟

قال رقيب أول الامدادات:

- تعال الى الهاتف يا شفيك.

ثم همس مضيفاً:

- اذا ما سألك عن حالتي حين عدت البارحة فقل له اني كنت في حالة جيدة.

شفيك يتحدث الآن على الهاتف:

- هذا شفيك يتكلم كما أبلغكم بتواضع يا سيدي.
- اسمع يا شفيك، ما الذي حدث لتلك المعلبات؟ هل الأمر على ما يرام؟
- لا يا سيدي. لا وجود لها إطلاقاً.
- يا شفيك، اريدك ان تتصل بي كل صباح، طالما نحن في المعسكر، وعلى اية حال سترافقني طوال الوقت خلال الرحلة. ما الذي فعلته خلال الليل؟
- كنت على الهاتف طوال الليل.
- هل كانت هناك اخبار جديدة؟
- نعم يا سيدي.
- يا شفيك كرمى لله، لا تبدأ بلعب دور الأحمق مرة أخرى.
- هل كان هناك أي شيء هام تم تبليغه لك من أي مكان.
- نعم يا سيدي ولكن لأجل الساعة التاسعة فقط.
- ولماذا لم تبغني فوراً؟
- لم أكن راغباً في إزعاجك يا سيدي. لا أحب إزعاجك.
- إذا كرمى لله قل لي ما هو الأمر الهام الخاص بالساعة التاسعة؟
- برقية يا سيدي.
- لا افهمك يا شفيك؟
- لقد كتبتها يا سيدي وها هي: « اكتب البرقية. من على الهاتف؟ هل استلمتها؟ اقرأها او شيء من هذا القبيل».
- كرمى لله يا شفيك أنت الصليب الذي يتوجب عليّ حمله قل لي ما كان في تلك البرقية او اني سأهجم عليك وأكل لك ضربة هائلة! حسناً، ما كان مضمون البرقية؟- اجماع آخر لدى العقيد يا سيدي. هذا الصبح في التاسعة تماماً لقد اردت ايقاظك في الليل ولكنني غيرت رأبي.

- من حسن حظك انك لم تتوقع الى حد محاولة ازعاجي بسبب أي هراء من أي نوع حين يكون هناك ما يكفي من الوقت صباحاً. اجتماع آخر. الى الجحيم به اعد السماعه الى مكانها واستدع فانبيك الى الهاتف!
رقيب أول الامدادات عند الهاتف:

- رقيب أول الامدادات فانبيك يتكلم يا سيدي.

- يا فانبيك جد لي وصيفا آخر. لقد التهم الوغد بالون كل الشوكولاته ليلاً. هل لك ان تقيده؟ لا! فلرسله الى الخدمات الطيبة انه ضخم كالجبل ذلك النغل! وهو قادر على حمل الجرحي من خط النار. سأرسله إليك فوراً. اتخذ ما يلزم من الاجراءات مع ديوان الفوج وعد الى السرية فوراً. هل تعتقد أننا سنرحل قريباً؟

- لا عجلة هناك يا سيدي. حين كان علينا ان نسير مع السرية التاسعة المتقدمة ظلوا أربعة أيام كاملة يتلاعبون بنا. وحدث الشيء نفسه مع السرية الثامنة. ولكن اختلف الأمر مع السرية العاشرة فكان افضل. عندها كنا في اتم استعداد للانطلاق الى الجبهة وعند الظهر وصلنا الأمر وعند المساء كنا قد انطلقنا. ولكنهم ساروا بنا بعد ذلك في كل انحاء هنغاريا فلم يكونوا يعرفون أي ثقب في الجبهة يتوجب علينا ان نسده.

منذ أن اصبح الملازم الأول لوكاش قائداً للسرية الحادية عشرة المتقدمة وجد هذا نفسه في حالة من «التوفيق بين المعتقدات» مما يعني بلغة الفلسفة انه حاول ان يحل تناقضات مفاهيمية بواسطة التسويات التي اوصلها الى حد امتزجت معها كل وجهات النظر ففقدت شخصيتها.

وهكذا أجاب:

- أجل، ربما كانت الأمور هكذا. انت لا تظن إذا أننا سنرحل اليوم، أليس كذلك؟ في التاسعة لدينا اجتماع مع العقيد. بالمناسibo هل تعرف انك الرقيب الأول المناوب؟ أنا ابغلك فحسب. والأن اريدك ان تجدي لي... انتظر لحظة،

ما الذي عليك ان تجده لي؟... احصل على لائحة بضباط الصف مع معلومات عن خدمة كل واحد منهم ومدى طولها... ثم مخزون السرية من الامدادات. ماذا الجنسيات؟ اجل، وذلك أيضاً... ولكن ارسل لي اولاً ذلك الوصيف الجديد. ما علاقة الملازم «بلشتر» بالجنود هذا اليوم؟ التحضير للرحيل.

حسابات؟ سأحضر وأوقعها لك بعد الطعام. لا تسمح لأي شخص بالنزول الى البلدة. الى الكافيتريا التي في المعسكر؟ اجل بعد الطعام لمدة ساعة واحدة.. والان استدع شفيك الى هنا...

- يا شفيك ابق عند الهاتف حالياً.

- ابغكم بتواضع يا سيدي اني لم اتناول قهوتي بعد.

- إذا اجلب قهوتك وابق في الديوان عند الهاتف حتى استدعيك.

هل تعرف ما هو جندي الارتباط؟

- انه ذلك الشيء الذي يتجول من مكان الى آخر.

- حسناً، حاول ان تبقى في مكانك كلما هتفت لك. قل لفانيك مرة

اخرى ان عليه ان يجد لي وصيفاً جديداً. يا شفيك، هالو، أين أنت؟

- هنا يا سيدي. لقد جلبوا القهوة الآن.

- يا شفيك، هالو.

- أسمعك يا سيدي القهوة باردة تماماً.

- أنت تعرف ما هو الوصيف يا شفيك. افحصه فحصا سريعاً ثم قل لي

لاحقاً أي نوع من الناس هو. اعد السماعه الان.

نظر فانيك الذي كان يرتشف قهوته السوداء التي اضاف إليها بعض

الروم من زجاجة كتب عليها «حبر» وذلك من باب الاحتراز - الى شفيك

وقال:

- ان ملازمنا الأول يصرخ صراخاً في الهاتف. لقد فهمت كل كلمة. لا بد وانك تعرف الملازم الأول جيداً يا شفيك.

- نحن كاليد في القفاز. الكف الواحد يزيث الآخر. لقد خضنا سوية الكثير من التجارب. الكل أرادوا ان يفرقوا بيننا ولكننا نعود دائماً واحدنا الى الآخر. انه يعتمد عليّ في كل شيء دائماً، والى درجة تدهشني أنا نفسي. ولا شك انك سمعت بأنه عليّ ان اذكرك مرة اخرى بوجود البحث عن وصيف جديد عليّ أنا ان افحصه فحصاً سريعاً ثم ابلغ الملازم الأول. لن يعجب الملازم الأول بأي وصيف كفيما اتفق.

* * *

حين استدعى العقيد شرودر كل الضباط من الكتيبة المتقدمة الى اجتماع فقد فعل ذلك بتمتع كبيرة لأن تلك المناسبة كانت تمنحه فرصة إلقاء محاضرة، ناهيك عن انه كان مضطراً لاتخاذ بعض القرارات فيما يخص المتطوع «ماريك» الذي رفض تنظيف المراحيض والذي أرسل من قبله الى محكمة الفرقة بتهمة التمرد والعصيان.

كان ماريك قد وصل الليلة الماضية من محكمة الفرقة الى المحرس الرئيسي حيث كان قيد الحراسة. وقد استلم ديوان الفوج تقريراً مشوشاً تماماً أشير فيه الى ان هذه القضية ليست قضية تمرد لأنه لا يتوجب على المتطوعين بتظيف المراحيض. ورغم ذلك فإنها تعتبر قضية «مخالفة نظام». وهي جنحة يمكن ان يتم التغاضي عنها على اساس السلوك الجيد في ساحة المعركة. ولهذا السبب فإن المتهم المتطوع ماريك قد اعيد الى فوجه وتم تأجيل الت في قضية «مخالفة النظام» حتى نهاية الحرب. وسيتم البحث فيها مرة اخرى اذا ما ارتكب المتطوع ماريك مخالفة اخرى.

ثم حدثت قضية اخرى. فمع المتطوع ماريك اقتيد أيضاً الرقيب الزائف «تيفيليس» الى المحرس الرئيسي في محكمة الفرقة. لقد ظهر هذا مؤخراً في



الفوج حيث ارسل من احد المستشفيات في «زغرب».

كان حائراً على «الوسام الفضي الاعظم» ورتبة متطوع وثلاثة نجوم. كان يحكي عن المآثر البطولية التي قامت بها السرية السادسة في صربيا وقال انه كان الناجي الوحيد من تلك السرية. وخلال تحري قضيته تبين انه في بداية الحرب كان هناك شخص يدعى «تيفيليس» ذهب فعلاً مع السرية السادسة المتقدمة. ولكنه لم يكن قد حصل على حقوق رتبة و«متطوع». ثم التمسست المعلومات من اللواء الذي كانت السرية السادسة تابعة لأمرته حين حدث التراجع من بلغراد في الثاني من كانون الاول «ديسمبر» من عام (1914)، وقد تم التأكد بأنه ضمن لائحة الاسماء التي تمت التوصية بمنحها «الوسام الفضي» او اسماء اولئك الذين منح لهم لم يكن هناك اسم «تيفيليس». ولم يكن ممكناً على اية حال التأكد من ان جندي المشاة تيفيليس قد رقي الى رتبة رقيب في حرب البلقان، لأن السرية السادسة قد اختفت كلها بما فيه ضباطها أيضاً قرب كنيسة «سانت سافا» في بلغراد. وقد دافع تيفيليس عن نفسه امام محكمة الفرقة بأن قال انه قد وعد بـ«الوسام الفضي الاعظم» فعلاً، ولذا فقد اشترى لنفسه واحداً من المستشفى من جندي من البوسنة. أما بالنسبة لشرائط المتطوع فقد خاطها حين كان ثملاً مرة واستمر يرتديها لأنه كان ثملاً باستمرار، حيث ان بنيته قد ضعفت بسبب الزحار.

حين بدأ الاجتماع اعلن العقيد شرودر قبل مناقشة هاتين القضيتين انه سيكون عليهم القيام بالمزيد من الاتصالات فيما بينهم قبل الرحيل والذي لن يتأخر كثيراً الآن. لقد تلقى معلومات من اللواء بأنه من المتوقع وصول أوامر من الفرقة. على الرجال ان يكونوا في حالة استعداد وعلى قادة السرايا ان يتخذوا الاحتياجات الدقيقة حتى لا يكون هناك من هو غائب. ثم كرر مرة اخرى كل ما قاله في اليوم السابق، حيث انه قام بمراجعة أوضاع العمليات العسكرية مجدداً وقال انه لا يتوجب السماح لأي شيء بكبح روح القتال والمبادرة الحربية السائدة في الجيش.

كانت هناك خريطة للمعركة مثبتة على الطاولة أمامه وقد وضع عليها اعلام مركزة بدبايس، ولكن الأعلام كلها كانت مقلوبة وخطوط الجبهة قد تغيرت. وكانت هناك اعلام بدبايس تحت الطاولة.

لقد اختلطت الأمور على نحو رهيب فوق ساحة المعارك في الليلة الماضية، وذلك من قبل هر كان الكتبة يحتفظون به في ديوان الفوج والذي كان لدى قيامه بالعمليات فوق ساحة المعارك النمساوية - الهنغارية راغباً في خدشها والتمدد فوقها، كما مزق الأعلام ونثر قذارته على كل المواقع والجبهات ورؤوس الجسور ووسخ كل الفيالق العسكرية.

كان العقيد شرودر قصير البصر الى حد كبير.

راقب ضباط الكتبية المتقدمة باهتمام بينما كانت أصابع العقيد شرودر تقترب من هذه الأكوام الصغيرة.

قال العقيد شرودر متنبشاً ومحرماً اصبعه من الذاكرة باتجاه الجبال الكارباتية:



- من هنا ايها السادة، من «سوكال» الى نهر «البورغ».

ولكنه خلال ذلك دفع بأصبعه في واحدة من تلك الأكوام الصغيرة التي حاول الهر ان يحول بواسطتها خريطة ساحة المعارك الى مكان لقضاء الحاجات.

سأل مندهشاً حين التصق شيء ما بأصبعه:

- ما هذا أيها السادة؟

أجاب النقيب ساغر بلطف عن البقية:

- ربما روث قطط يا سيدي.

اندفع العقيد شرودر الى الديوان المجاور وكان ممكناً سماع صياحه الهائل وتوعداته وتهديداته المخيفة بأنه سيجعلهم يلغقون كل ما خلفه الهر.

كان التحقيق مختصراً. فقد تبين انه قد تم قبل اسبوعين احضار قط الى الديوان من قبل اصغر الكتبة واسمه «تسفيلفيس». وحين تم التأكد من ذلك حزم هذا كل اغراضه من ألفها الى يائها واقتاده الباشكاتب الى المحرس حيث كان عليه ان يقبع هناك بانتظار أوامر اخرى من العقيد.

وبذلك انتهى الاجتماع فعلاً. وحين عاد العقيد الى الضباط فرمزي الوجه، نسي انه كان عليه البحث في مصير المتطوع ماريك والرقيب الزائف تيفيليس.

قال بايجاز:

- اطلب منكم ايها السادة ان تكونوا في حالة الاستعداد التام وان تنتظروا أوامري وتعليماتي اللاحقة.

وهكذا بقي المتطوع وتيفيليس تحت الجراسة في المحرس وحين انضم إليهما تسفيلفيس لاحقاً أصبحوا ثلاثتهم قادرين على لعب المارياش وازعاج حراسهم بعد المارياش باصطياد الراغيث على حشياتهم المحشوة بالقش.

ثم انضم إليهم العريف «بيروتكا» من السرية الثالثة عشرة. فحين انتشر النبا في المعسكر بأنهم سيتجهون الى الجبهة. ضاع هذا العريف، ولكنه وجد لاحقاً في الصباح من قبل أحد الدوريات في حانة «الزهرة البيضاء». وقد كانت ذريعته هو انه أراد قبل المغادرة الى الجبهة ان يرى بيوت الاستنابات الشهيرة الخاصة بالكونت «هاراخ» في مدينة بروك وقد ضل طريقه خلال ذلك. ولكنه وصل في الصباح الى حانة «الزهرة البيضاء» في حالة من الارهاق الكامل (في الواقع كان قد امضى الليلة كلها في الفراش مع «روجنكا» التي تعمل في «الزهرة البيضاء»).

بقي الوضع دون جلاء. هل كانوا سيغادرون ام لا؟ سمع شفيك وهو جالس عند هاتف السرية الحادية عشرة المتقدمة آراء مختلفة، بعضها متشائم وبعضها متفائل. لقد اتصلت السرية الثانية عشرة وادعت ان شخصاً من الديوان سمع انهم ينتظرون القيام ببعض التدريبات على إطلاق النار على أهداف متحركة وانهم لن يغادروا الا بعد التمارين على الرمي بالمدافع ضمن ظروف مشابهة لظروف الجبهة. وهذا الرأي المتفائل لم يكن هو رأي السرية الثالثة عشرة التي هتفت تقول ان العريف. «هافليك» قد عاد من البلدة وقال انه سمع هناك من احد عمال السكة الحديدية - ان العربات موجودة الآن في المحطة.

اختطف فاننيك السماعه من يد شفيك وصرخ بغضب ان عمال السكة الحديد لا يعرفون شيئاً عن ذلك وانه قد عاد للتو من ديوان الفوج.

بقي شفيك عند الهاتف بكل اخلاص وتغان حقيقيين وكان جوابه على كل الاسئلة المتعلقة بالاخبار هي انه لا يوجد شيء محدد حتى الآن. وقد اجاب على اسئلة الملازم الاول بالطريقة نفسها حين سألته:

- ما هي الأخبار عندكم؟

اجاب شفيك اجابته المقولبة:

- لا شيء محدد يا سيدي.

- ايها البغل اللعين. اعد السماعه الى مكانها.

ثم وردت سلسله من البرقيات استطاع شفيك تدوينها بعد فترة مطولة من سوء الفهم. فقد وردت اولاً البرقية التي لم يكن ممكناً املاؤها في الليلة الماضية حين ترك شفيك السماعه معلقة وغرق في النوم. وكانت تتعلق بأولئك المتوجب تلقيحهم واولئك الذين سبق لهم ولقحوا.

ثم وردت البرقية المتأخرة المتعلقة بالمعلبات والتي جرى توضيح أمرها في الليلة الماضية.

- وأخيراً وردت برقية موجهة إلى كافة الكتائب والسرايا والوحدات التابعة للفوج وتقول:

«نسخة من برقية اللواء رقم 75692, امر رقم 172 صادر عن اللواء. في التقارير الاحصائية حول ادارة المطابخ الميدانية يجب الاتيم بالنظام التالي فيما يخص تسمية بنود الاستهلاك: 1: لحم, 2: معلبات, 3: خضار طازجة, 4: خضار مجففة, 5: آرز, 6: معكرونة, 7: برغل وسميد, 8: بطاطا, وذلك بدلا عن النظام السابق, 4: خضار مجففة, 5: خضار طازجة».

حين قرأ شفيك هذه البرقية لرقيب أول الامدادات فاننيك صرح هذا برزانه ان مثل هذه البرقيات ترمى عادة في المراحيض.

- لاشك ان احد الحمقى في رئاسة اركان الجيش قد اخترع هذه البرقية. والآن ها هي تدور على كل الفرق والألوية والأفواج.

ثم استلم شفيك برقية اخرى امليت عليه بسرعة فائقة والى حد انه تمكن ان يدون على الدقتر ما بدا انه كشيفرة:

«نتيجة للمزيد من التفاصيل فقد سمح او الشيء نفسه يمكن من ناحية اخرى رغم ذلك ان يتم دعمها؟»

قال فاننيك حين رأى شفيك مصعوقاً على نحو مخيف مما كتبه وقرأه ثلاث مرات بصوت عال المرة تلو الأخرى:

- لا معنى لهذا كله. غباء مطلق، رغم ان الله وحده لا يعرف ما يمكن ان تعنيه بلغة الشيفرة، ولكننا لسنا مؤهلين هنا في السرية لاستلام الشيفرة. يمكنك ان ترمي بها بعيداً أيضاً.

قال شفيك:

- اظن ذلك أيضاً. ولو كنت سأقدم الى الملازم الأول بأنه نتيجة للمزيد من التفاصيل فقد سمح او الشيء نفسه يمكن من ناحية اخرى رغم ذلك ان يتم دعمها، فقد يشعر بالإهانة.

ثم استأنف قائلاً:

لا يمكنك ان تصدق الحد الذي يمكن للناس ان يصلوا إليه في عنايتهم الشديدة بالتفاصيل.

قال ذلك وهو يغرق مجدداً في بحر ذكرياته:

- مرة ذهبت بالحافلة من «فيسوتشاني» الى «براغ»، وفي «ليبي» سعد إليها سيد اسمه «فوفوتني». وما ان ميزته حتى ذهبت إليه حيث كان واقفاً عند مصطبة الوقوف في الترام وبدأت احادثه حيث اننا كلانا من «دراجوف». ولكنه صرخ فيّ مطالباً اياي بالأا اتحرش به وادعي انه لا يعرفني. بدأت اوضح ان عليه ان يتذكرني حيث اعتدت وأنا طفل بعد ان اذهب لزيارته مع أمي التي كانت تدعى «أنتونيه» وان ابي كان يدعى «بروكوب» ويعمل كمأمور محكمة. ولكنه مع ذلك لم يرغب في ان يعترف بأننا نعرف واحدا الآخر. وأخيراً رويت له المزيد من التفاصيل الدقيقة وقلت انه كان في «دراجوف» شخصان من آل «نوفوتني» وهما: «توندا» و«يوسيف». كان هو «يوسيف». لقد كتبوا لي عنه من «دراجوف» وقالوا انه قد اطلق النار على زوجته حين وبخته بسبب اسرافه في الشراب. ثم رفع ذراعه ليضربني ولكنني تقاديت الضربة فحطم هو زجاج المصطبة الامامية للترام: ذاك الزجاج الكبير الذي يكون امام السائق. وهكذا طردونا خارجا

ثم اخذونا الى مخفر الشرطة، وهناك تبين ان شدة حساسيته تعود الى انه لم يكن يدعى «يوسيف نوفوتني» ابداً بل «ادوارد دوبرافا»، وانه قادم من «مونتغمري» في اميركا لزيارة اقربائه الذين تنحدر منهم أسرته.

قاطع رنين الهاتف حكايته وسمع صوت خشن من وحدة المدافع الرشاشة يسأل ان كانوا سيغادرون. كانت هناك اشاعة تقول ان اجتماعاً آخر سيعقد مع العقيد في الصباح التالي.

عند الباب ظهر الوجه الشاحب للمرشح «يلغر» الذي كان اكبر جحش في السرية، لأنه حاول دائماً في مدرسة المتطوعين ان يظهر مدى معرفته. وقد اشار الى فاننيك ان يخرج الى المر، حيث تحدثنا لفترة طويلة.

حين عاد فاننيك ابتسم باحتقار وقال لشفيك:

- يا له من احمق لعين! لاشك ان لدينا نوعيات مختارة في سريتنا المتقدمة هذه! كان هو في الاجتماع أيضاً، وحين انفض ذلك، امر الملازم الأول جميع قواد الفصائل ان يقوموا بالتفتيش على البنادق وان يكون التفتيش صارماً. والان ها هو يأتي ليسألني ان كان يتوجب عليه ان يوثق «جلايك» لأنه نظف بنديته بالكاز.



ثم انفجر فاننيك وقال:

- وهو يسأل سؤالاً سخيلاً كهذا رغم انه يعرف اننا ذاهبون الى الجبهة. حسناً، لقد فكر الملازم الأول مرتين قبل ان يطلب وضع وصيفه في القيود البارحة وقد قلت لهذا الغر الشاب ان عليه ان يفكر مرتين قبل ان يعامل جنوده كأنهم قطع من الغنم.

قال شفيك:

- طالما انك تتحدث عن ذلك الوصيف، هل وجدت وصيفاً جديداً للملازم الأول يا ترى؟.

أجاب فاننيك:

- صبراً، لدينا الكثير من الوقت لكل شيء... وعلاوة على ذلك، اعتقد ان الملازم الأول سيغتاد علي «بالون». الآن ولاحقاً سيبتلع شيئاً ما يخص الملازم الأول وبعدها سيتوقف. وسيضطر الى ذلك حين نصل الى الجبهة. فهناك لن يتوفر لهما كليهما ما يأكلانه اطلاقاً. وحين اقول ان علي بالون ان يبقى فليس هناك مجال لتغيير ذلك. هذا شأن من شؤوني ولا علاقة للملازم به. هيا خذ الأمور ببساطة.

تمدد فاننيك على سريره مرة اخرى وقال:

- يا شفيك ارو لي حكاية مضحكة عن الجيش.

أجاب شفيك:

- أستطيع ولكنني اخشى ان يتصل احدهم بالهاتف مرة أخرى.

- إذا افصل الهاتف يا شفيك. فك البراغي التي تصله بالخط وارفع السماعة.

قال شفيك وهو يرفع السماعة:

- حسناً، سأروي لك حكاية تناسب هذا الموقف الذي نحن فيه باستثناء

انه في ذلك الحين كنا في مناورات وليس في حرب حقيقية.

كانت الفوضى شاملة كما هي الحال الآن فلم يكن هناك من يعرف موعد مغادرتنا الثكنات. كان معي شخص يدعى «شيتس» من «بورجيتشي» وهو رجل طيب ولكنه متدين وجبان ويتخيل ان المناورات شيء رهيب مروع، وان الناس تموت من العطش خلال المسير وان الوحدات الطبية تلتقطهم كالثمار الفاسدة من على الأرض. وهكذا حشا نفسه جيداً بالمشروبات، وحين انطلقنا الى المناورات من الثكنة ووصلنا الى «منيشيك»، قال: «لا يمكنني تحمل ذلك ايها الاولاد. لا يمكن سوى للرب ان يحميني». ثم حين وصلنا الى «هورجوفيتسه» ومنحنا هناك يومين للراحة بسبب حدوث خطأ ما سبب تقدمنا السريع جدا بحيث اصبح بإمكاننا وإمكان الافواج الأخرى التي سارت معنا على ذلك الجناح ان نأسر قيادة اركان العدو كلها. وكان من شأن ذلك ان يشكل عارا لانه كان من المفروض ان يبرز علينا الجيش الاخر وان يكسب العدو المعركة، فقد كان مع صفوف العدو ارشودوق عجوز مهترئ. وقد كان ما فعله «شيتس» هو ما يلي: حين كنا معسكرين هناك انطلق ليتبضع من احدى القرى وراء «هورجوفيتسه»، وعاد الى المعسكر ظهراً. كان الجو حاراً وكان هو ثملاً تماماً، وفي الطريق شاهد عموداً وعليه صندوق وفيه تحت الزجاج تمثال صغير للقديس جون النيوموكي. وقد صلى امام القديس جون وقال: «لا شك ان الجو حار عليك هنا، يجب ان نشرب قليلاً. انت في الشمس هنا ولا شك انك تتعرق طوال الوقت». وهكذا هز «مطرته» ورشف منها رشفة وقال: «لقد تركت لك رشفة أيضاً يا ايها القديس جون الفيوموكي». ثم شعر بالخوف فشرب كل ما في «المطرة» فلم يترك شيئاً للقديس جون. قال: يا للمسيح ومريم يا ايها القديس، عليك ان تسامحني على هذا وسأحاول تعويض الأمر. سأخذك معي الى المعسكر واعطيك الكثير لتشربه بحيث لن تستطيع ان تقف على قدميك. (وهكذا حطم «شيتس» العزيز الزجاج من شدة اشفاقه على

القديس جون النيوموكي واخرة تمثال القديس ووضعه تحت سترته وحمله الى المعسكر. وبعد ذلك كان القديس جون النيوموكي ينام معه على القش ويحمله في كيسه خلال المسير، وراح صاحبننا يكسب دائماً في لعب الورق. كان يكسب باستمرار حتى وصلنا الى مقاطعة «براخيني» وعسكرنا في «دراهنيتسه»، وهناك خسر كل ما معه من ألفه الى يائه. وحين انطلقنا في الصباح كان القديس جون النيوموكي مشنوقاً على شجرة إجاص على الطريق. حسناً، هذه هي الحكاية المضحكة التي طلبتها، والآن سأعيد السماعه الى مكانها.

وها هو الهاتف يرسل رجفة نشاط جديد عصبي بعد ان تم تعكير التناغم القديم للسلام الذي كان يسود المعسكر.

خلال ذلك كان الملازم الأول لو كاش في غرفته يدرس رموز الشيفرة التي استلمها للتو من أركان الفوج مع التعليمات الخاصة بفكها، وكذلك تعليمات مرمزة سرية حول الاتجاه الذي كان يتوجب على الكتيبة المتقدمة ان تسلكه في طريقها الى الحدود العاليسية (المرحلة الأولى):

«7217 - 1228 - 475 - 2121 - 35 = موشون

7282 - 375 - 8922 = راب

4432 - 1238 - 7271 - 35 - 8922 = 35 كومارنو

7282 - 9299 - 310 - 375 - 7881 - 298 - 475 - 7979 = بودابست

حين فك الملازم الأول هذا الرمز تنهد قائلاً:

- اللعنة على هذا الشيء اللعين كله!

الفهرس

- 7 الفصل الأول: محن شفيك في القطار
- 36 الفصل الثاني: حملة شفيك على بوديوفيتسه
- 133 الفصل الثالث: مغامرات شفيك في كيرالهيديا
- 219 الفصل الرابع: آلام جديدة
- 256 الفصل الخامس: من «بروك أن دير لايتا» الى «سوكال»



هذا الكتاب

من غير الممكن إعطاء تقييم حقيقي لشخصية شفيك المعقدة... فهو يلجأ متعمداً إلى الغموض وامتهان الجنون بشهادة رسمية... تراه يتحدث معظم الوقت حديثاً مزدوج المعنى... وشروحه مليئة بالسخرية، شأن الكثير من تصرفاته... القليل من الناس، بمن فيهم ممثلو النيابة العامون الصارمون، يستطيعون مقاومة عينيه الزرقاوين الودودتين والجريئتين في آن.

وهو ليس أحمق ولا فوضوياً، بل يؤمن بالقانون والنظام، وفي الوقت ذاته، تراه ينضح بالمشاعر والتعاطف الإنساني وبخاصة عندما يعترف بأنه: «لا بد للأخطاء من أن تقع»..

من الكتاب الذين أدركوا عظمة رواية الجندي الطيب شفيك، بعد كتابتها بفترة قصيرة، «ماكس بروك» الذي شخّص عبقرية كل من «كافكا» و «يانا تشيك»: «كان هاشيك ظريفاً من طراز رفيع جداً.. وربما سيضعه عصر لاحق على المستوى نفسه مع سرفاتس ورايبليه».

لقد رأى ماكس برود شيئاً من «سانشو بانزا» في شخصية شفيك، وهناك بعض الحقيقية في ذلك.

الناشر

ISBN 978102467-4



9 789781 102467 2

للطباعة والنشر والتوزيع  **دالخيال**

بناية يعقوبيان، بلوك ب طابق 3، شارع الكويت، القارة، بيروت 2036 6308
E-mail. alkhayal@inco.com.lb 009611-740110 لبنان - تلفاكس